علي أدهم

ألوان من أدب الغرب



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

علي أدهم

ألوان من أدب الغرب



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مقدمة

من الملحوظ فى تاريخ النهضات الأدبية أنها كانت فى الأعم الأغلب نتيجة تلاقى ثقافتين متباينتين ، والظاهر أنه لا مندوحة عن احتكاك ثقافتين مختلفتين لإيجاد البدائع الخالدة وخلق الآيات الفنية الرائعة ، فالأدب اليونانى القديم لم ينهض إلا بعد احتكاكه بثقافة قدماء المصريين، والأدب الرومانى لم يستكمل نضجه إلا بعد احتكاكه بالأدب اليونانى ، والأدب العربى نهض نهضته المعروفة وتعددت مناحيه واتسعت آفاقه بعد احتكاكه بالأدب الفارسى والثقافة اليونانية الرومانية ، والأدب المصرى الحديث يسير الآن فى طريق النهوض والتسامى باحتكاكه بالثقافة الغربية خاصة وسائر الثقافات العالمية عامة

ولكن هذا الامتزاج لا يتم إلا بشىء من التنازل عن الشخصية الأدبية القديمة ، والتفريط فى جانب من التراث الفكرى العتيق ، والتضحية بطائفة من الاعتقادات السالفة التى تميز خصائصنا الفكرية ، وإذا رغب الأدب عن هذا التنازل وأبى إلا الاستمساك بشخصيته القديمة وتنكر لكل روح مخالفة لروحه أمكنه الاحتفاظ بنقاوته وصفائه ، ولكنه

سيظل محصور الفكر ، ضيق الأفق ، بعيداً عن أنموذج الكمال الإنسانى ، عاجزاً فى التعبير عن شتى العواطف البشرية .

وتكوين ثقافة قوية مليئة بالحياة مسايرة لحركة التقدم العالمى يقوم على إنماء جذور الماضى وتطعيمها بالأفكار الحديثة ، والاتجاهات المعاصرة ، لا على اقتلاع تلك الجذور ، وإزالة معالمها ، ومحو آثارها ، وهذا ما يحاوله الآن أعلام الأدب المعاصر فى مصر خاصة والشرق عامة ، فهم يحاولون تجديد الماضى وإزالة الغبار عن آثاره من ناحية ، ومن ناحية أخرى يحاولون أن يفيدوا من خير ما فى عناصر الأدب الغربى خاصة والأدب العالمى بوجه عام ، وسبيل ذلك هو التعريف بكبار كتاب الغرب وقادة مفكريه ، ونقل آثارهم ، وبيان مذاهبهم ووجهات نظرهم ، وتحليل أفكارهم ، وتشريح عقائدهم . على أن الأفكار والنظريات والمذاهب المستوردة من الخارج لا يكون لها تأثير بليغ فى توجيه أفكارنا وبناء ثقافتنا إذا لم تصهر فى مراجل حياتنا الجائشة المضطربة ، وتطبع بطابعنا الخاص .

وهذه الفصول عن طائفة من كبار كتاب الغرب وأعلام مفكريه والمختارات من آثارهم مشاركة جدّ متواضعة فى تغذية هذه الحركة التى بدأت تثمر ثمرتها ، وتؤتى أكلها ، وليس للأمم قيمة فى معيار الحضارة إلا بما تقدمه فى عوالم الفكر والفن وبما تضيفه إلى رصيد الثقافة الإنسانية العامة ؟

على أدهم

سخرية سالتيكوف

الكاتب الروائى ميخائيل سالتيكوف الذى ولد سنة ١٨٢٦ وتوفى سنة ١٨٨٩ هو كبير الساخرين وشيخ الهجائين فى الأدب الروسى ، وتشبه مكانته فى ذلك الأدب من وجوه كثيرة مكانة الكاتب العظيم سويفت فى الأدب البريطانى ، وهو يشارك سويفت فى نزعة تفكيره ، ولون أدبه ، وميله الدائم إلى التنقص والازدراء . وكان لا يرى خيراً فى المجتمع الروسى الذى عاش بين ظهرانيه ، وكلما أدار الطرف فيما حوله وأرسل خاطره النفاذ كان لا يبصر سوى الفساد المتغلغل ، والجهالة المتفشية ، والضعة والمهانة ، والبهيمية المتوقحة ، والقسوة البالغة ، وفراغ العقول ، وتفاهة النفوس ، وجمود الظل ، وكثافة الطبع ، وكثرة الرياء والمداهنة والتصنع ، فأخذ يسخر من ذلك كله ، ويصب عليه هجاءه ، ويرسل حمم غضبه ، وكان هجاؤه هجاء رجل يائس لا يرجو خيراً ، ولا أمل له فى صلاح الأحوال ، وعلاج الفساد ، ومرمة الخلل ، قال مرة عن لسان أحد شخوصه « لقد عرفت إنساناً كان ينعم بالسعادة وهو جاهل لا يدرى شيئاً ، فلما تولى جهله و بدأ يعرف عمد إلى الانتحار »

وقد دفع سالتيكوف ثمناً غالياً « لكلبيته » وميله الدائم إلى التهانف

والسخرية ، فلم يرتفع إلى مكانة جبابرة الأدب الروسى ، وقصّر عن باع مشاهير القصصيين ، وقراؤه فى العصر الحاضر قليلون ، لأن أكثر العيوب التى كان يجيد وصفها ويفرغ لنقدها كانت متصلة بنظم سياسية قد تغيّرت أوضاعها وعفا أثرها ، وكان مضطراً إلى التزام الغموض والإغراب فى كتابته ، وذلك دفعاً للشبهة واصطناعاً للتقية ، ولم يكن له بد من الالتجاء إلى ذلك فى عهد روسيا القيصرية لكى يتخلص من الرقيب ، ويستطيع الإفصاح عن خواطره الهادمة الزارية ، وقد بذل جهداً كبيراً فى الاحتيال على تلك الرقابة والتفلّت من شباكها المنصوبة ، وكانت تشغله على الدوام مشكلة كيف يخفى غرضه ويبعد مرماه ، واضطره ذلك إلى أن يعالج التعبير عن أفكاره بأسلوب غير مباشر معتمداً على الإشارات الغامضة والتلويحات البعيدة ، وقد أطلق على هذا الأسلوب اسم الأسلوب « الإيسوبى » نسبة إلى إيسوب كاتب الخرافات المعروف ، وكان يتحرّى فى بعض كتاباته الإطالة والإسهاب ويتكلفه تكلفاً لعلمه أن يد الرقيب ستتناول بالحذف والبتر الكثير مما يكتب ، واستطاع بذلك أن يؤدى رسالته الأدبية ويرسل نقده اللاذع وتهكمه المر ، ولو كان هذا الفنان القدير والساخر البارع أكثر إيماناً بالطبيعة الإنسانية وأقل ميلاً إلى السخرية لظلت مؤلفاته تقرأ إلى اليوم مع مؤلفات أضرابه من فحول الأدب الروسى .

ولم تكن حياته هادئة غاية فى اللين والسلاسة ، ولا عاصفة حافلة بالأعاصير والأنواء ، وقد ولد من أسرة شريفة المحتد ، وتلقى دروسه فى

مدرسة بتروغراد الإمبراطورية ثم التحق بخدمة الحكومة ، ومال إلى الأحزاب الحرة ، وأخذ يقرض الشعر ، وفى سنة ١٨٤٧ كتب قصة اسمها « متناقضات » لم يظهر فيها ميله إلى السخرية ، وإنما ظهر تأثره بالكاتبة الفرنسية جورج ساند ، وأتبعها بقصة أخرى سنة ١٨٤٨ لفتت إليه أنظار الحكومة ، فنفته عن العاصمة ، ونقلته إلى إقليم فياتكا فى شمال شرقى روسيا ، وظل هناك سبع سنوات ، وسمح له بالعودة سنة ١٨٥٦ ، وعين مساعداً لحاكم إقليم إيران واشترك فى تحرير جريدة « المعاصر » التى كان يصدرها صديقه نكراسوف ، وأخذ ينشر فيها صوراً عن الحياة فى الريف بإمضاء مستعار ، وعطلت الجريدة سنة ١٨٦٦ و بعد ذلك بعامين استقال من وظيفته واشترك مع نكراسوف فى إصدار جريدة « مذكرات عن الوطن » وظلا يحررانها معاً لحين وفاة نكراسوف فى سنة ١٨٧٧ . وانفرد سالتيكوف بعد ذلك بإصدارها ، وكانت تعتبر لسان حال الأحرار المتطرفين ، وفى سنة ١٨٨٤ طغت على روسيا موجة شديدة من الرجعية عقب مصرع القيصر الإسكندر الثانى ، فعطلت جريدته ، وكان تعطيلها ضربة مؤلمة وطعنة مصمية لسالتيكوف ، لأنه أوقف عليها جميع قواه ، ومنحها من سويداء قلبه ، وقد ظهر أثر تلك المرارة والحسرة فيما كتبه فى سنيه الأخيرة قبل وفاته فى عام ١٨٨٩ .

وأكثر الهجائين والساخرين لا يستطيعون الخلاص من أوهاق عصرهم والارتفاع فوق مشكلاته ، ولكن الساخر الموهوب قد يستطيع أن يلمح

المعنى الأبدى الخالد خلال ضجة العصر وفى معمعان أحداثه ، وقد استطاع سالتيكوف أن يرتفع إلى هذا المستوى فى بعض كتاباته بفضل ما أوتيه من مواهب فنية وعبقرية صادقة ، وقد تجلت قدرته فى أبدع مجاليها فى « الخرافات » التى كتبها بين سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٨٦ ، والكثير منها يعد من طرف الفن و بدائع القصص ، وهو لا يسهب فيهـا ولا يسرف فى الغموض ، ولا يلجأ إلى الأساليب الملتوية ، والفكرة المبثوثة فى نواحيها ملائمة للأسلوب ، و يتفجر خلال ما بها من سخرية لاذعة ينابيع من العطف والرقة والحنان ، فهى تتفق مع تقاليد الأدب الروسى وتساير نزعاته الصميمة ، وتمثل إنسانيته المعهودة .

ففى أقصوصة « الحصان العجوز » يحدثنا عن ذلك الحيوان المظلوم المضطهد المعلق بين الحياة والموت ، والذى لايعرف من الحياة وتجاربها سوى العمل الناصب والكد المرهق ، وهو يقصد به الفلاح الروسى أو الفلاح فى مختلف العصور والمواطن ، و يصف استهدافه لوقدات الحر ونفحات القر ،وأمنا الطبيعة تظلل الجميع بجناح رحمتها ، ولكنها لاتحنو على هذا الحيوان الشقى ، ولا تنفك ترمضه بلوافح الحر أو تقذفه بحواصب الثلج ، وكل مظهر من مظاهر حياتها يتطلب منه تضحية ، وكل ازدهار فى نواحيها ينغص عليه عيشه و يسمم حياته ، وهو يقضى حياته دون أن يعرف انسجام الأنغام ولا جمال الألوان ، ولا يدرى من المشاعر والأحاسيس سوى مشاعر الألم وأحاسيس العذاب والإرهاق ، وفى الصباح تملأ الشمس المشرقة

الأرض حياة و بهجة وسروراً ، ولكنها تزيد « الحصان العجوز » ألماً على ألم ، وما دام هو قائماً بعمله ناهضاً بحمله لا يعنى إنسان بما يلهب ظهره من وقع السياط ولا بما يصيبه من الجراح ، وليس المهم إسعاده ، وإنما المهم المحافظة على حياته ليظل فى كدحه المتواصل يروى الحقل بدمائه ، وتمضى به الليالى وهو لايدرى عدتها لأنه لايعرف سوى « الأبدية » .

وفى أسطورة « الغراب الضارع » يروى أن جماعة الغربان كادت تفنى من جراء ما نالها من أذى الإنسان من ناحية ، و بسبب إزالة الغابات وتجفيف المستنقعات من ناحية أخرى ، وضاقت بها سبل الرزق وأجدب عيشها ، واضطرت إلى غشيان الحدائق والبساتين والمزارع ، وكان ذلك يزيدها تعرضاً للهلاك والفناء ، وكان من بينها غراب مسن قد وهن العظم منه و بلغ من العمر عتياً ، وكان يسمع شكوى جماعته و يفكر فى أحوالها تفكيراً متصلا عميقاً ، ثم زيدت عليهم الضرائب فازدادت حالتهم سوءاً وكان أولو الأمر منهم هم الصقر والبازى والنسر والبرقش . ولم تجد شكواهم من ارتفاع الضرائب ، وكان الصقر يرسل إليهم البرقش ليتولى تحصيل الضرائب ويسكت المتذمرين الناقمين ، و يعاقب المحرضين دعاة الفتنة الراغبين فى الشغب ، وكان يخرب الكثير من الأعشاش و يأسر العدد العديد من الغربان ، و يلقى بهم إلى الذؤبان لتعرق عظامهم وتنهش لحمهم ، ولما رأى الغراب المسن هـذه النكبات المترادفة التى لحقت قومه أجمع على أن يذهب إلى الصقر و يقدم إليه التماساً ، و يبسط له الحالة و يصف له

ما يعانيه الغربان من الفاقة والاضطهاد ، فإن لم ينصفه الصقر قصد البازى فإذا أهمل البازى أمره ذهب تواً إلى النسر ، وكان بمثابة حاكم الإقليم ، واستيقظ الغراب من نومه مبكراً ، وسعى إلى لقاء الصقر ، وسرعان مالحظه على مرقب عال ، وأدرك من حركاته وملامح محياه أنه مطمئن النفس رضى البال ، فقصده وحياه ، فرد تحيته وسأله عن شأنه ، فقال « إنى آت لأعلن الحق » وذكر أن جماعة الغربان موشكة على الفناء ، لأن الإنسان يضطهدها والضرائب تثقل كاهلها ، والبرقش يقسو عليها ويعنف بها ، وهى تكاد تقضى نحبها من المسغبة والجهد .

فقال الصقر « أليس سبب ذلك كسلها وخمولها ؟ »

فأجابه الغراب « ولكن عهدك بنا أننا لسنا من الكسالى الخاملين ، بل نحن قدوة فى النشاط وبعد الهمة ، ونحن نعيش من الكد وعرق الجبين ونعمل بأمانة وإخلاص ، ولو أن العمل الأمين النزيه أصبح فى هذا الزمن قليل الثمرة زهيد القيمة » .

ففكر الصقر ملياً ثم قال « استعملوا ذكاءكم » .

فقال الغراب « أنت تعرف التزامنا حدود الأمانة ، وترفعنا عن الأساليب السائدة فى هذه الأيام ، ولقد جعلت علينا رئيساً لتحمينا وتدفع عنا الغوائل ، وأنت على النقيض تضطهدنا وتلحق بنا ضروب الأذى والتنكيل » .

فأجابه الصقر « أهـذا كل ما عندك ؟ وهل أفرغت جعبتك ؟ إن الحق الذى تدعى الأسبقية فى معرفته قد صار معروفاً من زمن طويل ،

ولو وقفت في مفترق الطرق ورفعت صوتك به عالياً لما أجدى عليك ذلك، وأنت تزعم أنني أنا الصقر أنهب عشك ، وبدلا من أن أحمى مصالحك أسلبك ما تملك ، ألا تدرى يا صاح أنك تريد أن تعيش وأنني مثلك أريد أن أعيش ؟ ولو كنت أنت القوى لتغديت بي قبل أن أتعشى بك ، ولكنني أنا القوى الآن فأنا أتغدى بك قبل أن تتعشى بي ، أليس هـذا حقاً ؟ لقد ذكرت لى ما تعتقده حقاً ، وها أنا أصارحك بما أراه حقاً ، وقد يكون حقك متبعاً في السماوات وفيما وراء السحب ، ولكن حقي هو المتبع هنا في الأرض ، فانصرف إلى عشك ودعني من ثرثرتك لأني أريد أن أستريح » .

فلم يستطع الغراب المسن أن يتبين معنى هـذا الكلام ، وإنما أدرك بالبداهة أن حديث الصقر ينطوى على معنى خطير ، ويتضمن تصريحاً قاسياً ، وخرج من عنده وهو مصمم على الذهاب إلى البازى ، وكان يقيم في أخدود يصعب الوصول إليه ، ويقف على بابه البرقش لتلقى الالتماسات، وكان كاتم أسراره المؤتمن على شؤون الدولة ، ويهمس بعض ذوى الألسنة الطويلة بأنه ابن غير شرعي للبازى ، وكان مرحاً طروباً يهوى الحديث الطلى ويحب النكتة البارعة ، وكان غزلاً خنثاً متهالكاً على حسان الطير ، ولكنه كان في مباشرته لأعمال وظيفته شديداً قاسياً فظاً غليظاً ينفذ الأوامر في دقة صارمة ، فلما رأى الغراب قال له « ألا تزال حالماً » ؟

فأدرك الغراب أن قصته قد اشتهرت ، وأن قلم المخابرات السرية قد

قدّم تقريراً عنه للبازى ، فقال « إن الشيوخ لا يحلمون » .

فقال البرقش « لقد قدمت لتعلن الحق ، فهل أبلغ قدومك ؟ »

فأجابه « نعم إذا تفضلت » .

فغاب البرقش ملياً ثم عاد وقال « إن الرئيس لا يستطيع أن يأذن لك لأن وقته لا يسمح له بذلك ، وقد بلغه عنك أنك من المشاغبين مثيرى الشعور ومحركى الفتنة ، ولو لا كبر سنك لكان لنا معك موقف آخر » .

فخرج الغراب محزوناً خفيض الجناح وفى نيته أن يرفع الأمر إلى النسر ، فلما سار إليه ودنا منه وجد حوله الأعوان والأنصار والخدم والحشم ، ورأى صنوفاً مختلفة من البوم والخفافيش تتلقى التعليمات وتحرر الرسائل .

ولما مثل بين يديه قال « لقد قدمت من بلاد بعيدة لأعلن الحق » .

فأجابه النسر « لا تزخرف الحديث ولا تسهب واعرض شكواك فى إيجاز » .

فقال « إن الغربان قد ساءت أحوالها لأن الإنسان يضطهدها والبرقش والصقر والبازى يثقلونها بالضرائب الفادحة ويخربون أعشاشها » .

وأقرّ النسر حديثه وأعاره سمعه ، فازدادت حماسته وأخذ يسح ويهضب فى بلاغة وحسن بيان ، حتى نفض كل ما فى نفسه ، فقال له النسر « هل أفضيت بما فى نفسك وأرحت ضميرك ؟

فقال الغراب « لقد قلت كل شىء » .

فقال النسر « لقد اعتليت هذا المربأ أكثر من مائتى سنة ولم أستطع

خلال تلك المدة الطويلة أن أنظر إلى وجه الحق » .

فأجاب الغراب دهشاً « ولكن لماذا كل هذا الإعراض عن الحق ؟ »

فقال النسر « لأن الطير لا تستطيع أن تدرك الحق ، وليس لها قدرة على معرفته ، وإذا كان أى فرد يخال أنه عرف الحق فعليه أن يتبعه ويعمل به ، ولكننا لانستطيع اتباع الحق ولذا لا نقوى على النظر فى وجهه »

واستغرق النسر هنيهة فى التفكير ثم استرسل قائلا « إن الحق جميل وصالح ولكنه لا يصلح فى الأوقات جميعها ولا فى الأمكنة كلها ، والبعض يجب أن يخدموا الحق ، ولكن كيف يلاقونه وأيديهم فارغة ؟ أدر الطرف حولك تبصر فى كل مكان الصراع الدائم والمنافسة المستمرة ، وكل فرد يجهل طريقه ولا يدرى غايته ، ولأجل ذلك يتحدث كل فرد عن حقه الخاص ، وسيجىء العصر الذى يعرف فيه كل مخلوق حدوده وهدفه ، وتنطوى المعركة وتنتهى بانتهائها الحقوق الشخصية ، ويرفع النقاب عن وجه الحق العام ، ويمتلىء الكون نوراً ونعيش جميعاً فى محبة وائتلاف ، فعد إلى الغربان وزف إليهم هذه البشارة واخبرهم أن ثقتى بهم كبيرة وأملى فيهم عظيم » .

وفى خرافة « الشبوط المثالى » يتحدث سالتيكوف عن شبوط كان يكثر من مناقشة « البياض » ، وكان هذا الشبوط المثالى يذهب إلى أن الإنسان يستطيع أن يعيش فى الدنيا بالحق وحده ، ولكن البياض كان يخالفه فى ذلك ويرى أن الإنسان لايستطيع أن يشق طريقه دون الاحتيال والمصانعة ، ولم يذكر البياض حدود تلك المصانعة ، ولكنه كان كلما ذكر

ذلك للشبوط يشتد غضبه وتتقد حماسته ، ويقول « ولـكن هذا لا يتفق مع الشرف ! » فكان يرد عليه البياض قائلاً « ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً » .

وكان الشبوط سمكاً هادئاً ميالاً إلى المثل الأعلى ، وهو يغشى أعماق الجداول ، وقيعان الغدر ، ويظل كامناً بلا حراك ، وقد علمه ذلك إدمان التفكير ، وأوحى إليه خواطر عن الحرية والتقدم ، وسمك الشبوط يقع عادة فريسة للشباك التى تلقى ، ولكى تصيد منه مقادير كبيرة يلزم أن تكون صاحب حيلة ، والصيادون العارفون يختارون لصيده الأوقات التى تعقب الأمطار حيث يلقون شباكهم ويضربون الماء بالحبال والقضبان ، ويحدثون جلبة وضجة فيسمع الشبوط الضجيج فيخال ذلك بشرى انتصار الأفكار الحرة ، فيهرع من الأعماق مستفسراً عن جلية الخبر وليشترك فى حفلات الابتهاج فيقع الكثير منه فى الشبكة .

أما البياض فإنه يغلب عليه الشك ، وكانا كلما التقيا يتجاذبان الحديث ويثيران النقاش والجدل .

كان الشبوط يبدأ يقول « إنى لا أعتقد أن التنازع أو التناحر هو قانون الحياة الذى تنشأ المخلوقات جميعها فى ظل سلطانه وتحت تأثيره ، وإنى مؤمن بالسلام والنجاح الذى لا تلوثه دماء ، ولست أعتقد أن السعادة أضغاث أحلام وخيال سمادير وإنما هى فى طريق التحقيق وستصبح فى متناول يد الإنسان »

فيجيبه البياض ساخراً « إنتظر حتى يجيئك الفرج » .

وكان البياض يعتقد أن الحياة قائمة على الصراع ولا يؤمن بفكرة التقدم .

وكان الشبوط يقول « إن الضوء الباهر سيبدد الظلام المخيم » .

فيقول البياض « هل تعتقد أنه سيجيء عصر يبطل فيه اعتداء السكراكى ؟ » .

الشبوط — وما هى السكراكى ؟

البياض — تحاول أن تحل مشاكل العالم ، وأنت لا تدرى ما السكراكى ؟

ثم يبتعد عنه مغيظاً حنقاً لسذاجته المفرطة ، ولكنه لا يلبث أن يعود إليه فى اليوم التالى ليجدد المناقشة ، ويثير الجدل .

قال الشبوط فى إحدى تلك المناقشات « إن الخير له الأثر الأكبر فى الحياة ، والحياة لا تخلو من الشر ، ولكن مبدأ الحياة وقوامها هو الخير » .

فأجابه البياض « إنك تفتح فاك كثيراً ، ولكنك للأسف تغمض عينيك طويلا » !

الشبوط — « إن ألفاظك نابية ، وأفكارك سخيفة ، وهل هذا جواب ؟ » .

البياض — أصارحك بأنك لا تستحق أن تناقش ويرد على كلامك ، ولقد بلغ منك الحمق والعته كل مبلغ !

الشبوط — ولكن استمع إلى ، إن الشر لم يكن يوماً ما قوة فعالة فى التاريخ ، وحوادث التاريخ خير شاهد على ما أقول ، والخير هو الذى أطلق سراح المظلومين وكسر أغلال المصفدين ، ولولا عامل الخير لما كان هناك تاريخ ، والتاريخ هو قصة انتصار الحرية ، وغلبة الخير واستعلاء الحق على الشر والحماقة .

البياض -- أتظن أن الشر والحماقة قد تمت هزيمتهما ؟

الشبوط — لم تتم بعد ، ولكنهما سينهزمان لا محالة ، وأعود إلى الاستشهاد بالتاريخ ، وأرجح أنك ستوافقنى على أن الكثير من مظاهر القسوة قد ذهبت حدتها وهان وقعها .

وتنتهى المناقشة بأن يشتم البياض الشبوط ، ويسبه سباً قبيحاً ، وينعته بالغفلة ومجاوزة الحد فى السذاجة والبله .

ثم يظهر الكركى يطلب صيداً فيحذّر البياض الشبوط ، فيعجب من ذلك إذ كيف يعتدى القوى على الضعيف بغير سبب ولا يراعى حرمة القانون ؟ وهل من حق الكركى أن يفترسه ؟ ويصارح البياض بأنه سيتمكن ببلاغته الساحرة وصادق حماسته من إقناع الكركى بخطل رأيه وفساد خطته ، ويحمله على ترك التعدى والاستضراء ، فيضيق البياض به ذرعا ، وينعى عليه سذاجته ويعلن أنه سيمتنع عن مناقشته ويبتعد عن مناصحته .

وكان البياض على تبرمه بالشبوط وضيقه بسذاجته يهوى حديثه لما

يعهده فيه من الصراحة وصدق السريرة فى عصر كثر فيه الرياءواستفاض النفاق .

قال له الشبوط « أراك تخوفنى الكركى وتوصينى بأن أحذره ، ولكن لماذا يقصدنى بسوء وأنا لم أسئ إليه ؟ »

فقال البياض « أتظن أن القوى يفترس الضعيف عقاباً له ؟ كلا إن الضعيف يؤكل لأن القوى جائع ! »

فقال الشبوط « ولكنى أعتقد أن الكركى لا يصم أذنيه عن صوت الحق ، ومحال أن يسىء إلى شبوط هادئ وديع مسالم مثلى ! »

وأعلن الشبوط أن السمك يجب أن يحب بعضه بعضاً ، وأنه إذا رأى الكركى فسيعمل على إقناعه بذلك ويذكر له ما عليه من واجبات .

وذاعت أراء الشبوط ، واشتهر أمره ، فجاءه رسول من الكركى يخبره أنه يود لقاءه ، فلم يحجم عن ذلك لثقته بنفسه ، واعتداده بخلابة بيانه وقوة حجته ، فلما التقيا قال له الكركى « لقد ترامت إلىّ أخبار حكمتك وبراعتك فى المناقشة ، وقدجئت لأستمتع بأحاديثك وأستفيد من علمك » .

فقال الشبوط « لقد زدتنى شرفاً وملأت قلبى سروراً ، وأنا لا أطلب السعادة لنفسى ، وإنما أودها للجميع ، وأملى أن تحل الثقة بين الأسماك مكان الخوف والحذر » .

الكركى — أترى ذلك ممكناً ؟

الشبوط — لا يخالجني فى ذلك شك ، وأنا أنتظر تحقيقه من الحين إلى الحين .

الكركى — وإذا أنا أقدمتُ على افتراس الشبوط ؟

الشبوط — هذا بلا ريب عمل مخالف للقانون .

الكركى — إنى لم أسمع عن هذا القانون ! وما عندك غير ذلك ؟

الشبوط — إن العدالة ستنتصر ، وسيمتنع القوى عن ظلم الضعيف ، والغنى عن اضطهاد الفقير ، ويعيش الناس للناس ، ويتم التعاون بيننا ، فإذا وقع أحدنا فى خطر أقلنا عثرته وانتشلناه .

الكركى — لقد فهمت من حدثك أنى سأكون مضطراً إلى العمل .

الشبوط — مثل سائر الأفراد .

الكركى — لأول مرة أسمع مثل هذا الحديث ! أنفض يا صاحبى النوم من عينيك واستفق من أحلامك ، وهل تظننى أعمل لتجنى ثمرة عملى؟

الشبوط — كل فرد سينتفع من مجهود غيره من الأفراد .

الكركى — إنك تتحدث حديثا غير لائق ، وتطالعنا بأشياء عجيبة !

ثم التفت الكركى إلى صديق له وقال « ما الاسم الذى يطلقونه على مثل هذا الحديث اليوم ؟ »

— إنهم يسمونه الاشتراكية !

— آه لقد سمعت من زمن أن الشبوط يفكر تفكيراً غريباً ، ويفضى بأحاديث مثيرة ، وقد أحببت أن أختبر ذلك بنفسى .

وعندما نطق بذلك ضرب الماء بذنبه فى صورة تنذر بالشر والغدر إلى حد أن الشبوط على بساطته وسلامة نيته أدرك مغزاها ، واستولى عليه الرعب وقال « إنى لا أقصد شيئاً . . . إغتفر لى سذاجتى »

فقال الكركى « إن السذاجة شر من السرقة ، ولو استسلمنا للسخفاء لقضوا على العقلاء ، ولقد أصغيت إلى حديثك مدة دقائق فأمللتنى وضايقتني إلى حد لا يطاق » .

فقال الشبوط « ألا تعرف الفضيلة ؟ »

وهنا فغر الكركى فاه ثم جرّ المـاء فى حركة آلية و بدون رغبة ظاهرة فى ابتلاع الشبوط ، ثم التهمه دفعة واحدة . واستولى على بعض الأسماك الحاضرة ذهول لهول مصرع الشبوط ، ولكنهم بعد دقائق قلائل استفاقوا من ذهولهم ، وتقدموا من الكركى يسألونه عن صحته الغالية .

وفرّ البياض محزوناً كئيباً وهو يقول لنفسه « هذا ما أسفرت عنه أحاديثنا ! »

أحاديث تولستوى

يسود عالم الأخلاق نوعان من الآداب ، آداب الأرستقراطية وآداب الدمقراطية ، فالطموح وترامى الآمال وجموح المطامع والـكبرياء والجبروت وشدة الاعتداد بالنفس والميل إلى العدوان و بسط النفوذ واستعمال القسوة وأمثال ذلك من الصفات مردها إلى آداب الأرستقراطية ، أما الدمقراطية فمن شمائلها التواضع وخفض الجناح والقناعة والحلم وحب العدالة والرأفة والحنان والميل إلى التضحية ونكران الذات ، وليست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب ، فمن الناس من تغلب عليه آداب الأرستقراطية ومنهم من لآداب الدمقراطية من نفسه المكان الأكبر والقسط الأوفر ، ومنهم من يتلاقى فى نفسه النوعان ويجتمع الضدان ، وفى بعض الأزمنة تنتصر آداب الأرستقراطية ، وفى أزمنة أخرى تفوز آداب الدمقراطية ، ومن الشعوب شعوب آداب الأرستقراطية أشد تأصلاً فى نفسها مثل العرب خاصة والأرومة السامية عامة ، ومنها شعوب آداب الدمقراطية أبين فى أخلاقها وأعرق فى طباعها مثل الشعب الروسى السلافى .

✡✡✡

وقد ظهر فى القرن التاسع عشر — ذلك القرن الذى اشتد فيه الصراع

بين المذاهب والمبادئ — مفكران كبيران لهما من صدق السريرة وعمق الروح وقوة الانسياق مع تيار فكرهما ما يسمو بهما عن مرتبة الفنانين والفلاسفة إلى مستوى الرسل والأنبياء ، ولقد بلغ هذان النبيان الجديدان رسالتيهما إلى العالم ولم يتلعثم لساناهما فى تبليغها ولم يقصر باعاهما فى نشرها. فأحدهما — وهو نيتشه — يعد بحق نبى الأرستقراطية المطالب بحقوقها ورافع صوتها فى العصور الحديثة ، والآخر —وهو تولستوى — هو نبى الدمقراطية ومجدد عهد روسو وأقوى المدافعين عن آداب المسيحية عارضة وأجهرهم صوتاً .

والأول من نبت ألمانيا المفكرة الفلسفية ، والثانى درج فى روسيا الساذجة المتدينة ، ولم يمنع الأول وجوده وسط أوروبا المسيحية من أن يسدد سهامه إلى صميم آداب المسيحية ويرسل عليها صواعق غضبه بلا رحمة وفى غير هوادة ، وكذلك تولستوى لم يمنعه وجوده فى روسيا القيصرية من أن يرسل خطاباً إلى القيصر نقولا عند تسنمه عرش الروسيا عقب مقتل القيصر الإسكندر الثانى يناشده فيه ألا يبدأ حكمه بإعدام القتلة وإزهاق الأرواح ويلتمس العفو عنهم ، وساءه أن أهمل القيصر خطابه ولم يصغ إلى رجائه . وقد تغنى نيتشه بأنشودة الإنسان الأعلى وملأ بها المسامع ونفض عليها من خياله الخصب أبهج الألوان وأزهى الحلل ، واستنزف معين شاعريته فى تجميلها وتزويقها ، واستنفد تولستوى براعته الفنية كلها فى رواية « الحرب والسلام » تلك الرواية التاريخية العظيمة والمعجزة الفنية

التى يضعها بعض كبار النقاد إلى جانب إلياذة هوميروس والتى تحمل فى مطاويها فكرة أن الجماعات هى التى تلعب أكبر دور فى تاريخ الإنسانية وأعمالها الجسام لا الأبطال والعظماء ، وذلك لأن الجماعات فى رأيه هى التى تمت على يدها مختلف الأحداث فى حرب سنة ١٨١٢ لا نابليون ولا غيره من العظماء البارزين فى التاريخ

***

وليس من قذفات الصدف وغرائب الاتفاق أن أخرجت روسيا نبى الدمقراطية ورسول الحب والسلام فى العصور الحديثة ، فإن الأدب الروسى معروف بإنسانيته العالية وحفوله بكنوز الحب والعطف ، ولقد نبغ الروس النبوغ كله فى الأدب الروائى وسبقوا فى مضماره سائر الأمم ، ولم تخرج روسيا شاعراً عاماً يعبر عن خصائصها ومميزاتها مثل دانتى عند الإيطاليين وشكسبير عند الإنجليز وهوميروس عند اليونان وإنما أخرجت طائفة من عبقرى الروائيين ونوابغ القصصيين ، ولعل أقرب رجال الأدب الروسى جميعاً إلى تمثيل النفسية الروسية بمختلف ظلالها ومتنوع ألوانها هو كاتبها الكبير تولستوى ، فإن إكبابه على المسائل الدينية وشدة تعلقه بالدمقراطية يمثلان فيه أعمق غرائز النفسية الروسية وألزم خصائصها ، فالروسى شديد التدين ولكنه بعيد عما يشوب العقائد والنحل من أسباب التعقيد وغريب التخريج ، وما ينشأ حولها من خفايا الصوفية وغرائب الأسرار ، وهو أميل إلى البساطة فى تدينه ، وهو بطبيعته نزاع إلى الرحمة والعطف ، وحتى

الشيطان فى القصص الروسية موضع رحمة لأنه وإن كان خصم الإنسان اللدود الذى لا ينفك يعمل على استغوائه وإيقاعه فى الشرك ولكنه لسوء حظه لا يتقن غير هـذه المهنة ولا يعرف سواها ، وهى من أقدم العصور صناعته التى يجيدها ، فهم لأجل ذلك لا يحقدون عليه ' بل هو فى عرفهم شيطان صالح لا بأس به ، والعادات الاشتراكية عميقة الجذور وشيجة الأصول فى نفوسهم ، وقد قال أحد المفكرين « ليست العبقرية سوى التخلص الأتم من تأثيرات الزمن والآداب والوطن » وأرى فى هذا الرأى شيئاً من المغالاة ، والأصح فى اعتقادى أن فى كل عبقرى ناحيتين ، ناحية إنسانية عالمية وناحية أخرى قومية محلية ، وتولستوى مثال لذلك ، ففيه الجانب الإنسانى العالى العالمى ، وهو من ناحية أخرى انموذج تام للنفسية الروسية تتلاقى فيه غرائزها الأصيلة وبواعثها المستخفية العميقة .

* * *

وقد كانت المسائل الدينية ومشكلة الحياة والمبدأ والمصير تساور تولستوى من أوليات حياته الفكرية ، ولكن فى بادئ الأمر تغلب الفنان فى نفسه على النبى والمصلح الدينى ، وظل الفن له الأثر الأقوى فى حياته حتى انتهائه من رواية « انا كارنينا » فتبدل الحال ، واشتدت الأزمة ، وغام الجو ، وتراجع الفنان إلى المؤخرة ليفسح المجال للنبى القادم ، قال فى اعترافاته يصف ذلك « لما أتممت كتابى « انا كارنينا » بلغ بى اليأس أقصى حدوده ، وصرت أدمن التفكير ، وأطيل النظر فى الحالة الرهيبة المجتواة

التى ألمت بنفسى ، وكانت الأسئلة تنثال علىّ وتتكاثر حولى ، وتتطالبنى بالإجابة عليها ، ومثلما تتجه الخطوط كلها إلى ناحية واحدة كذلك كانت الأسئلة غير المجاوب عليها تتزاحم وتتدافع متجهة جميعها إلى نقطة سوداء ، و بقيت مُسَمَّراً فى تلك النقطة وقد استولى علىّ الخوف ، واستقل مشاعرى الإحساس بالضعف ، وكنت أناهز الخمسين من عمرى لما ساقتنى هذه الأسئلة إلى هذا الموقف الضنك غير المنتظر ، وانتهيت إلى هذه النتيجة وهى أَننى – وأنا رجل سعيد موفور الصحة – لا أملك البقاء ولا أقوى على العيش ، وقد كنت من الناحية البدنية أستطيع أن أشتغل فى حصاد الدريس كما يستطيع أى مزارع ، وكنت من الوجهة العقلية أستطيع ممارسة الأعمال الفكرية أكثر اليوم دون أن يعترينى كلال أو مرض ، ولكنى رغم ذلك كله انتهيت إلى هذه النتيجة ، وهى أننى لا أطيق البقاء ، ولم أر أمامى إلا شيئاً واحداً وهو الموت ، وكنت أرى كل شىء آخر ما خلاه باطلاً ومحالاً زائلاً » .

وأمثال هـذه المواقف التى تربدُّ فيها آفاق الفكر ويحلولك ليل النفس وتهون عليها الحياة وتفزع إلى فكرة الموت معروفة فى حياة الكثيرين من العظماء وأعالى البشرية ، وكأنها جسر قائم بين حياتين ، حياة سابقة وحياة لاحقة ، وسرعان ما عبر تولستوى هذا الجسر ونجا من أخطاره وأهواله ، قال فى اعترافاته وقد ظهر له أن المسائل التى أثارت هواجسه وهيجت بلابله قد أجابت عليها الإنسانية إجابة شافية مقنعة من

آلاف السنين « منذ بدأ الناس يعيشون عرفوا معنى الحياة وحملوا الحياة حتى انتهت إلىّ ، وكل ما فى نفسى وكل ما حولى من أشياء منظورة وأشياء غير منظورة هو ثمرة تجاربهم ، وحتى الوسائل التى أحكم بها على الأشياء ورثتها عنهم ، وقد ولدت وربيت وترعرعت بفضلهم ، وقد حفروا الأرض ونقبوا على الحديد وراضوا الجمال والخيل ، وعلمونا كيف نفلح الأرض وكيف نعيش جماعة وننظم الحياة ، وقد علمونى كيف أفكر وأعلل ، فأنا ثمرة غرسهم ، ولم أحصل على قوتى إلا بأفكارهم ، ومع ذلك حاولت أخيراً أن أستعين بما أخذته عنهم من المنطق والدراية لأقيم لهم الدليل على سخافتهم وجهلهم ، ومن الواضح أننى أسخف وأنتقص ما لم أحسن فهمه».

وأخذ يفكر بعد ذلك فى معني « الله » الذى قضى حياته باحثاً عنه ، ففى صباح يوم من أيام الربيع انطلق إلى الغابة ليتملّى من جمال الطبيعة ، ويسمع الأطيار الصادحة على زواهر الأغصان ، وليفكر فى المسائل التى شغلت خواطره واستأثرت بنفسه فى السنوات الثلاث الأخيرة وخاصة مسألة « الله » فأشرقت عليه فكرة أن مسألة الله ليست مسألة من المسائل التى يقضى فيها العقل ، وأحس بأن الله هو الحياة ، وأن نحيا هو أن نعرف الله .

***

من ذلك الوقت لم يتطرق إلى نفسه الشك بالله ، وذهب بعد ذلك إلى الكنيسة ولكنه لم يطمئن لتعاليمها ولم تعجبه مسيحيتها ، فأدار شراع

خواطره إلى الرياح وطافت سفينته ببحار هدّارة ، ومرت بجزائر عجيبة ، ورأى من أعاجيب المذاهب الفلسفية وغرائب النحل والعقائد ما هو أبعث على الدهشة وأغرى بإثارة الظنون من البحار السبعة التى اجتازها « بلوقيا » على أقدامه ، والأهوال المفزعة التى خاض غمارها « جانشاه » فى قصة ألف ليلة ، و بعد أن طوّف ما طوّف رست سفينته فى مرفأ المسيحية الخالصة المنقاة من شوائب الكنيسة ، والخالية من الحشو والزوائد ، مسيحية تولستوى التى فصّل الكلام عنها فى كتبه الأخيرة ، ولكن أتظن الرجل بعد أن عاد من هذه الرحلة الشاقة الطويلة هدأت نفسه وقرت ثورته واستمرأ الراحة والصفو ؟ كلاّ ! وأنى لمفكر كبير من طراز تولستوى أن يستريح فى هذه الحياة التى كتب علينا فيها الجهاد والتعب ، فهو إن اجتنى مرة ثمرة الفوز نغصتها عليه فكرة أن هناك مجاهل لم تعرف ، ومشكلات عدة لم تحل عقدتها ، فكيف الراحة والطمأنينة ونحن نسعى فى مناكب المجهول والكمال البعيد أمامنا ؟ والراحة فى هذه الحياة سراب لمّاع يغص الإنسانية بريقها ، وفجر كاذب يخدعها بضوئه و يقذف بها فى أقاليم أشد ظلاماً ، وليست الراحة غرض الحياة و إنما غايتها نشدان الكمال الأدبى والفكرى ، وقد نستريح إذا بلغنا الكمال ، ولكن أين منا الكمال ونحن أفراد زائلون تلقاء عالم سرمدى !

كذلك كانت حال تولستوى من بعد عودته من سياحته الفكرية فقد أخذ يندلع فى نفسه لهيب ثورة داخلية لم تنطفىء نيرانها وتهدأ ثائرتها

إلا بموته ، و بواعث هذه الثورة العنيفة والمأساة المذيبة للقلوب هى عجزه عن تنفيذ ما كان يبشر به ، وتقصيره فى أن يعيش طبقاً لتعاليمه و يقينه الجديد ، وكان شعوره بهذا التناقض بين أفكاره وأسلوب حياته هو الطير الجارح الذى لا ينفك ينقر وجه هذا « البرومثيوس » المقيد بالأغلال والسلاسل ، ولم يستتر مرة عنه الشعور بهذا التناقض الرهيب بل كان على الدوام ماثلاً لناظره كما يتبع القاتل شبح القتيل ، ولم يذهب وقره عن ضميره الفاحص المتهم وعينه الدخيلة الواعية ، وكان يقض مضجعه فى هدأة الليل ، ويجثم على نفسه فى أطراف النهار ، وغير تولستوى قد يقنع بالتبشير بما يعتقده حقاً دون أن تطابق حياته تعاليمه ، وقد يكون من الصعب أن نتصور آلام هذا الضمير الحى وكمد هذه النفس اليقظة ، وقد كان تولستوى يعيش عيشة زهادة وخشونة لا من دافع طبيعى — فقد كان بطبيعته أبيقورى الغرائز شهوانى المزاج — ولكن بمجهود غير قليل من إرادته الصارمة ، وكان يخفض جناح الرحمة لمن حوله و يسقيهم من أخلاقه الشريفة العذب النمير ، ولكن ضميره لم يقنع بهذا ولم يرتض الوقوف عند هذا الحد لأنه كان يطالبه ويلح عليه فى أن يعيش عيشة طاهرة إلى أقصى حدودها وأبعد نهاياتها ، وكان يعرف إلى أى حد قد عجز عن تحقيق مثله الأعلى ، وطالما لفحته هذه المعرفة بشواظ من النار وجرته على مثل شوك القتاد ، وكانت فكرة ثروته الضخمة المتراكمة فى المصارف وضياعه الواسعة التى تغل عليه الأموال الطائلة وهو الذى يحبذ الفقر ، ويدعو إلى المساواة ، ويرفع قسطاس العدالة ،

تتبعه فى كل مكان ، وتطارده فى كل لحظة ، وتذكره بنصيحة السيد المسيح لأحد تلامذته بأنه إذا أراد أن يتبعه و ينتظم فى سلك تلامذته فعليه أولا أن يبدأ بتوزيع أمواله بين الفقراء ، أما تولستوى المكروب الحزين فكان يمشى وراء المسيح مثقلاً بحمول الثروة و يأمر غيره دون أن يبدأ بنفسه و يقف أمام الإنسانية والتاريخ هذا الموقف المتناقض الغريب ، وما أشد وقع ذلك على نفس تولستوى النبيلة الحساسة !

وقد نتساءل هنا هل كان تولستوى حقيقة حريصاً على الدنيا متهالكاً على المال يبشر بما يراه حقاً مع الاحتفاظ بثروته ، و يقول مع صاحبه الفيلسوف شو بنهاور « إن الذى يرسم الصورة الجميلة لا يشترط أن يكون هو أيضاً جميلا » و يسلك مسلك المتنبى الشاعر فى امتداح الجود والكرم مع شدة الحرص والبخل ! والجواب عن هذا التساؤل أن الرجل لم يكن شيئاً من ذلك ، وكان مخلصاً فى دعوته إخلاصاً لا تشوبه شائبة ، ولم يمنعه من أن يبدأ بنفسه فى اتباع تعاليمه سوى زوجته وباقى أفراد أسرته ، وكانت أسرته قانعة بأن ترى اسمه قد طبق الأرض ، وأن تشاهد الوفود تحج إليه من أقاصى البلاد ، ولكنها لا تود أن تفقد ثروتها وضياعها حتى لا يقع التناقض بين مذهبه وحياته ، ولم يستطع تولستوى أن يكسر أغلاله العائلية وعاش أسيراً لسلطتها ، وكانت أشد أفراد الأسرة قسوة عليه ومقاومة لتنفيذ تعاليمه زوجته ، ولست أحب أن ألوم تولستوى وأعنفه لهذا الضعف والتخاذل فكفاه ما لاقاه من وخز الضمير والألم المبرّح ، وقد

حاول فى آخر سنى حياته أن يهرب من أسره ، ولكنه لم ينفذ الفكرة ، وكتب إلى صديق له ما ينم على السبب الحقيقى لذلك قال « لقد تركت فكرة الفرار لأنه خطر بفكرى أن صوفيا أندريفنا (زوجته) لا بد أن تكرهنى بعد ذلك ويصير كل شىء أسوأ مما كان » وهنا نقف أمام عاطفة إنسانية سامية من العواطف التى يدنسها الإسهاب فى وصفها ويغض من جلالها ، على أنه فر من منزله بعد ذلك لحادثة نضرب عن ذكرها ، وأراد أن يلاقى الموت منفرداً مع خالقه ، ولكن لم تتحقق أمنيته إذ لحقته أسرته حيث كان يسلم الروح فى غرفة حقيرة بإحدى محطات السكة الحديد ويستعد ليتبوأ مكانه فى ملكوت الخالدين .

وسأعرض على القارئ طائفة صغيرة من أحاديثه ، وهى على قلتها صحيحة الإسناد ، وقد تكون فحاوى المحادثات أدل على الرجال وأهدى إلى نفوسهم من محتويات الأسفار .

كان تولستوى يحب من المؤلفين الروس الشاعر بوشكن ولرمنتوف وجوجل وشيكوف ودستوفسكى ، قال عن الأخير : « عندما نختبره عن قرب نرى أنه يكتب بأسلوب ردىء وتنقصه القوة الفنية ، ولكن ما أغزر مادته وما أكثر ما يقوله لنا » وقال عن ترجنيف الروائى الروسى الكبير « أنا مولع بشخصه ولوعاً ولكني لا أضعه فى مكانة عالية بين الكتاب » وكان قليل الاكتراث بالكتاب المعاصرين له حاشى أناتول فرانس ، وفى وقت ذيوع شهرة ميترلنك كان تولستوى صريحاً فى نقده والإقلال من

قيمته ، وذلك برغم إعجاب ميترلنك الشديد به ، وقد قال له مرة أحد أصدقائه « لقد امتدحك ميترلنك وقال فى مقدمة مؤلفاته التمثيلية « إن رواية « قوة الظلام » هى أعظم دراما فى الدنيا » فضحك تولستوى مستهزئاً وقال له « إذا كانت كذلك فلماذا لم يقلدها و يضرب على غرارها ؟ »

وسأله مرة أحد الناس « هل قرأت رواية مونافانا ؟ (من روايات ميترلنك) فأجابه « ولم أقرؤها ؟ هل اقترفت إثماً ؟ » .

وكان يمقت الاتجار بالأدب أشد المقت ، و يغتلى غضبه إذا ذكر ذلك بحضرته ، قال مرة « ينبغى للانسان ألا يكتب إلا إذا ترك بضعة من لحمه فى الدواة كلما غمس فيها القلم » .

وقال عن « المرأة » « النساء على العموم شريرات إلى حد أن الفرق ضئيل بين المرأة الصالحة والمرأة السوء » .

وجذب مرة صديقه جولد نوايزر من ذراعيه وهو يودعه — وهو الذى أروى عنه هذه الأحاديث — وقال له هذه النصيحة الغالية « إنى أريد أن أقول لك إنه مهما عظمت مواهبك الموسيقية ومهما كان الوقت أو الجهد الذى ضحيت به لهذا الفن فلتذكر أن أهم شىء هو أن تكون رجلاً ، ومن اللازم أن تجعل دائماً نصب عينك أن الفن ليس كل شىء ، وفى علاقتك بالغير ابذل جهدك فى أن تقدم لهم أكثر مما فى طوقك وأن تأخذ منهم أقل ما يمكن أخذه ، وأرجوك المعذرة لهذا القول » .

وقال له مرة « إن « الأنا » شىء زمانى يحد جوهرنا الخالد ، وأرى أن

الاعتقاد بخلود النفس يدل على نقص فى الفهم »

وفى بعض الأوقات كانت تغلب عليه السويداء والحزن فييأس من الدنيا وصلاحها ، قال مرة وقد اعترته إحدى هـذه الحالات « إن خطأ الثائرين الرئيسى هو اعتقادهم أننا نستطيع أن نسيطر على الحياة الإنسانية ونخضعها للنظام » .

وقال مرة أخرى « تمر بى أوقات يغمر نفسى فيها اليأس من كل ما يحدث فى الدنيا ، وأعجب كيف استطاع الناس أن يحتملوا الحياة مع توالى تلك الكبائر والفظائع ، وطالما هزنى وحيرنى تقويمنا الإنسان بأضأل القيم حتى لو اعتبرناه مجرد حيوان نافع ، والحصان الذى يجر العربة يساوى قيمة معينة فى نظرنا ونحن ندفعها عن طيبة خاطر ، ولكن الإنسان يستطيع مثلا أن يصنع أحذية وأن يعمل فى أحد المصانع ويعزف على البيان ، ولكن مع ذلك كله فإن خمسين فى المائة من البشر يقضون نحبهم دون أن يكون هناك ما يستدعى ذلك ، وأتذكر أنى عندما كنت أربى الدواجن كنت أغضب وأتهم الخدم بالتقصير إذا بلغت نسبة الوفيات خمسة فى المائة ، ولكن خمسين فى المائة من البشر تزهق أرواحهم بدون مبرر ولا ضرورة » والمرأة فى رأيه « تعترض قانون التقدم وتعرقل سيره ، وهى تقاوم الرجل وتعارضه معارضة شديدة إذا حاول أن ينتقل من بين أطلال حياته السابقة وأنقاضها المحطمة إلى حياة جديدة أتم وأحفل منها ، وفى المرأة أثرة محزنة ترتكب أكبر الفظائع باسم الحب » .

وقال مرة لأحد أصدقائه . « إن أسعد أيام حياتى هو اليوم الذى أعلم فيه أننى فقدت ثروتى وكل ما تملك يدى »

ولم يكن مسيح تولستوى هو إله الشدة والعنف وإنما كان إله الحب والعطف ، مسيح عظة الجبل ، ولقد حدث مرة أن شقيقته ماريا نيكوليفنا عارضت فكرة أن رحمة الله تتسع للخير والشرير ، وبعد أن أصغى إليها تولستوى طويلاً فى صبر وأناة قال لها فى لطف ورقة « استمعى الآن فى دورك ، إن الفرق بين حياة أتقى الناس وأصلحهم وحياة أشدهم انغماساً فى الشر والخطيئة فرق طفيف جداً بالنسبة لكمال الله ، وكيف أسلم بأن الله وهو ليس سوى الحب يمكن أن يكون منتقماً جباراً وينزل بالناس صارم العقاب وشديد العذاب ! »

فأجابته « ولكن افرض أن بعض الناس عاش طوال حياته فى الخطيئة ومات بدون ندم » فقال لها تولستوى « أى الرجال يريد أن يكون شريراً لا أمل فى إصلاحه ؟ إن الرجل الذى نحكم عليه بأنه شرير شقى منكود الحظ ينبغى أن نحبه ونرثى لآلامه ، وليس هناك أحد يود أن يكون شريراً ، فالشرير إنما يرثى له لأنه لا يبصر الحق »

وكان « إله الحب » هذا يغمر قلب تولستوى بشعور قوى نحو الطبيعة ويوحى له بكلمات من أسطع حكمه وأبهر آياته ، قال فى بعض أقواله المبثوث فيها شىء من هذا الشعور « كل ما فى الوجود نابض بالحياة ، وما نراه ميتاً يظهر لنا كذلك لأنه إما أن يكون جدّ كبير على الفهم أو جدّ صغير عليه

ونحن لا نرى الميكروبات والجراثيم فنحسبها غير حية ، وكذلك الكواكب تتراءى لنا مسلوبة الحياة لنفس السبب الذى نبدو فيه نحن للنمال غير أحياء ، ولا نزاع فى أن الأرض خافقة بالحياة ، وأن الحجر الملقى على الثرى هو بمثابة الظفر من الإصبع ، والماديون يجعلون المادة أساس الحياة ، وكل النظريات عن أصل الأنواع والذرات ومادة الحياة لها قيمتها إلى الحد الذى تمكننا به من فهم القوانين المسيطرة على الطبيعة ، والكشف عن كنهها ، ولكن علينا ألاّ ننسى أنها مجرد فروض وليست أكثر من ذلك ، والفلكيون يفرضون أن الأرض ثابتة لكى يتم حسابهم ويتسق تفكيرهم ، وكذلك الماديون يبدءون من مقدمة غير صحيحة ولكنهم لا يعترفون بذلك ولا يعاودون محاولة حل مشكلاتهم على أساس صادق صحيح ، ومذهبهم فى الحتمية أشد المذاهب إمعاناً فى الغرابة ، وذلك لأنه يفرض مادة عجيبة الشأن تخلق كل شىء من ذاتها وهى أساس كل شىء ومرجعه وأصله ، فهى كالثالوث شىء لا يتيسر لنا أن نبصره » .

وكان فى نية تولستوى أن يتبسط فى شرح هذه الفكرة وتفصيل ما أجمله منها فى حديثه بكتاب خاص فأعجله عن ذلك الموت الذى يلهو بالمخلوقات ويعصف بالأحياء ، فذهب وفى نفسه منها شىء .

أدب ترجنيف

الأدب الروسى على حداثة عهده من أرقى الآداب العالمية ، وأصدقها تعبيراً ، وأوفرها إخلاصاً ، وأبعدها غوراً ، وأصحها تصويراً للخوالج المختلفة والإحساسات المتغايرة ، وأقواها كشفاً عن خفايا النفس وغوامض الوعى ، ولم تخرج روسيا شعراء من طراز شكسبير، ولا فلاسفة من طبقة كانت وهجل أو هبز ولوك ، و إنما أخرجت طائفة من عظماء الروائيين مثلوا عبقريتها أحسن تمثيل ، وعبروا عن تفكيرها و إحساسها فى بدائعهم الفنية وآياتهم الخالدة .

ونهضة الأدب الروسى من أعظم حوادث القرن التاسع عشر ، و إحدى أعاجيب التاريخ ، ومنذ مائتى سنة لم يكن للأدب الروسى شأن يذكر ، وقد أثرت إصلاحات القيصر العظيم بطرس الأكبر فى شتى نواحى الحياة الروسية ، ولكن روسيا ظلّت من الناحية الثقافية تلميذة مجتهدة ومقلدة بارعة ، ولم تضف شيئاً إلى الأدب العالمى حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وقد كان الشاعر پُشْكن (١٧٩٩ — ١٨٣٧) هو الذى وضع أساس الأدب الروسى القومى ، وظهر فى آثاره لِرْمنْتوف ، وهو أقرب شعراء روسيا مزاجاً إلى بيرون ، وقد أدخل فى الأدب الروسى عنصر التمرد والثورة ،

وجوجل ذو النفس القلقة المهتاجة ، والروح الملتاعة المعذبة ، والجاد فى سخره والساخر فى جده ، وقد أوجد الواقعية الروسية التى نهضت بالنثر الروسى ، وقد بدأت النهضة بتفوق الشعر مثل سائر النهضات الأدبية ، ثم نهض النثر وتخلف الشعر ، وقد بلغت هذه النهضة الأدبية المأثورة ذروتها فى واقعية ترجنيف ودستوفسكى وتولستوى ، وهؤلاء الثلاثة هم أكبر ممثلى الأدب الروسى ، ومن أعظم الشخصيات البارزة فى الأدب العالمى قاطبة ، وجاء فى آثارهم تشيكوف وجوركى وأندريف وأضرابهم من الكتاب المحدثين .

وقد ولد ترجنيف سنة ١٨١٨ فى أورل بروسيا الوسطى من أسرة معروفة ، ويعزو بعض النقاد قدرته على وصف الطبائع الجبارة والنفوس الطاغية برغم ما عرف عنه من ليونة الطبع وسلاسة الأخلاق إلى وراثته حالتهم العقلية من ناحية والدته ، فقد اشتهرت بالقسوة والصرامة ، وكانت لا تحتمل سماع فكرة مناقضة لفكرتها ، ولا تطيق أن ترى إرادة واقفة فى سبيل إرادتها ، وقد أثرت شدتها وعسفها أيما تأثير فى نفس ترجنيف الرقيقة الحساسة ، ونبهت فيه مقت الظلم والجور ، وحب الانتصار للمقهورين فى حومة الحياة .

أما أجداده من ناحية أبيه فكانوا يكرهون العبودية ، ويحبون النزعات الإنسانية النبيلة . وقد درس ترجنيف فى جامعتى موسكو وبتروغراد ، وسافر بعد ذلك مع والدته فى رحلة إلى ألمانيا حيث عب من

معين الأدب الألمانى ، واستقى من حياض جيتى وشلر وهينى ، وخاض مع جماعة المستنيرين بها غمار مناقشات ومجادلات عن الفن والسياسة والحياة وما وراء الطبيعة ، وزار بعد ذلك الراين وسويسرة ، وأقبل بعد عودته من تلك الرحلة على الاشتغال بالأدب ، وتردد فى بادئ الأمر بين الشعر والنثر ، ووفق فى الشعر وكتب روايات تمثيلية أظهر فيها براعة وطرافة ، ثم شرع بعد ذلك فى كتابة « صور صياد » وقد ظهرت كاملة سنة ١٨٥٢ وكانت فتحاً جديداً فى الأدب الروسى ، وهى تدور حول وصف حياة الفلاح الروسى وما يلم بنفسه من التأثرات وما يعتورها من الحوادث والآلام ، وقد سجل فيه ترجنيف تسجيلاً فنياً دقيق ملاحظاته وما عن له من الخواطر والأحاسيس ، وقد كتبها بأسلوب شف ناصع لا أثر فيه للدعوة ولا التبشير أو محاولة استدرار العطف أو إثارة السخط ، وتجلت فيها قدرته الفائقة على وصف الطبيعة وصفاً حافلاً باللمسات الحاذقة الرشيقة وبيان الناحية الشعرية والجانب المشرق الأخاذ فى الريف الروسى ، وقد كشف ذلك الكتاب عن تفوقه فى تصوير الشخصيات وطريقة سرد الحوادث ، ودستوفسكى يكثر فى رواياته من التحليل ويسهب فيه إسهاباً ، ويصف أشخاصه من الداخل ، وتولستوى تتعادل فيه القوتان ، قوة التحليل والوصف الداخلى والقدرة على توضيح المظهر الخارجى ورسم السمات البارزة والخصائص البادية ، أما ترجنيف فمجال براعته الوصف الخارجى الدقيق وهو يكتفى به ولا يسرف فى التحليل ، والذى يميز ترجنيف عن

أضرابه من الروائيين الروسيين هو براعته فى البناء الروائى ، وضبط النسب والتقاسيم ، وتوزيع الظلال والأضواء ، ووضوح الحبكة الروائية ، وقد لقى كتاب « صور صياد » نجاحاً عظيماً و إقبالاً مشجعاً ، وكان من أسباب إلغاء العبودية فى روسيا ، وقد شجعه توفيقه فى ذلك الكتاب على المضى فى وضع الروايات والقصص والمسرحيات ، وجميعها الآن من ذخائر الأدب الأوربى وكنوز الأدب الروسى .

وقد كانت أولى رواياته المشهورة « رودين » التى ظهرت سنة ١٨٥٥ ، وهى تصف شخصية رجل غير منسجم مع بيئته ، له أفكار لامعة ، ونظريات رائعة ، ومشروعات باهرة ، يتحدث عنها ببلاغة ساحرة ومنطق شائق ، ولكننا سرعان ما نتبين أن هذا المحدث المفوّه البارع والمفكر المستنير تتبدد أحلامه وتتحلل عزيمته كلما واجه الواقع ، ويصف لنا ترجنيف جوانب نفسه المتناقضة جانباً فجانباً ، ويرينا نواحيه المضيئة ونواحيه المظلمة حتى تكتمل فى خواطرنا شخصيته ، وتستقر فى نفوسنا صورة رجل متناقض الميول ، موزع النفس ، مفلول العزم ، مثالى النزعة ، ولكنه عاجز عن العمل ، خائر العزيمة ، كثير التردد ، وهو يملك قلوب النساء بلوامع حديثه وزواهر أحلامه ، وحماسته الحارة المتدفقة ، ولكنه يتخلى عنهن فى اللحظة الفاصلة ، والموقف الحاسم ، ويقال إن رودين صورة مشوهة بعض التشويه للزعيم الفوضوى الشهير باكونين .

وقد تلتها رواية ليزا أو « عش الظرفاء » وهى تحفة فنية نادرة ، بديعة

الصنعة ، جميلة البناء ، سلسة السرد ، تدور حول شخصية لاڤرتسكى أحد الملاك الروسيين المثقفين ، وهو يعيش مع زوجته السادرة اللاهية فى الخارج ، ثم يعود لروسيا وتنشأ علاقة حب بينه و بين ليزا تلك الشخصية الوديعة الجذابة الورعة المخلصة ، و يبدع ترجنيف فى وصف نشوء هذا الحب الساجى العميق ، وتأتى الأخبار من الخارج إلى لاڤرتسكى بأن زوجته قد توفيت فى حادثة تصادم ، و يستعد الاثنان للزواج ، ولكن زوجة لاڤرتسكى تظهر فجاءة ، و يتضح أن خبر وفاتها لم يكن سوى إشاعة كاذبة ، فيستسلم المحبان للقضاء ، و يرى لاڤرتسكى بعد سنوات ليزا فى الدير ولكنه لا يتحدث إليها ، و يصف لنا ترجنيف أثر هذا اللقاء فى نفس لاڤرتسكي و يرتفع فنه فى هذا الوصف إلى أسمى طبقاته ، والفصل الأخير فى هذه الرواية الذى يتضمن وصف هذا اللقاء من أشجى وأروع ما كتب فى الآداب العالمية .

وتبعتها رواية « آباء وأبناء » وهى تصف جيلين مختلفين من أجيال روسيا ، جيل سنة ١٨٤٠ وجيل سنة ١٨٦٠ ، و يمثل هذا الجيل الأخير شخصية بازاروف ، و يرينا ترجنيف فى هذه الرواية تصادم عالمين من الآراء والميول والاتجاهات ، و بازاروف فوضوى متطرف لا يعترف بالتقاليد والنظم والقيم السائدة ، و يبدو لنا أنه يريد الهدم والتحطيم وألا يبقى على شىء ، ولكننا نلمح وراء صراحته الخشنة الجافة وكلبيته العابثة الساخرة أثر العاطفة المكظومة ، كما نتبين وراء توقحه واستطالته واستعلائه شدة شعوره بالنقص

والعجز ، وهى تعد خير رواياته من الناحية الفنية الخالصة لامتزاج الفكرة بالصورة فيها امتزاجاً بديعاً لا تشو به أية شائبة .

ولترجنيف مجموعة من الأقاصيص يجمع كبار النقاد على أنها من روائع الأدب الغربى مثل « شآبيب الربيع » و « لير السهوب » و « الحب الأول » وما إليها من أقاصيصه المليئة بالجمال والشعر والإبداع الفنى ، وقراءتها فى اعتقادى متعة من أجمل المتع التى تتاح لنا فى هـذه الحياة الأرضية الزائلة .

ولترجنيف مقدرة خاصة قليلة النظير فى وصف عاطفة الحب وتحليلها ، وهو يكشف عن دخائل أشخاص رواياته و يستجلى نفسياتهم فى ضوء تلك العاطفة ، وقد كان يعلم ببداهته الصادقة وشاعريته الهامرة الملهمة أن تلك العاطفة الإنسانية العظيمة هى مفتاح النفوس ومحك الطبائع .

ولكل كاتب كبير وشاعر من الطراز الأول فلسفة خاصة تتخلل كتبه وتطالعك من وراء آثاره المنوعة وآرائه المختلفة ، وهى كالتيار الرئيسى فى محيط أفكاره تجمع بدائدها وتؤلف بين متدابرها ، و بعض آثار الكتاب أنم على فلسفة حياتهم من غيرها ، فكتاب فلسفة الملابس أدل على فلسفة كارلايل ونظرته إلى الحياة من سائر كتبه ، وكذلك ترجنيف تتجلى فلسفته فى أوضح مظاهرها خلال أشعاره المنثورة التى بدا لى أن أقدم لحضرات القراء مختارات منها .

ولا يمكن أن يغيب عن قارئ روايات ترجنيف وأقصوصاته ذلك

الأسى المكبوت والحزن الصامت الذى يسرى فى تضاعيفها ، وقد كان الشعور بالملل من الحياة وتفاهة مساعيها يقوى ويشتد فى نفس ترجنيف كلما تقدمت به السن وكثرت تجار به وخابت آماله فى الإنسانية ، وربما كان من بواعث تفاقم هذا الشعور الأليم ذلك الحب اليائس الذى ملك نفسه وأخذ بأكظامه ولم يستطع الخلاص من أغلاله طوال حياته ، وهو حبه لمدام ڤياردوه المغنية الفرنسية التى لم تستطع أن تبادله حباً بحب واكتفت بأن تلحقه فى عداد أصدقائها والمعجبين بها .

ولا نستطيع أن نسمى فلسفة ترجنيف رفضاً كاملاً للحياة أو تشاؤماً محضاً ، ففى رواياته صفحات تتفجر خلالها ينابيع الحب والعطف ، وتنبض بحب الإنسانية والإيمان بالخير ، وقد كان يكدر صفاء نفسه ويؤلم روحه العذبة ما يواجهه من سخافة النــاس وغبائهم وحمقهم وقذارة نفوسهم وإسفافها وخسة طباعهم وانتكاسها فيغمر الحزن نفسه ويكظها الألم ، وقد كتب آيته الفنية البديعة المسماة « كفى » عقب عاصفة السخط التى قوبلت بها روايتــه الخالدة « آباء وأبناء » وفيها وضع ترجنيف أساس تشاؤمه ، وهو تفاهة قيمة الإنسان إزاء الطبيعة الصماء الباطشة الرهيبة التى تدمر كل شىء وتطحنه طحناً وتلتهمه فى جوفها الرغيب ، وهى تخلق وتهدم وتحطم ولا تبالى ما تصنع ، والإنسان أمامها مسلوب الحول قليل الحيلة .

ولـكن هذه الموجات من التشاؤم الطاغى والأسى الغالب كان يلطف من حدتها فى بعض الأوقات إشراق الأمل وحرارة اليقين ، وفى روايات

ترجنيف صفحات حافلات يتحدث فيها عن جمال الأخلاق وسمو النفس وروح التضحية التى تبدو فى المحاولات البشرية العظيمة وميدان تصادم الإرادات وصراع العزائم .

والسر فى هذا التناقض أن ترجنيف كان فيه جانبان هامان يتنازعان ويتصارعان و يتبادلان الغلبة على نفسه ، وهما جانب هملت وجانب دون كيشوت ، أو جانب الشك واليأس من الإنسانية والمثل الأعلى ، وجانب اليقين القوى والأمل المتين والإيمان بالكمال ، وكان ترجنيف يعلم ذلك من نفسه ، ولعل ذلك هو الذى بعثه على كتابة رسالته البديعة التى لا تجود بها سوى عبقرية كعبقريته عن « هملت ودون كيشوت » وفى اعتقادى أن جانب هملت كان أقوى فى نفس ترجنيف من جانب دون كيشوت ، وكان ترجنيف نفسه يؤثر جانب دون كيشوت و يكبره و يرجحه على هاملت ، وطراز دون كيشوت فى رأيه يعيش للغير و يعمل لخير الإنسانية ويجهد لتحقيق مطالبها السامية ، و يحاول أن يستأصل الشر ، أما طراز هملت فهو يمثل عنده الشك والتردد والتحليل والأثرة و كثرة الاشتغال بالنفس والعكوف عليها وجعلها قبالة الناظر ليلاً ونهاراً ، وكان يقين دون كيشوت أحب إلى قلبه من سخرية هملت .

وقبل أن أختم هذا الحديث عن ترجنيف أشير إلى ناحية من خلاله الكريمة جديرة بأن ينوه بها، فقد اجتمعت آراء أصحابه ونقاده على ما كان يتجمل به من نبالة الأخلاق ومحمود الشيم والترفع عن الأثرة الضيقة، ومن دلائل

ذلك تشجيعه الدائم لأنداده ومنافسيه من كبار الكتاب وإطرائهم والتحدث بفضلهم ، وكثيراً ما كان ينكر نفسه ويتناساها فى هذا التشجيع الكريم ، ولم يقصر تشجيعه على كبار الكتاب بل كان يعمل على إبراز محاسن المؤلفين المغمورين ويحاول استخراج نفائسهم والغوص على دررهم ، وكان يمقت عمل النقاد الذين يحشدون قواتهم ويأخذون أهبتهم لهدم كل مؤلف جديد ، والتعفية على محاسنه وإظهار نقائصه وأماكن الضعف فيه ، وطريقة ترجنيف جديرة برجل مثله باحث عن الحق والجمال والخير ، وهى أحكم وأدق من غيرها لأن كل كاتب مهما صغرت قدرته له مزية خاصة وصفة فردية ليست لغيره ، والوقوف عليها يستدعى بصراً ودقة فى النقد ، ويزيدنا علماً بالنفوس وحالاتها ، فهى أمس بالنقد الصحيح إذ ليس الغرض الأصيل من النقد هو تقصى العيوب ، والكشف عن المساوىء ، وإنما غايته الوزن الصحيح والتقدير الصادق .

وأشعاره المنثورة التى يسرنى أن أقدم هذه النماذج منها قليلة النظير فى الآداب العالمية ، ولا يكاد يفوقها شىء فى سلاسة الأسلوب وبراعة الأداء وجماله وروعته ، وتتجلى فيها قدرة ترجنيف الفنية على مزج الفكرة بالصورة ، وهى تكشف عن شاعريته الفياضة ، وإنسانيته العميقة ، ونظراته النافذة وفلسفته الشاملة المستوعبة ، وحكمته الناضجة ، وسخريته الرقيقة ، وشجوه بالحياة ، وإحساسه بجلالها وخطورتها

اللقاء الأخير

كنا قديماً صديقين حميمين متواصلين ، ولكن جاءت ساعة نحس فافترقنا عدوين ومرت سنون عدة . . . . وقدمت بعدها المدينة التى يقيم بها فعلمت بأنه مريض لا يرجى وأنه يود رؤيتى .

فسرت إليه ، ودخلت حجرته ، والتقت العينان ، فلم أكد أعرفه ، فيالله ! ماذا فعل به المرض !

كان حائل اللون قد تغضّن وجهه ، وتساقط شعر رأسه ، ووخط المشيب لحيته الخفيفة ، واستوى جالساً وليس عليه سوى غلالة قد شقها عامداً لأنه كان لا يطيق أخف الثياب .

وبسط إلى يده بهزة عنيفة فهالنى نحفها ، وتبدت لى كأنها مقروضة متآكلة ، وبذل جهداً ليهمس ببضع كلمات غير جلية ، من يدرى هل كانت كلمات لوم وعتاب أو عبارات استقبال وترحاب !

كان صدره الهزيل يضطرب ، وانبجست من عينيه الملتمعتين دمعتان عصيتان من دموع الألم حتى غشيتا إنسان عينه المتضائل .

فجزعت وخاننى العزم . . . وجلست على كرسى إلى جانبه ، وأطرقت بعينى على الرغم منى إزاء هـذا المنظر المرعب البشع ، ومددت أنا كذلك يدى .

لقد خيل إلى أنه ليست يده القابضة على يدى .

وقد تراءى لى أن امرأة طويلة القامة بيضاء جالسة بيننا ، وأنها ملفوفة فى طيلسان من فرع إلى قدم ، وأن عينيها الغائرتين الشاحبتين شاخصتان إلى الفراغ ، وأن شفتيها المتقفعتين اللتين تنمان على الجفوة والصرامة لا ينبعث منهما صوت .

هذه المرأة ضمت يدينا . . . وقد وفقت بيننا توفيقاً أبدياً

نعم . . . لقد أصلح ما بيننا الموت .

الطبيعة

أريت فيما يرى النائم أنى جئت معبداً تحت الأرض ضخماً هائلاً له سقف مقبب سامق ، وكان غاصاً بأضواء أرضية راتبة .

وفى بهرة المعبد كانت تجلس امرأة فخمة رائعة عليها ثوب أخضر اللون فضفاض ، وقد اعتمد رأسها على يدها ، وبدا أنها مستغرقة فى تفكير عميق .

وأدركت فى التو واللحظة أن هذه المرأة هى الطبيعة نفسها ، وأصابتنى رعدة من فرط الإجلال سرت إلى أعماق روحى .

ودنوت من هذه الصورة الجاثمة ، وانحنيت إكباراً ، وخاطبتها قائلاً « يا أمنا جميعاً فيم تفكرين؟ هل تفكيرين فى مصائر الإنسانية ؟ أو تفكرين كيف يظفر الإنسان بما فى الإمكان من الكمال والسعادة ؟

فأتأرت إلى المرأة عينيها الرهيبتين فى بطء وأناة ، وتحركت شفتاها ، وقرع سمعى صوت رنان له صليل الحديد يقول « إنى أفكر كيف أمنح ساق البرغوث قوة أوفر ليكون أقدر على الفرار من أعدائه ، والتوازن عنده بين الدفاع والهجوم مختل ، ويجب أن يراعى ويحفظ »

فتعثرت فى الجواب وقلت « ماذا ! وما هذا الذى تفكرين فيه ؟ أو لسنا نحن بنو الإنسان أولادك المقربين ؟ »

فزوت وجهها قليلاً وقالت « جميع المخلوقات أبنائى ، وعنايتى بالجميع واحدة ، وأنا أبيدهم بأسرهم » .

فلجلجت قائلاً « ولكن الحق ... والعقل .. والعدالة ... »

فقالت فى صوتها المجلجل « هـذه كلمات بنى الإنسان ، وأنا لا أعرف الحق ولا الباطل ، وليس العقل ناموساً لى ، وما هى العدالة ؟

لقد وهبتك الحياة وسأستردها وأمنحها الغير ديداناً كانوا أو آدميين ... لا يعنينى ذلك ... فانظر فى خلال ذلك لنفسك ولا تقف فى طريقى ! »

وهممت بمراجعتها ، ولكن الأرض اهتزت وأرسلت أنة مولولة ، فانتبهت من النوم .

لا نزال نجاهد

أى حادث تافه زهيد قد ينقل الإنسان فى بعض الأحايين من حال إلى حال ! سرت مرة فى الطريق وقد اعتلجت فى نفسى الخواطر الحزينة ،

وكان قلبي قد كظته المخاوف السود ، وغلبني على أمرى الانقباض ورفعت رأسى فأبصرت الطريق ينبسط أمامى كالسهم بين صفين من أشجار الحور المتطاولة الفارعة .

وفى عبر الطريق على مدى خطوات قلائل منى وتحت أشعة شمس الصيف السادرة للأبصار كانت تتواثب أسراب من العصافير متتابعة فى مرح ولهو وتقحم وفرط ثقة بالنفس !

واسترعى نظرى بوجه خاص واحد منها كان يطفر على جانبى الطريق بعزيمة المستيئس نافخاً صدره الضئيل مغرداً فى زهو وتصلف كأنه يريد أن يقول إنه لا يخشى أحداً !

مجاهد صغير مستبسل مغامر !

وفى الوقت نفسه كان باز يرنق بجناحيه فى أعنان السماء كأنه قد قيض لابتلاع هذا المجاهد الباسل الصغير .

فنظرت وتضاحكت وعرتنى هزة فتبدد عنى شمل الخواطر الحزينة ، وشعرت بتجدد العزيمة والإقدام وتلهب الحماسة للحياة .

دع بازىّ يرنق بجناحيه فوقى فإننا سنجاهد ولا نعبأ بشىء !

الشيخوخة

حانت أيام الظلام والوحشة ، وتكاثرت الأسقام وآلام الأعزاء عليك وقشعريرة الشيخوخة واكتئابها ، وكل ما أحببته ووقفت حياتك عليه يتساقط ويتبدد ، وطريقك كلّه فى أصباب .

ما الذى تستطيعه الآن ؟ تحزن ؟ تشكو وتتوجع ؟
لا يجدى عليك ذلك ولا يسعدك ولا يفيد غيرك ...

إن أوراق الشجرة المقوسة المتصوحة أصغر حجماً وأقل عدداً ، ولكن خضرتها لاتزال كما كانت .

فاعكف على نفسك وانشر مطوى ذكرياتك ، وهنالك فى أقصى أغوار روحك وقد أدرت الطرف فى أرجائها تعاودك حياتك القديمة الماضية التى لديك وحدك مفتاحها ، وتستجد بهجتها ورواءها ، وشذاها الفوّاح ، وخضرتها الرّفافة ، وريعان ربيعها ، وطلاقته و بشاشته .

ولكن حذار ... لا تنظر إلى الأمام أيها الشيخ البائس !

خصمى

كان لى رفيق ما ينفك يناوئنى ، ولم يكن مثار الخلاف بيننا المزاملة فى المهنة أو المنافسة فى الحب ، و إنما كانت آراؤنا فى كل موضوع تختلف وتتعارض ، وكنا كلما التقينا نشبت بيننا معركة جدلية وظلت معقودة الغبار .

كنا نختلف ونتجادل فى كل شىء ، فى الفن والدين والعلم وموضوع الحياة على الأرض والحياة وراء القبر ، و بخاصة عن الحياة وراء القبر .

كان رفيقى من ذوى اليقين والحماسة ، وقد قال لى يوماً « أنت تسخر بكل شىء ولكن إذا حانت منيتى قبلك فسآتيك من العالم الآخر وسنرى هل تضحك حينذاك » .

ومات فى الواقع قبلى وهو فى نضارة الشباب ، ولكن مرت سنون ونسيت وعده أو وعيده .

ففى ليلة من الليالى كنت مستلقياً فى الفراش وقد نفرمنى النوم ، وكانت حجرتى بين الضوء والظلمة ، فأخذت أطيل النظر إلى ضوء الغسق الخافت وخيل إلىّ فجاءةً أن خصمى واقف بين النافذتين وأنه يهز رأسه فى تؤدة و بطء إلى أعلى و إلى أسفل وقد بدت عليه أمارات الحزن .

لم يخفنى ذلك ولم يثر دهشتى ... ونهضت بعض النهوض ، واستندت على مرفقى وطفقت أحدق بهـذا الطيف غير المنتظر ... واستمر هو يهز رأسه .

قلت له أخيراً « هل انتصرت وفزت أو احتواك الأسف والتندم ؟ وما هذا ؟ أتحذير هو أو عتاب وملام ؟ أتريد أن تفهمنى أنك كنت على خطأ وأننا كنا كلانا مخطئاً ؟ وما الذى تعانيه الآن من ضروب التجارب؟ أعذاب الجحيم أم نعيم الجنان ؟ قل ولو لفظة واحدة »

ولكن خصمى لم يفه بشىء ، واكتفى بأن هز رأسه بحزن وخشوع وصعّده وصوّبه .

فابتسمت .. واختفى

قاعدة للحياة

قال لى مرة رجل هرم حول خبيث « إذا أردت أن تحرج خصمك وتضيق عليه الخناق ، بل إذا شئت أن تغلو فى ضرره فارمه بنفس العيوب التى تشعر بوجودها فى نفسك ، وتصنع الغضب وشدد عليه النكير !

فإذا بدأت بذلك ألقيت فى روع الناس أن هذه العيوب ليست فيك . وربما أخلصت فى غضبك فتفيد من ذلك ... فقد تجدى عليك وخزات ضميرك .

فإذا كنت مثلاً مارقاً فى الدين فارم خصمك بأنه مزعزع العقيدة ضعيف الإيمان !

و إذا كنت عبداً ذليلاً فعير خصمك بأنه عبد رقيق ... عبد الحضارة وأوربا والاشتراكية ! »

فقلت له « يمكن أن أقول إنه عبد ضد العبودية » .

فأجابنى ذلك الحول الخبيث « لا بأس فى أن تفعل ذلك » .

رجلان مثريان

عندما أسمع إطراء الرجل المتمول السرى روتشلد الذى وقف من دخله الضخم وثروته الطائلة الآلاف لتربية الأطفال ، والعناية بالمرضى ، والأخذ بيد الطاعنين فى السن أستحسن ذلك منه ويصيب من نفسى مواقع الرقة والتأثير .

ولكنى وأنا فى غمرة ذلك التأثير الحسن لا أتناسى أن أذكر مزارعاً فقيراً آوى إلى كوخه الصغير ابنة أخ له يتيمة .

قالت له امرأته « إذا نحن آوينا كاتكا فسننفق عليها البقية الباقية من نقودنا ، ونصبح لا نملك ما يكفى لاستحضار ملح نأتدم به الخبز » .

فأجابها زوجها المزارع « حسن ... تستغنى عن الملح ! » !

إن روتشلد جد متخلف عن ذلك المزارع !

غداً غداً

ما أتفه الأيام وما أفرغها وما أقفرها من الخير بعد أن نقضيها ! وما أقل الآثار التى تخلفها وراءها ! وما أسخف وأحمق تلك الساعات التى تتوالى سراعاً الواحدة تخطف فى ذيل الأخرى !

ولكننا برغم ذلك نرتضى الوجود ، ونغالى بقيمة الحياة ، ونعلق الآمال عليها وعلى أنفسنا وعلى المستقبل ... وأى فيض من البركات نرتجيه من المستقبل !

ولكن لماذا يخيل للإنسان أن الأيام القادمة لن تكون مثل هذا اليوم الذى مر به ؟

إنه لا يتصوّر ذلك ، وهو يؤثر الإمساك عن التفكير ، وهو يحسن بذلك صنعاً .

آه الغد الغد ! يرفّه الإنسان عن نفسه بذلك حتى يقذف به ذلك الغد إلى القبر ، وفى القبر لا اختيار ولا تفكير .

العصفور

كنت عائداً من الصيد وسرت فى طريق بالحديقة تحف به الأشجار من جانبيه ، وكان كلبى يعدو أمامى .

قصّر الكلب بغتة خطواته ، وأخذ يتسلل كأنه يقفو أثراً .

فأرسلت النظر إلى امتداد الطريق فلمحت عصفوراً صغيراً تعلو منقاره ورأسه صفرة ، وكان قد هوى من العش (كانت الرياح تعصف بأشجار البتولا القائمة على جانبى الطريق عصفاً شديداً) ، وأخذ يرفرف بجناحين لم يستكملا بعد نموهما وقد عجز عن الحركة.

و بينما كان الكلب يتقدم منه فى بطء سقط في التو واللحظة عصفور هرم من شجرة قريبة وكان يرتجف هلعاً و يزقزق زقزقة المستيئس المتوسل وألقى بنفسه مرتين نحو فكى الكلب وأنيابه اللوامع .

لقد وثب من شاهق لينقذ فرخه ، وكان ينتفض فرقاً ولكنه ألقى بنفسه من مأمنه برغم خوفه .

ولقد كان الكلب يبدو للعصفور وحشاً هائل الأنحاء ، ولكنه مع ذلك لم يستطع البقاء فى الأعالى واتقاء الخطر ، وقد دفعت به قوة غلابة أقوى من إرادته .

توقف الكلب ولم يأت بحركة ثم عاد أدراجه ، لقد رأى هو كذلك شواهد تلك القدرة .

فأسرعت ودعوت الكلب الذاهل المتعجب ، وعدت مفعم القلب بالإجلال .

نعم لا تسخر من ذلك ، لقد شعرت باحترام لهذا العصفور البطل الصغير لما فيه من دوافع الحب .

وأدركت أن الحب أقوى من الموت أو من الخوف من الموت .

وبالحب تتماسك الحياة وتسير فى طريق التقدم .

الكلب

كنا اثنين فى الحجرة ، كلبى وأنا .

وكانت عاصفة رهيبة تزمجر فى الخارج .

أقعى الكلب أمامى ، وأخذ يحدق فى وجهى ... وشرعت أنا كذلك أحدّق فى وجهه .

هو يريد فيما يظهر أن يفضى إلى بشئ .

هو أعجم لا يفصح ولا يبين ولا يفهم نفسه — ولكنى أعرف ما يدور بنفسه .

فى تلك اللحظة كان ينبعث فى نفسه وفى نفسى الشعور بأن لا فرق بيننا ، فنحن سواء .

فى كل منا تشتعل نفس الشرارة المرتجفة وتضئ .

والموت يجتاح بجناحه العريض الحاصب .

والنهاية !

من ذا الذى يستطيع أن يدرك كنه تلك الشرارة المشبوبة فى كائننا ؟

لا ! إننا لم نكن إنساناً وحيواناً يتبادلان النظر ، لقد كانت عيون أكفاء تلك العيون التى تبادلت النظرات .

فى الإنسان والحيوان كانت نفس الحياة تتجمع وتتدانى من فرط الخوف .

والنبذة الآتية مختارة من أقصوصته المسماة « جولة فى الغابة » وهى صدى لصوته ، وصورة من نفسه وترديد لنغمة ألفها ، وهى عجز الإنسان عن الوقوف إزاء الطبيعة المعترمة ، الطاغية الماحية ، الدائمة الحركة بلا ونية ولا انقطاع ، السائرة أبداً إلى الأمام ، مبتلعة كل شىء غير مبقية على شىء ، وكانت هذه النغمة متأصلة فى نفسه عريقة فى طبعه ، وقد كان تأمله قوة الطبيعة وهولها يغمر مشاعره الجميلة الرقيقة بسيل من الحزن والأسى ، ويثير فى نفسه بواعث العطف والحب للبشر شركائه فى الخطب ، وإخوانه فى البلاء :

منظر غابة الصنوبر المترامية الأرجاء وقد حفت بالأفق من شتى نواحيه يذكرنا منظر البحر المحيط ، وهو يثير فى نفوسنا نفس الإحساسات التى تبعثها رؤية البحر المحيط ، فهنالك تطالعنا نفس القوة الأزلية التى لم يمسها شىء فى رحابتها ورائع جلالها ، ومن جوف الغابة المتأبدة ومن صدر المحيط الذى لا تسكن نبضاته ينبعث نفس الصوت الذى تقول فيه الطبيعة

للإنسان «ليس لى بك من علاقة ، وها أنا ذا أحكم مبسوطة الظل عزيزة السلطان على حين تستنفد جهودك وتفنى حيلك لتفر من الموت » . ولكن منظر الغابة أبعث على الكآبة ، وأكثر إثارة للشجن ، وأقل منه تنوعاً وتغير حالات ، ولا سيما غابة الصنوبر ، فهى دائمة التشابه ، متماثلة الشكول ، وتكاد تكون خرساء ، والبحر المحيط يهدد ويتوعد ، ويداعب ويلاطف ، ويرق ويقسو ، ويتجمل بشتى الألوان ، ويتكلم بكل لسان ، وتنعكس فى مرآته السماء ، ويطالعنا منها أنفاس الأبدية ، ولكنها أبدية يخيل إلينا أنها ليست عنا ببعيدة . وغابة الصنوبر الكابية المتغبّرة العصية على التغيير تلتزم الصمت المتجهم أو تزخر بالدوى الأجش ، وعند مشاهدتها يشعر الإنسان فى أقصى أعماق نفسه بتفاهته ولا شيئيته ، وصعب على الإنسان ابن اليوم ووليد الأمس أن يحتمل نظرة « إزيس » الخالدة تلك النظرة المقرورة الجامدة التى ترمقه وترصده بغيرما عطف ولا حنان ، فى ذلك الموقف لا تتراجع الآمال الجريئة وحدها وتنكص على الأعقاب وتولى عنا أحلام الشباب مستذلة ذابلة كأنما صوحتها وطوت بهجتها أنفاس العناصر الباردة . . . كلا . . . وإنما تهوى روح الإنسان جميعها بقضها وقضيضها إلى الأغوار السحيقة ، وتغشاها غاشية ويصيبها دوار ، ويشعر الإنسان بأن آخر أبناء جنسه قد يختفى ويعفو من الأرض رسمه فلا تهتز له وريقة على عسلوج من تلك العساليج ، ... ويحس الإنسان بعزلته وقلة حوله وحرج موقفه ، فلا يقوى على الثبات ، ويفر هارباً وقد ألوى به خوف خفى ، ويلوذ بهموم الحياة

الضئيلة وأعمالها الصغيرة ، وفى الدنيا التى خلقها يستشعر الراحة ، وتثوب إليه الطمأنينة ، و يستطيع أن يثق بقدرته و يصدق بقوته .

كذلك كانت الأفكار التى دارت بخاطرى منذ سنين مضت حينما كنت واقفاً على درج حانة صغيرة على ضفاف نهر رزتا الصغير الملىء بالمناقع والآجام وشيعت رسل النظر إلى أنحاء الغابة . . . .

جلست على جذع محتطب ، وأسندت مرفقى على ركبتى ، وبعد إطراق طويل رفعت رأسى وأدرت الطرف حولى ، آه لقد كان كل شىء حولى سا كناً بادي الكآبة والحزن ، بل لم يكن حزيناً فحسب و إنما كان فوق ذلك أخرس فاتراً ومنذراً معاً !

وجل القلب واشتد وجيبه ، فى تلك اللحظة و بتلك البقعة كنت أشعر بأنى على كثب من الموت ، بل كأننى كنت ألمس قربه الدائم ، فلو أن صوتاً واحداً اختلج فى ذلك الصمت الذى يكتنفنى من كل جانب ، أو لو أن الحفيف شاب ذلك السكون مرة واحدة ! طأطأت رأسى ثانية ، وقد ملأ نفسى الخوف ، وكنت أشعر كأننى نظرت حيث لا ينبغى لإنسان أن ينظر ، فوضعت يدى فوق عينى وأخذت بغتة — كأنى كنت ألبى أمراً خفياً — أتذكر حياتى كلها .

مرت بذاكرتى طفولتى كومض البرق صخابة مسالمة مشاغبة ولكنها طيبة القلب، وأردفتها مسراتها السريعة المر وأحزانها القليلة البقاء، وتراءى لى شبابى غامضاً عجيب الأطوار ، شاعراً بنفسه، مصحوباً بأخطائه وهفواته

ومحاولاته وجهوده الموزعة ، وتبلده المستوفز... وأخذت تتوافد على ذكريات الرفقاء والأصدقاء الذين قاسمونى طمحاته الباكرة .. ثم شع ضوء ذكريات قلائل مشرقة كما يلمع البرق فى حواشى الليل ... وأخذت الظلال تتكاثف وتخيم على ، واعتكر الظلام حولى ، ومرت السنون المتشابهة الرتيبة هادئة فى سلام ... وأهوى على قلبى الانقباض كما ينقض الحجر ، فجلست بغير حراك ،وأخذت أتفرس... أخذت أتفرس بجهد وارتباك وكأنى كنت أنظر حياتى جميعها ماثلة إزائى. .وكأنما رفعت عن باصرتى الحجب والأستار ، آه ماذا فعلت ! هذا ما تحركت به شفتاى على غير قصد منى فى همسة مريرة ، آه أيتها الحياة ، أين وكيف وليت دون أن تتركى أثراً ؟ كيف تفلّت من قبضة أصابعى ؟ أخدعتنى وغررت بى ؟ أم كنت أنا الملوم لأنى لم أعرف كيف أفيد من عطاياك ومنحك ؟ أهذا ممكن ؟ أهذه البضعة التافهة وهذه القبضة الزهيدة من خابى الرماد كل ما بقى منى ؟ وهل هذا الشىء الفاتر الراكد الذى لا لزوم له «أنا» . . هو « أنا » التى كانت فى سالف الأيام ؟ لقد كانت الروح ظمأى إلى السعادة الكاملة فرفضت فى ازدراء كل ما كان ضئيلاً ، وانتظرت — سرعان ما تنفجر لها ينابيع السعادة — ألم تبل قطرة منها الشفة الملتاحة من الظمأ ؟ آه يا أوتارى الذهبية ، أنت التى خفقت مرة بلطافة وعذوبة ، يخيل إلى الآن أنى لم أسمع قط موسيقاك ، ما كدت تخرجين نغمة حتى تقطعت أوتارك وعاجلها العطب ، أو ربما كانت السعادة — سعادة حياتى جميعها الحقيقية — قد مرت على كثب

منى وابتسمت لى ابتسامة متألقة مؤنسة فعجزت عن تعرف محياها القدسى ، وهل زارتنى حقيقة وجلست إلى جانب فراشى ثم نسيتها كما ينسى الحلم ؟ أخذت أعيد على سمعى هذا القول وأردده والقلب مسلوب العزاء غير جواد بالسلوان ، ثم أخذت تهفو بى أشباح خادعة غرارة ، ونبهت من نفسى شيئاً يتردد بين الإشفاق والحيرة ، وشرعت أحدث نفسى «أنت أيضاً أيتها الوجوه العزيزة التى طاح بها الموت تلتفين حولى فى هذه العزلة الصامتة الموحشة ؟ ولماذا قد استولى عليك هذا الصمت الملىء بالشجو ؟ من أى هاوية بعثت ؟ وكيف أستطيع أن أفسر نظراتك الغامضة ؟ أتحييننى أم تشيعيننى بكلمات الوداع ؟ أيمكن ألا يكون أمل ولا رجعى ؟ ولماذا تتساقط من عينى هذه العبرات المتأخرة الوانية ؟ أيها القلب لماذا ولأية غاية يتزايد حزنك ويطغى شجنك ؟ إعمل على النسيان إذا أردت راحة ونشدت هدوءاً ، وتجلد إلى حد الاستسلام الوديع للفراق الأخير واحتمال كلمة الوداع والوداع إلى الأبد ، ولا تتلفت إلى الوراء ، ولا تسترسل فى الذكريات ، ولا تحاول الوصول إلى مشارق الضوء حيث يبسم الشباب ، وحيث الأمل مكلل بأزهار الربيع ، وحيث يحلق الابتهاج بأجنحة نورانية ، وحيث الحب كالأنداء فى رونق الضحى شرق بالدمع من فرط الجذل . . لا ترسل الطرف حيث السعادة واليقين والقوة . . . ليس هناك مكاننا ».

حكمة كريلوف

١

الأدب الروسى القصصى على تفوقه وامتيازه أدب حديث النشأة قريب العهد بالقياس إلى سائر الآداب الأوربية ، ويرى موريس بيرنج — وهو كاتب متمكن وناقد ذواقة ومن أعرف كتاب الإنجليز وأدبائهم بالأدب الروسى — أن رسالة الأدب الروسى للعالم الفريدة الخاصة ما كانت لتنقص نقصاً محسوساً لو فقد كل ما أخرجه من القرن الثانى عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر مع استثناء كتاب « غزوة الأمير إيجور »

ومنذ ابتداء القرن التاسع عشر واعتلاء القيصر الإسكندر الأول عرش القياصرة الروس يبدأ العصر الجديد ، ويطلع فجر الأدب الروسى الصادق ، وسرعان ما تبع طلوع هذا الفجر شروق الشمس جلواء الطلعة ، باهرة الضياء.

وكان الأدب الذى ظهر بعد ذلك ونما وازدهر ومتع وبسق يتأثر تأثراً عميقاً بالأحداث العامة التى كانت تميد بها أوروبا ، وكان ذلك العصر عصر الحروب النابليونية ، وقد اشتركت روسيا فى هذه الدراما الرائعة الكثيرة الألوان ، المتعددة الفصول ، وقامت بدور رئيسى ، وكانت انتصارات القائد الروسى سواروف قد أثارت حماسة الروسيين ، وحركت فيهم العاطفة

القومية ، وتبع ذلك انتصارات ناپليون المتوالية على الجيوش الروسية فأغضب ذلك الروسيين ، وهز ثقتهم بأنفسهم ، ونال من إبائهم وكرامتهم ، ولكن بعد أن غزا ناپليون روسيا فى سنه ١٨١٢ هبت عاصفة من القومية على روسيا ، وانتهت المعركة بتقوية الوحدة ، وتنبه الروح القومية ، وخرجت روسيا من المعركة أصلب عوداً وأقوى نفساً ، وأجاد القيصر الإسكندر تمثيل دوره وعبر عن الروح القومية تعبيراً بليغاً .

وقد أيقظ فى مطالع حكمه الآمال العظيمة فى الإصلاح والنهوض والسير فى سبيل التقدم والحرية ، وكان كثير الأحلام معسول الأمانى ، وقد تخرج على المفكر السويسرى لا هارپ ، وقد غرس فيه أستاذه النزوع إلى الحرية وحب الحق والإنسانية ، وقد ظلت هذه المطالب مثله العليا المنشودة ، ولكنها كانت فى نفسه غامضة مضطربة ، فلم تثمر ثمرتها المرجوة ، وقصرت به عن الغاية المبتغاة ، وكان عهده محاولات مخفقة متوالية لتقويم المعوج و إصلاح الفاسد ، وقد وقع فى أواخر أيامه تحت تأثير السياسى النمساوى الرجعى المعروف مترنخ والوزير الروسى المريب المشنوء أركشيف ، ومهما يكن من الأمر فقد انتصرت الرجعية فى روسيا ، ووقفت الحركة التقدمية ، ولكن برغم ذلك فتحت النوافذ والأبواب فسرب الضوء ، وهبت النسمات .

وقد أطلق الإسكندر فى أوائل حكمه حرية الصحافة والفكر ، وكان فى طليعة الذين أفادوا من ذلك الشاعر الروسى الكبير إيڤان كريلوف (١٧٦٩ — ١٨٤٤)

وهو أول شاعر روسى له أثر واضح فى الحركة القومية والنهضة الأدبية ، وكان ابن ضابط من ضباط الجيش الخاملين ، ومات أبوه فى العاشرة من عمره ، ولـكن والدته كانت امرأة عاقلة حازمة ، فاستطاعت بحسن التدبير وبالغ العناية وتحرى الاقتصاد أن تعلمه تعليماً لا بأس به ، وقد بدأ حياته موظفاً صغيراً فى مدينة تيفر الواقعة على نهر الفلجا (واسمها الآن كالينين) وكان عمله المصلحى مملاً رتيباً ، فكان يشرد فى النواحى المجاورة ويخالط الفلاحين والنواتىّ ، ويتعرف لهجاتهم وأساليبهم وطرائق تفـكيرهم ، وقد أكسبه ذلك خبرة مستفيضة ، ومعرفة صميمة ، وانتقل بعد ذلك إلى بتروغراد ، واشترك فى عهد الملكة كاترين مع اثنين من أبرز مفكرى العصر وأشدهم إقداماً فى تحرير مجلة أدبية ، وقد بدأت الملكة كاترين عهدها بتشجيع النقد الاجتماعى ، ولـكن حدوث الثورة الفرنسية جعلها ترتد إلى الرجعية وتعرض عن الآراء الحرة إعراضاً تاماً ، فلقى كريلوف العنت من الشرطة والرقابة ، وقد بدأ حياته الأدبية بكتابة الروايات التمثيلية ونجح نجاحاً عارضاً ، ولكن رواياته لم تكن تحمل عناصر البقاء ، ولم يهتد إلى ميدانه الأصيل ومجال تفوقه وتبريزه إلا فى سنة ١٨٠٥ حيث بدأ ينظم خرافاته التى شاع ذكرها ، وعظم خطرها ، وأصبحت حدثاً يشار إليه فى الأدب الروسى ، وكانت خرافاته الأولى مترجمة أو مقتبسة من المراجع الأجنبية — وبخاصة لافونتين — ولكنه استقل بعد ذلك بطريقته الخاصة وأخذ ينظم خرافات مبتكرة يمزج فيها الصورة التقليدية للخرافة

بالحديث الشعبى الملىء بالحياة الحافل بالواقعية ، وكان يزيد خرافاته قوة ما تتضمنه من نقدات لاذعة ، وطعنات خفيات مصميات ، وكثير من خرافاته تتناول ما فى الحياة الروسية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من جوانب النقص ونواحى الضعف .

وخرافات كريلوف — مثل خرافات لافونتين — أبطالها من الحيوانات والطيور، والأسماك والحشرات والناس ، وللفلاح الروسى فيها مكانة ملحوظة، وكريلوف هجاء بارع وساخر لاذع ، وهو كسائر كتاب الخرافة يجيد تصوير عيوب المجتمع ونقائصه ، ويسلط عليها سخريته الخفية ، وغمزاته المستورة ، وبعض هذه الخرافات يضحكنا من حماقات الإنسان وسخافاته ، وبعضها يرسل الحكمة فى قالب الفكاهة ، وهدفه أن يمتعنا ويسلينا قبل أن يعلمنا ويعظنا ، وكريلوف ساخر شديد الوطأة وهجاء من الطراز الأول ، ولكنه مع ذلك شاعر صادق الشاعرية عميق الإحساس ، متقد العاطفة .

وخرافات كريلوف تتسلسل تسلسلاً منطقياً ، وله قدرة خارقة على إيجاز الموقف واختصاره فى صورة مكتملة لامعة وكلمة وجيزة جامعة مانعة ، من أمثلة ذلك خرافته الذائعة عن « الفلاحين والنهر » وفيها يصف ما يلقاه الفلاحون من ظلم الحكام وعسف العمال ، وهذه ترجمتها المنشورة :

فى ذات يوم ضاق صدر الفلاحين بما يلحقهم من الاضطهاد ، وما يصيبهم من الإفساد والنهب والسلب والسرقات وابتزاز الأموال واغتصاب المحاصيل، وقد كانت الجداول والقنوات والترع تطغى على طرقهم، وتعرقل

أعمالهم ، فصح عزمهم على تقديم شكوى للنهر الأعظم الذى تصب فيه هذه الجداول والقنوات والترع ، وكانت أسباب الشكوى قوية واضحة ، فمحاصيلهم تنهب وتسرق ، وطواحينهم تطغى عليها المياه ، ويختطف التيار الجارف الكثير من ماشيتهم ويغرقها ، ويحدث ذلك كله والنهر يجرى فى تؤدة ووقار ، وتقوم على ضفتيه المدن الكبيرة العامرة والحواضر الزاهرة آمنة مطمئنة ، وكانت الناس لا تظن أن الترع والقنوات والجداول تعبث بالفلاحين هذا العبث المؤذى وتستخف بهم هذا الاستخفاف المزرى ، وجرى فى وهم الفلاحين أن النهر سيعوضهم مما نزل بهم من الخسائر الفادحة والنكبات المتلاحقة ، فلما اقتربوا من شطآنه أومأ اليه من كان فى طليعتهم فشخصت أبصارهم نحو النهر برهة من الزمن ، فرأوا أكثر ما فقدوه طافياً فوق متنه ، فالشكوى إذاً جهد ضائع وعمل عقيم ، وألقى كل منهم نظرة على النهر المتدفق الجارى ، ثم تبادلوا النظرات وهزوا رؤوسهم وعادوا أدراجهم .

وتجاذبوا وهم فى الطريق أطراف الحديث ، وتوافت آراؤهم على أنه لا فائدة من إنفاق الجهد فى مقاضاة الصغير إذا كان يقتسم جميع ما ينتهبه ويسلبه مع الكبير العظيم .

وقوله عن الفلاحين إنهم « هزوا رؤوسهم وعادوا أدراجهم » أبلغ فى تصوير طبيعة الموقف ومأساة الحادثة من الخطب الطوال ، وأمثال هذه « القفلات » تروق لافونتين .

وقد تناول فى خرافاته بعض الأحداث السياسية الكبرى مثل الثورة الفرنسية وغزو ناپليون ومؤتمر ڤينا ، وفى الخرافة الآتيـة — وعنوانها « ابن الأسد » — يعرض بتربية القيصر الإسكندر الأول وأستاذه لاهارپ : —

وهب الله الأسد ابنا كان يتلهف عليه ، والحيوانات التى قد يكون لك بعض الإلمام بشؤونها وأساليب حياتها ليست مثلنا ، فطفلنا الذى لم يتجاوز العام يكون ضعيف الإدراك صغير الجرم — سواء فى ذلك أبناء الملوك وأبناء الشعب — والأسد الذى يبلغ عمره عاماً — كما تعلم — يكون قد فارق القماط ، وكبر عن الطوق .

ولقد أخذ الملك يفكر ويروى كيف ينشىء ابنه نشأة تبعد عنه الجهل ، وتبقى له شهرته الملكية نقية غراء ، فإذا ما تسنم الطفل العرش ، وألقيت إليه مقاليد الأمور لا يلوم الناس الأب على ما قد يقع فيه الابن من الأخطاء .

فمن الذى يأمره ويكلفه أو يرغمه على تعليم نجله كيف يعرف الواجبات الملكية ويحسن النهوض بها ؟

أيعهد فى ذلك إلى الثعلب ؟ الثعلب بارع متوقد الذكاء ولكنه ولوع بالكذب ، متهالك على الرياء والنفاق ، ومعاشرة الكذابين المنافقين تجاب المتاعب وتجر المشكلات ، وليس هذا من شيم الملوك وشمائل العظماء !

وخطر له أن يعهد فى ذلك إلى الخلد لأنه يحسن تنظيم بيته ، ولا يخطو

خطوة إلا وهو على بينة من أمره ، وهو يتولى بنفسه تنظيف طعامه وإعداده ، وموجز القول أن جميع التقارير تثبت أن الخلد حيوان بارع فى صغيرات الأمور ، ولكن لنتمهل فى الأمر ! فحقيقة أن الخلد يرى ما تحت أنفه بوضوح ودقة ، ولكنه لا يرى أبعد من أنفه ! ومذهب الخلد مذهب نافع ولكنه لا يصلح لك ولا لى ، ومملكة الأسد أوسع نطاقاً من أكمة الخلد .

ولماذا إذاً لا يجرب النمر !

فالنمر شجاع مقدامة ، وقوى مضبور الخلق ، ويستطيع أن يعلمك الحركات الحربية ، ولكنه لا يفقه شيئاً فى السياسة ، وليست عنده أية فكرة عن حقوق الإنسان المدنية ، والملك يلزم أن يكون سياسياً وقاضياً ومن خطل الرأى أن يكون محارباً فاتكاً فحسب ، والنمور لا تتقن سوى فن الحرب . فليس لأبناء الملوك أن يتخرجوا على النمر ، وموجز القول أن الأسد فكر فى جميع الوحوش ، فوجد أنها كلها مفرطة الجهل ، ضعيفة التفكير ، قليلة العقل ، حتى الفيل الذى اشتهر فى الغابات بالحكمة كما اشتهر أفلاطون قديماً بالفلسفة بدا له سخيفاً شديد الغباء .

ولحسن حظ الملك — أو لسوء حظه فإن علينا أن نتبين ذلك — علم ملك النسور بما يعانيه ملك الوحوش من هم وتسهيد ، وكان دائماً يظهر المودة والعطف لصاحب العرش المجاور لبلاده ، وعزم على أن يقوم لصديقه بخدمة ملكية ليدل على عظيم إخلاصه وصادق وفائه ، فالتمس من الملك

أن يتولى هو بنفسه تعليم نجله ، فعظم سرور الأسد ، وشكر له هذه اليد الكريمة ، وأكبر هذه الأريحية ، وأى تشريف أعظم من أن يقوم أحد الملوك الغر الميامين بتعليم ولى العهد !

وبادر ملك الوحوش إلى إرسال نجله ليتلقى فى مدرسة ملك النسور أصول الحكم وقواعد السياسة .

ومر عام ، وانصرم عامان آخران ، وكان القادمون من مملكة النسور يحملون أحسن الأنباء عن نجل الأسد ويثنون عليه أطيب الثناء ، ويتحدثون عن تقدمه السريع فى الدراسة ، وكفايته ونبوغه ، وكانت الطيور جميعاً تردد ذلك .

وأخيراً أتم الغلام دراسته ، وفاز بالإجازة العلمية التى تدل على التفوق والامتياز ، واستقدمه والده ليسر برؤيته ، ويبلو علمه وقدرته ، وعاد الابن بعد طول الغياب والتضلع من العلم ، ودعا الملك الوحوش جميعها إلى الحضور ، فلما اجتمعت الوحوش وأخذ كل منها مجاسه قبل الملك ابنه وعانقه وخاطبه قائلاً :

« ولدى الحبيب ، أنت الذى ستخلفنى وتقوم بعدى بأعباء الملك ، وتدبير أمور الرعية ، وإنى هامة اليوم أو غد ، وأنت يا ولدى فى مقتبل العمر ، وعنفوان القوة والشباب ، وأنا ألقى أليك مقاليد الحكم فى سرور وارتياح ، وأملى أن تحسن السيرة ، وتسوس الناس خير سياسة ، وأود أن تحدثنى أمام هذا الجمع الحاشد من رجالات الدولة وأعيان الوحوش عن العلم

الغزير الذى حصلته ، والمعرفة التى اكتسبتها ، والخبرة التى أفدتها ، وكيف تصلح من شؤون أمة الوحوش ، وتنهض بها ، وتعلى شأنها »

فأجاب نجل الأسد « أبتِ العزيز ، لقد اخترت لى فأحسنت الاختيار فقد درست دراسة لم يتح مثلها من قبل لأحد من الوحوش ، وعرفت ما غاب عنهم ؛ ومعرفتى بالطيور وعاداتها وأساليب حياتها وتقاليدها المتبعة ليست لها نظير ، وأنا من أعرف الناس بطرق تحسين ذريتها ، وترقية أنواعها ، ولا يند عن علمى فى هذا الصدد رأى قديم أو حديث ، وعندى إحاطة تامة ومعرفة واسعة بمراجع أمثال هذه البحوث ، وإنى أغتنم هذه الفرصة لأقدم لك الإجازات العلمية التى تدل على توفيقى وتشهد بتفوقى »

وناول والده تلك المجموعة من الأوراق التى يسمونها الإجازات العلمية والتى يقال إنها تزن قيمة تفكير الإنسان وعلمه وزناً دقيقاً صادقاً ، واسترسل يقول « إنى أجيد معرفة مسالك النجوم ، وإذا صحت نيتك على أن ألى حكم هذه الأمة فأول عمل سأقوم به هو أن أحمل الوحوش على ابتناء الأعشاش والوكور » فأن الأسد وتأوه ، وشاركته فى ألمه جميع الوحوش فتنهدت وتوجعت ، وهز الجميع رؤوسهم من الخجل والاشمئزاز ، وأدرك الملك المتقدم فى السن حقيقة الموقف بعد فوات الأوان .

فدراسات نجله جميعها غير مجدية ، وكلماته لا تدل على الحكمة ، وأصالة الرأى ، وصدق النظر ، فما حاجة الوحوش إلى المعرفة الواسعة بالطير وعاداتها ! والذى تعده الطبيعة ليحكم الوحوش لا يحتاج إلى أن يتعمق فى علم الطيور ، وأسمى فن يتاح الملك إتقانه هو أن يفهم حاجة بلاده ،

ويعرف كيف يصلح من أمرها ، ويعالج مشكلاتها ، وينهض بها .

وتناول فى بعض خرافاته فساد الأحوال الداخلية فى روسيا ، ومساوىء العدالة ، ومن أمثلة هذه الخرافات خرافة الفلاح الذى قدم شكوى يتهم فيها شاة بالتهام دجاجتين ، وكان الثعلب هو الجالس فى كرسى القضاء ، وبدأ المدعى يوضح بينته ، ويدلى ببرهانه ، وأخذت الشاة فى الإنكار والتنصل من التهمة ، وقال الفلاح ، إنه فى اليوم العاشر من شهر مايو افتقد دجاجتين ، ورأى ريشهما وعظامهما ملقاة على الأرض ، ولم يكن بفناء الدار فى ذلك اليوم سوى الشاة ، وقالت الشاة إنها نامت طوال الليل ملء جفنيها ، وطلبت استدعاء الجيران ليشهدوا بحسن سيرتها ونصاعة سمعتها ، وأنها لم تتهم قط بالسرقة أو بالغش والتزوير ، وأنها لم تذق فى حياتها لحم الحيوان أو الطير ، ونطق الثعلب بالحكم ، ونصه أن الشاة قدمت حججاً غير مقبولة على ما بها من طلاء وزخرف ، والأشرار بارعون على الدوام فى إخفاء آثار جرائمهم ، وتلفيق الحجج فى الدفاع عن أنفسهم ، وقد توافرت الأدلة على أن الشاة كانت فى الفناء مع الدجاجتين فى يوم وقوع الحادث ، ولحم الدجاج شهى لذيذ ، وليس مما يزهد فيه ، والأحوال جميعها مواتية والفرصة سانحة ، وقال الثعلب إنه إنما يصدر عن ضميره إذا زعم بأن الشاة لم يكن فى وسعها أن تقاوم رغبتها فى التهام الدجاجتين ، فالشاة محكوم عليها بالإعدام ، والحكم مشمول بالنفاذ فى التو واللحظة ، على أن يبقى لحمها فى المحكمة ويعطى الجلد للمدعى

حكمة كريلوف

٢

كانت حياة كريلوف الخارجية خالية من الحوادث الهامة ، والمواقف المأثورة ، وكان فيه من الفلاحين الروسيين كراهة الحركة ، والميل إلى التأنى والإبطاء ، ولم يكن فى الحياة شىء يستحثه إلى الإسراع والحركة والنشاط ، وقد عين حيناً من الزمن موظفاً بمكتبة بتروغراد العامة ، فكان يقوم بواجباته فى يسر وسهولة وعدم اكتراث ، وكان يرتدى جلباباً ، فإذا أراد أحد الزائرين استعارة كتاب أشار كريلوف عرضاً إلى الرف الذى به الكتاب وترك له حرية استحضاره ، ويروى عنه أنه كان يقضى أكثر وقته فى داره مستلقياً على أريكته ، وفى ذات يوم استرعى أحد أصحابه نظره إلى أن المسمار المعلقة به إحدى الصور الموضوعة فوق الأريكة غير مستقر فى مكانه ، وأن الصورة قد تقع على رأسه ، ونصح له بالتحول عن مكانه ، فأجابه كريلوف دون أن يبرح مكانه « كلا يا سيدى إن الصورة ستقع خلف الأريكة وأنا أعرف الزاوية » وهو رد أشك فى دلالته على تعمقه الهندسة وعلم الزوايا ، وإن كنت لا أشك فى أن الذين كانوا يسمونهم فى سالف الزمان « تنابلة السلطان » يغبطونه عليه ، على أن كسل كريلوف ظاهرة مألوفة فى بعض المفكرين ، فهو كسل رجل قد استحال

ذهناً مفكراً ونفساً حساسة ، فهو لا يشعر بميل إلى معالجة أى ضرب آخر من ضروب العمل والحركة ، ويحب أن يخلى ما بينه و بين الاسترسال مع التفكير والاستغراق فى التأمل ، وكانت الرقابة على المطبوعات فى عصره شديدة الوطأة ، كثيرة التعنت ، وكانت الخرافة هى الأسلوب الوحيد الذى يستطيع به كريلوف أن ينقل أفكاره ، و يذيع آراءه بين القراء والمثقفين ، وقد توفر على إتقانه حتى أصبح لافونتين الأدب الروسى ، ولم يعف كريلوف الرقابة من سخريته ، فقد أفرد لها إحدى خرافاته ، وهى الخرافة المعروفة بخرافة « القطة والبلبل » ، وذلك أن البلبل وقع فى قبضة القطة ، وأنشبت فيه مخالبها وهمست فى أذنه بعد أن ضغطته ضغطة يسيرة جعلته يئن و يتلوى من الألم « طالما سمعت يا بلبلى العزيز من أفواه الناس فى كل مكان الثناء الجم على صوتك المطرب الرخيم ، وهم يوازنون بين موسيقاه الشجية وأحسن أنواع الموسيقى ، وحديث صديقى الثعلب لا يذهب باطلاً فقد أنبأنى أن لك صوتاً عذباً ندياً يشوق السمع ، و يشجى القلب ، وأود أن أمتع سمعى بغنائك الجميل وصوتك الرنان ، فلا ترتعد يا صديقى ، ولا تثيرن غضبى، أتظننى أريد أن ألتهمك ؟ كلا ، إنى لا أريد بك سوءاً ، ومتى أسمعتنى غناءك أطلقت سراحك لتجوب البلاد وتطير من شجرة إلى شجرة ، وأنا مثلك صبة بالموسيقى كلفة بالغناء » ولكن الطائر المسكين كان ينتفض هلعاً ، ويترنح جزعاً ، ويكاد تحتبس أنفاسه وهو فى مخالب القطة ، فقالت له القطة « ما بك ؟ وماذا أصاب صوتك ؟ غننى

ولو أغنية واحدة !» ولكن الطير لم يقو على الغناء ، وإنما نشج وتوجع ، فقالت القطة ساخرة متهانفة « أهذا هو الذى يملأ أرجاء الغابة سروراً وحبوراً وغناءً جميلاً ؟ لقد خيبت أملى فى الاستمتاع بغنائك ، ولأجرب الآن ، فلعلك فى لهوانى أشهى طعماً وألذ مذاقاً » وسرعان ما اختفى مغنينا الصغير بين فكيها .

وكان كريلوف يعتقد أن المبادئ السامية لا تثمر ثمرتها وتؤتى أكلها إذا قام بتنفيذها من لا يؤمنون بها ، فهم لا يجدون صعوبة فى تأويلها والإفلات من أحكامها ، وقد أوضح ذلك فى خرافته عن مؤتمر الوحوش

فقد سأل الذئب الأسد أن يوليه أمر الخراف ، وسعى له صديقه الثعلب عند زوجة الأسد باللفظ اللين والثناء الجم ، ولكن لما كانت سمعة الذئب مريبة سيئة فقد رؤى أن تدعى رعية الملك إلى مؤتمر للنظر فى الأمر منعاً للأقاويل السيئة والإشاعات الكثيرة ، وحضرت الوحوش جميعها ، وعرض عليها الأمر وأخذت الأصوات ، وروعى فى أخذها مقام معطى الصوت ومكانته ، فلم يرتفع صوت واحد بالمعارضة فى اختيار الذئب ، ولم تقل كلمة تعوق إناطة الولاية به ، ولذا قرر المؤتمر بالإجماع اختياره ، ولكن أين كان الخراف ! ولماذا لم يرتفع لهم صوت ولم تسمع منهم كلمة ! لقد استدعى الكثير منهم ولكنهم فى النهاية أهمل أمرهم ، وتركوا وشأنهم ، وقد كانوا هم أول من يجب الاهتمام بمعرفة رأيه والحصول على موافقته !

وتناول كريلوف فى خرافاته الحماقات الإنسانية السائدة فى كل

العصور ، والسخافات البشرية العامة ، من ذلك مسألة محاولة الإنسان التنصل من عيوبه وذنوبه وأخطائه ، والحرص على إلقاء تبعتها على الغير وبخاصة ذلك المخلوق البائس التعس المسمى « الشيطان » وقد روى كريلوف هذه الخرافة ليبين رأيه وعنوانها « افتراء » وهو يقول فيها إنه في بعض بلاد الشرق الأقصى كان يعيش أحد البراهمة ، وكان فقيهاً باقراً ، ولكنه برغم ذلك كان سيء السيرة والسريرة، وحتى البراهمة فيهم البراهمى الصالح الصادق ، وفيهم البرهمى الكاذب الدعى ، وكان يضايقه من زعيم الطائفة البراهمية تشدده وفرط إخلاصه ويقظته ، فلم يكن أحد من الطائفة يجترىء على الاستهانة بأصول العقيدة وتقاليد الطائفة ، وجاء يوم من أيام الصيام عند البراهمة ، ولم يكن صاحبنا يستطيع أن يصبر على آلام الحرمان، فاستحضر بيضة من بيض الدجاج ، ولما مضى موهن من الليل أشعل شمعة وأخذ يدنيها من البيضة لينضجها ، وسره أن يتغفل الشيخ الأكبر ويخدعه، ولكن الشيخ كان ساهراً يتهجد ، فأحس الحركة ، ولمح الضوء الضئيل ، وأقبل خفية ليتبين جلية الأمر ، ولما فاجأ البراهمى الزائف قال له « لقد انكشف أمرك يا صديقى الملتحى ولن تخدعنا بعد اليوم » وأدرك البراهمى عظيم ذنبه ، وكبير جرمه ، ولكنه لم يجد سبيلاً للإنكار فقد كان الدليل قائماً ، والبرهان واضحاً فقال « سامحنى أيها الأب الصالح ، واغفر لى ذنبى فقد كدت أنكر نفسى ، ولقد استغوانى الشيطان ، وأغرانى بارتكاب المحظور ، وزين لى أكل البيض » وهنا انبعث صوت الشيطان من أحد

أركان الحجرة وهو يقول « ألا تخجل أيها الرجل ، إنكم معشر البشر تلقون علينا تبعة ذنوبكم وجرائمكم ، على حين أننا نحن الشياطين نتعلم منكم فى كل يوم أشياء جديدة ، وأنا لم أكن أعلم حتى اليوم أن البيضة يمكن إنضاجها على الشمعة ».

ومن خرافاته البديعة خرافة « النسر والعنكبوت » وقد وصف فيها تعلق العاجزين الخاملين بمناكب العظماء البارزين ، ويقول فيها « إن النسر حلق فى أعالى الفضاء ، ومر فى طيرانه فوق قمم جبال القوقاز ، ثم حط على شجرة أرز قديمة العهد ، وأخذ يجيل الطرف فى المنظر البديع الممتد أمام عينيه ، وكان يشرف من عليائه على الغابات المائجة بالخضرة ، والأنهار الملتوية المتعرجة ، والمراعى الواسعة والبرارى الفيحاء ، وحمد الله الذى منح جناحيه القوة التى تمكنه من بلوغ هذه الأعالى السامقة ، والتحليق فوق تلك المرتفعات الشامخة ، ومشاهدة روائع الطبيعة ، وجمال الكون ، وسمعه العنكبوت وهو يردد الحمد والشكر ، ويتحدث بنعمة الله عليه ، فقال له « لست وحدك ياصديقى الذى تفرد بالتحليق فى الأعالى وارتقاء الذرى الرفيعة ، وهأنذا جالس فى مكان لا يقل ارتفاعاً وسمواً عن مكانك » وحول النسر بصره نحو الناحية التى أقبل منها الصوت فلمح العنكبوت متعلقاً بأحد أغصان الشجرة الفارعة وقد أخذ يمد نسيجه وينصب شباكه كأنه يحاول أن يسد مطلع الشمس ، فقال له النسر « ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، وتجاوزت حدود قدرتك ، ولا طاقة

لك على تسلق هذه الأعالى الصاعدة ، وليس لك أجنحة تطير بها ، ومن المؤكد أنك لم تأت إلى هنا زاحفاً ، وأنا لا أجترئ على مثل ما أقدمت عليه ، فخبرنى كيف وصلت إلى هنا »

« الأمر هين لقد تعلقت بجناحيك ! فأنت الذى حملتنى إلى هنا ! وقد استمسكت بذيلك ، ولكنى أستطيع الاعتماد على نفسى ، ولست فى حاجة إليك فلا تتأبه على وتواضع فى حديثك معى ! » ولم يكد ينبس بهذه الكلمات الأخيرة حتى هبت عاصفة سريعة هوجاء طاحت بصاحبنا الفخور المتعالى ، وألقت به إلى حضيض الوادى ، وهذه خاتمة المغرورين الذين يسيرون فى ركاب العظماء ، ثم ينتفخون وينسون عجزهم ، وصغر همتهم ويسلكون أنفسهم فى عداد العظماء والأعيان حتى تحين الظروف التى تكشف ضعفهم ، وتفضح عجزهم وقصورهم .

وفى خرافة « البركة والنهر » يصف الفرق بين الحياة الخصبة المنتجة والحياة البليدة الخاملة العقيمة ، ويقول فيها « جاورت بركة نهراً عظيماً ، وقالت له يوماً « كلما أبصرتك رأيتك جم الحركة ، كثير النشاط ، دائم التدفق والجرى ، لا تريح ولا تستريح ، وإخالك قد مسك اللغوب واستنفدت قواك ! وفضلا عن ذلك فإنى كلما تأملت مسيرك رأيت السفن المشحونة بالأحمال الثقيلة والأطواف العديدة والزوارق والقوارب الكثيرة تشق عبابك وتحملها متون أمواجك ، فمتى تسأم هذه الحياة الراتبة المملة ؟ إنى أوثر أن تغيض مياهى على أن أحتمل مثل هذا ؟ أتستطيع أن ترينى

حياة وادعة هادئة مثل حياتى ؟ وأنا أسلّم بأن أفراداً قلائل يعرفوننى، وأن اسمى لم يكتب فى المصور الجغرافى ولم يقرع الأسماع ويملأ البقاع، ولكن هل المجد والشهرة من الأشياء التى تسر القلب، وتقر بها العين ؟ فأنا أنعم فى ظلال الراحة، وأعيش رضية البال، هانئة خلية، لا يعكر صفو مياهى مجاديف القوارب، ولا مرور السفن، وقل أن تخفق فوق صدرى ورقة ذابلة من أوراق الأشجار، وأنا فى أمن من عصف الرياح، وطوارق الهموم، ولم يتح لأحد ما أتيح لى من الحظ الحسن، والعيش الرغيد، وجميع من حولى يبذلون الجهد، ويتجشمون الأهوال، وأنا استمتع بالهدوء والاستقرار، وأحلم الأحلام الفلسفية »

فأجابها النهر « من كان فى مثل تضلعك من الفلسفة لا يجهل أن الماء لا يحتفظ بصفائه ونقائه إلا إذا كان جارياً متدفقاً، ولئن كنت قد أصبحت نهراً عظيماً ضافى الأمواج طماح العباب فإنى لم أبلغ ذلك بالتمنى والأحلام، وإنما باقتحام الأخطار، والضرب فى صدور الصعاب، وما أبذل من جهد وما أقوم به من حركة يزيد مياهى غزارة وصفاء ويحمل اليمن إلى أرجاء العالم، ويفيض الخير والبركات، ويذيع فضلى، ويعلى شأنى بين الناس، ويكسبنى السمعة الحسنة، والذكر الباقى، وربما مد فى عمرى قروناً أظل خلالها أخصب الجديب، وأقرب البعيد، على حين يكون اسمك قد نسيه الناس وأصبح نكرة غير معروف »

وقد تحققت نبوءة النهر، فهو لا يزال يجرى فى وقار وجلال رغم علو

السن وقدم العهد ، أما البركة فقد ضحل ماؤها وطحاب، واستأسد فيها النبت واغلولب ، وجفت وذهب أثرها ، وهكذا من يبخل بفضله يستغن عنه ويذم ، ويعلوه الصدأ ويدب فيه البلى».

وهو يضرب للغنى الذى ينفق المال فى غير وجهه مثل السحابة الوطفاء التى مرت فوق أرض قد تكشفت وصوح نبتها وأمحلت ولم ينهل ماء السحابة ليروى النبت الذى جف وييبس بقطرة واحدة ، ولما أشرفت على البحر اللجى الملتطم الأمواج استهلت بوادرها ، وفاخرت الجبل الشامخ بكرمها الواسع وعطائها العميم ، فأجابها الجبل « ما أراك فعلت شيئاً يستأهل الفخر ويستحق الثناء ، فليس البحر فى حاجة إلى ودقك المنهل ومائك الغزير ، وكان الأخلق بك أن تروى الحقول والمزارع لتجنبى البلاد خطر المجاعة وشر المحل والجدوبة » .

وأختم الحديث عنه بهذه الخرافة عن المتهوس المغرور المدعو « العصفور الصغير» وكأنه كان فيها ينظر بعين الغيب إلى ذلك الزعيم الإيطالى الراحل « موسولينى » الذى أوحشتنا جعجعته وخطبه المدفعية ، ويقول فيها كريلوف « أبحر العصفور الصغير إلى الشاطىء وأعلن أنه مصمم على أن يحرق البحر ! واستهول الناس الخبر ، واجتمعت الطيور والوحوش لترى كيف يحرق البحر ويبتلعه اللهب وتفنيه النار ، وأقبل قوم بالملاعق الفضية والصحاف ليستمتعوا بأكل السمك المشوى وشرب الحساء المرىء، وأرجأت الصحف مواعيد صدورها ترقباً لأخبار هذا الحادث الفذ العظيم ،

وأرسلت مخبريها إلى شواطىء البحر ليوافوها بأحدث الأنباء ، وأخذ القوم يتهامسون من الحين إلى الحين ، وهم يتوقعون فى كل لحظة أن يروا النار الموقدة واللهب المتعالى ، وطال الانتظار ولم يحدث شىء ، وعاد بطلنا الصغير أدراجه إلى عشه ليدارى خيبته ، فقد ملأ الدنيا بأنه سيحرق البحر حتى استغاث الصم من إعلانه ، وعلق كريلوف على هـذه الخرافة بقوله « لا يجمل بالإنسان أن يفخر بأعمال لم تتم » .

و بعد فهذه أمثله منوعة اخترتها من مجموعة خرافات كريلوف التى ترجمها إلى الإنجليزية الأستاذ برنارد پارز الواسع الاطلاع فى الأدب الروسى والخبير بأحوال روسيا السياسية وماضيها وحاضرها ، وقد حاولت فى الاختيار أن أبين جوانب تفكير كريلوف المختلفة ، وأكشف بعض نواحى معرفته المستفيضة بالنفس الإنسانية وحكمته الصادقة العميقة .

وداع ترجنيف

(قضى الكاتب الروائى الروسى الكبير إيڤان ترجنيف فترات طويلة من حياته مقيماً فى فرنسا ، واجتمع بكبار ممثلى الأدب والفكر الفرنسى فى عصره ، وتوثقت العلاقات بينه و بينهم ، فلما مات رثاه صديقه الكاتب الفيلسوف إرنست رينان بهذه الكلمة) .

لا يرحلن عنا بدون كلمة وداع هذا التابوت الذى يرد إلى وطنه ضيف العبقرية من كان من حظنا لمدة سنوات طويلة أن نعرفه ونحبه،وسيكشف لكم يوماً جهبذ من جهابذة الحكم على مبتكرات الخيال عن سر تلك المؤلفات الشائقة التى راقت أهل هذا القرن ، ولقد كان ترجنيف كاتباً كبيراً ، وكان فوق كل شىء رجلاً عظيماً ،وسأقصر الحديث على شخصيته كما تراءت لى فى خلواتنا العذبة .

لقد حبا ترجنيف بأنبل المواهب هذا القانون الغامض الخفى الذى يفرض لكل إنسان وظيفته فى الحياة ، فقد ولد غير فردى ، ولم يكن عقله عقل إنسان قد ميزته الطبيعة ، و إنما كان إلى حد ما عقل قوم بأسرهم ، ولقد عاش قبل مولده آلاف السنين ، وأتلفت فى أعماق قلبه حلقات غير متناهية من الأحلام ، ولم أر قبله رجلاً قد حل فيه شعب برمته إلى هذا الحد ، كانت تحيا فيه دنيا وتنطق عن لسانه ، وقد رُد فيه إلى الحياة

أجيال من أسلافه الموتى الصامتين فى رقاد الدهور وأفصحوا عما خالجهم .

وروح الجماعات هى النبع الذى تفيض منه جلائل الأعمال ، ولكن الجماعات لا صوت لها ، وهى تشعر وتحس، ولكنها تتعثر فى الإبانة والأداء، ولا بد لها من مفسر ونبى ليترجم عما فى نفسها . فمن أى صنف من صنوف الرجال هذا النبى ؟ ومن يتحدث عن تلك الآلام التى ينكرها من تقتضى مصلحتهم السكوت عنها وغض الطرف عن رؤيتها ؟ تلك الأشواق واللواعج الخفية التى تشوب صفاء فردوس التفاؤل الذى ينعم فى ظلاله الراضون القانعون . والرجل العظيم حينما يكون فى الوقت نفسه عبقرياً لا معدى له عن أن يكون قوى الشعور، ولهذا السبب يكون الرجل العظيم أقل الناس نصيباً من الحرية ، فهو لا يفعل ما يشاء ، ولا يقول ما يريد ، وإنما الله هو الذى ينطق عن لسانه ، وعشرة قرون مليئة بالأحزان حافلة بالآمال تستأثر به وتسيطر عليه ، وقد يحدث فى بعض الأوقات أنه يحاول أن يستنزل اللعنة فيلتمس البركة ، وذلك لأن لسانه ليس طوع أمره ، وإنما الروح هى التى تنفخ فيه وتملى عليه .

وإنه لما يشرف ذلك الشعب السلافى العظيم الذى كان ظهوره على مسرح الدنيا من المظاهر غير المنتظرة أن يصوره فى مستهل أمره مثل هذا الأستاذ المهذب الكامل ، ولم تُكشف خفايا وعى غامض وهو مع ذلك متناقض بمثل هذا النفاذ الرائع ، ولقد كان ذلك كذلك لأن ترجنيف كان يشعر ، وكان فى الوقت نفسه يلاحظ نفسه وهو يشعر ، وكان جزءاً من

الشعب وفى الوقت نفسه كان من الصفوة المختارة ، ولقد كان حساساً كالمرأة و بعيداً عن التأثر بالعواطف مثل المشرح ، كان كالفيلسوف ليس للأوهام سلطان على عقله، وكان فيه رقة قلب الطفل، فما أسعد هذا الشعب الذى أتيح له عند دخوله الحياة الفكرية أن تمثله مثل هذه البدائع الفنية الجامعة بين البساطة والعمق ، و بين الواقعية والصوفية ! وحينما يقدم لنا المستقبل المقدار الوافى من المفاجآت التى تدخرها لنا هذه العبقرية السلافية العجيبة بإيمانها المضطرم و بداهتها العميقة وأفكارها الخاصة عن الحياة والموت وحاجتها إلى الاستشهاد وظمئها إلى المثل الأعلى ستكون صور ترجنيف وثائق لا تقدر قيمتها ، وستكون إلى حد ما كصورة رجل عبقرى فى طفولته إذا استطعنا الحصول عليها ، ولقد عرف ترجنيف خطورة موقفه باعتباره معبراً عن أسرة كبيرة من أسر الإنسانية ، وكان يشعر بأن فى كفالته أرواحاً ، ولأنه كان رجلاً أميناً كان يزن كل كلمة ، وكان يرجف لما قاله ولما لم يقل عنه شيئاً .

وهكذا كانت رسالته رسالة سلام ، وكان كالله فى سفر أيوب « ينشر السلام فى البقاع العالية » وما كان فى الغير سبباً للخلاف صار فيه مبدأ التوافق والاتساق ، وفى صدره الرحب كانت تصطلح المتناقضات ، وكان فنه الساحر ينتزع السلاح من الكراهة والنقمة ، ولذا صار مفخرة عامة لمدارس بينها الكثير من اختلاف الآراء ، ولقد وجد فيه وحدته شعب عظيم مصدوع الوحدة من جراء عظمته ، فيا أيها الأخوة المختلفون

الذين فرقت بينهم الأساليب المختلفة فى فهم المثل الأعلى تعالوا جميعاً إلى قبره ، كل منكم له الحق فى أن يحبه لأنه كان لكم جميعاً ، وكان لكل منكم مكانة فى قلبه ، و إنها لمنقبة يمتاز بها العبقرى فما أخلقها بالإعجاب! والجوانب البغيضة فى الأشياء ليست موجودة بالقياس إليه ، ففيه تتفق المتناقضات ، والفرق المتنافرة المتدابرة تجتمع تحت لواء واحد للثناء عليه والإعجاب به ، وفى المستوى الذى ينقلنا إليه تفقد سمها الألفاظ التى تثير غضب العامى الفظ ، والعبقرية تعمل فى يوم واحد ما يستغرق عمله قروناً ، فهى تخلق جواً أسمى للسلام يجد فيه هؤلاء الذين كانوا أعداء مختلفين أنهم فى الحقيقة كانوا متعاونين متساندين ، وهى تبدأ عهد التسامح العظيم حينما يرقد هؤلاء الذين حاربوا فى حومة التقدم جنباً إلى جنب متصافحى الأيدى

والواقع أن هناك ما هو أسمى من الشعب ألا وهو الإنسانية أو إذا شئت العقل ، ولقد كان ترجنيف من شعب بطريقة شعوره وتصويره ، ولكنه كانت تربطه بالإنسانية فلسفة عالية تنظر بعين جريئة إلى حالات الوجود الإنسانى وتبحث وراء الحقيقة من غير تحيز ولا تعصب ، وقد اتجهت به هذه الفلسفة إلى الحنان والوداعة والفرح بالحياة والعطف على إخوانه البشر ولا سيما المظلومين المضطهدين ، وكان يحب الإنسانية البائسة حباً جماً تلك الإنسانية الضالة فى أغلب الأوقات ولكن التى كثيراً ما يخونها قادتها ، وكان يكبر حركتها التلقائية إلى الحق والاستقامة ، ولم يرد أن يستمتع بأوهامها ولم يكن به رغبة فى أن يطيل الشكوى منها ، ولم يكن من

طبعه السخرية بالمعذبين ، ولم يسد طريقه الخداع ، وكان مثل الكون يبدأ آلاف المرات عمل الشيء الذى لم يتم ، وكان يعلم علماً ليس بالظن أن العدالة تستطيع أن تنتظر وأن كل شيء فى النهاية سيعود إليها ، وكانت كلماته كلمات الحياة الخالدة ، كلمات السلام والعدل والحب والحرية .

فالوداع إذاً أيها الصديق العظيم العزيز ، ولئن بعدت عنا فإنما للتراب تجاليدك ، أما الذى لا يموت منك — صورتك الروحية — فإنها ستظل معنا ، وعسى أن يكون تابوتك لهؤلاء الذين جاءوا ليقبلوه عربون حب لإيمان واحد بالتقدم الحر ، وحينما تستقر فى ثرى وطنك فعسى أن تلم بهؤلاء الذين يسعون إلى قبرك ذكرى وداد للأرض البعيدة التى وجدت فيها قلوباً كثيرة تنبض بحبك وتعى حكمتك .

شك أناتول فرانس

كان أناتول فرانس أقدر كتاب فرنسا وأبعدهم شهرة فى الربع الأول من القرن العشرين ، وقد أمتاز أدبه بخير الصفات التى عرف بها الأدب الفرنسى بوجه عام ، وهى دقة التعبير وسلاسته ، ووضوحه وإشراقه ، مع رشاقة اللمسات ، والتزام الاعتدال ، ومجافاة الغلو والإسراف ، وأناتول فرانس ساخر بارع ، يتخذ سخره قالب البساطة والتواضع ، فهو لا ينكر الأشياء فى عنف ، ولا ينتقص أحداً فى جفاء وشدة ، وإنما يبتسم ابتسامة خفية مهذبة ، ويتحدث فى رفق ولين ، وهو واسع الاطلاع ، غزير المعرفة وكان لايمل قراءة التاريخ ، ولا يكل من الغوص فى أعماقه .

ولم يكن أناتول فرانس من المجاهدين لأجل المثل العليا ، أو من الباحثين الذين يعذبون أنفسهم ويجورون عليها ، وإنما كان مفكراً متشككاً ميالاً إلى الاستمتاع بالحياة وأخذها كما هى فى يسر وسهولة ، وهو يسخر من العلماء والفلاسفة والشعراء ورجال الدين سخرية رقيقة مهذبة ، ويكره المتعصبين المتشددين ، ولكنه لا يعتدى ولا يهاجم فى صخب وعنف ، ففى روايته الممتعة عن جزيرة طائر البطريق يسخر بماضى بلاده وأحداثها التاريخية ونظمها السياسية والاجتماعية سخرية خفية المدب ، بعيدة المغزى ، ولكنها خالية من المرارة والعنف والقسوة التى تطالع

القارئ من وراء سخرية الكاتب البريطانى الكبير سويفت فى كتابه القيم الذائع الشهرة « رحلات جلفر » فسويفت مهاجم شديد الشكيمة ، قوى المراس ، وأناتول فرانس دمث الأخلاق ، رقيق الحاشية ، ومن أجل هذا السبب ربما كانت سخريته أقوى وأفعل ، وأبلغ وأقتل ، وسخرية سويفت سخرية رجل ضاق ذرعاً بالإنسانية وسخافاتها وحماقاتها ، واستقذرها ، وغثيت منها نفسه ، أما سخرية أناتول فرانس فهى سخرية رجل قد طاف بكل عصور التاريخ ، وعاش فى مختلف أجواء الإنسانية ، ورأى الإنسان فى شتى مراحل تاريخه وأدوار تطوره مخدوعاً مضللاً فعلمه ذلك الاعتدال والسجاحة ، وسعة الصدر ، ورحابة الأفق ، والشك حتى فى الشك نفسه ، وفتح عينيه على تلك الحقيقة الكبرى التى قد يذهلنا عنها الغرور والسخف وتهافت التفكير ، وهى أننا جميعاً جهلاء لا ندرى شيئاً ، ونتصادم فى الحنادس ، كما يقول أبو العلاء ، وحياتنا فى هذه الرحلة الدنيوية قصيرة المدى ، وقد تثيرنا الطلعة ، وتشوقنا المعرفة ، ولكننا لسوء الحظ نقضى نحبنا قبل أن نعرف شيئاً معرفة حقيقة صادقة .

وأدب أناتول فرانس حافل منوع كثير الموضوعات ، سرى الأفكار ، شائق الملاحظات ، لامع النظرات ، وهو لا يتعب قارئه ، ولا يكلفه شططاً ، ولا يتعالم عليه ، ولا يدل بواسع معرفته ، وعريض خبرته ، بل هو من سماحة النفس ورجاحة العقل بحيث لا يظهر تصنعه للتواضع

والاعتدال ، وليس معنى ذلك أنه لا يتناول أدق المشكلات وأعوص الموضوعات ، وإنما هو يتناولها بذكاء خارق ، واستاذية بارعة ، وسخرية نافذة تلمس الصميم ، وتصل إلى الاعماق ، ولكنها فى الوقت نفسه تتحاشى الثقوب ومنافذ المجادلات والمشاحنات ، وقد استعان على مغالبة التشاؤم الذى يتبع الشك بالسخرية الباسمة والعطف الشامل ، ففلسفته مزيج من السخرية والرحمة ، وهو يحتقر بنى الإنسان ولكنه يحبهم ويعذرهم ، ويرى بعينه البصيرة ضعفهم وخستهم ، ولكنه يؤمل فيهم خيراً ، ويراهم عنوان الحياة ، وموطن القداسة فى الوجود .

وهو يعتبر ابن رينان الروحى ومتمم مذهبه ورسالته ، وهو يشبه رينان فى أسلوبه وسخريته ، وفى تردده وشكه ، وشك أناتول فرانس يلقى ظلاً من الريبة على كل شىء ، وهو يقول بإننا لا ينبغى أن نثق بأكثر المظاهر لأنها ليست فى حقيقتها كما تبدو لنا ، وقد ضمن آراءه روايات وقصصاً قصيرة ، وفصولاً فى النقد موفقة السرد ، وضاءة الحكمة ، ولا تراد رواياته فى الأغاب لما بها من تحليل العواطف ، وتصوير الأخلاق والعادات ، وإنما تقرأ لما يدخله فيها من طريف الأفكار ، وناضج الآراء .

وقبل أن أختم هذه الكلمة القصيرة عن هذا الكاتب العظيم أحب أن أشير إلى موقفه النبيل من قضية دريفوس المعروفة ، فقد دل على أن الرجل كان على شكه وسخريته له ضمير اجتماعى يقظ يذكره أن هذه الدنيا ملأى بالمكاره والشرور والقسوة والوحشية ، وأن من الواجبات

والفرائض أن نجاهدفيها لترجيح كفة الخير على الشر ، والعقل على الجهالة، والحق على الباطل ،وقد قام أناتول فرانس برسالة ضميره الحى على الأسلوب الذى يلائم طبعه ، ويرضى ملكاته العقلية ، فلم ينسه حبه للجمال وولعه بالاستمتاع واجبه نحو أخوانه البشر ، وإلى القارئ بعض مختارات من أدبه تحريت اختيارها من كتابين لعلهما أدل كتبه على فلسفته واتجاه تفكيره وهما « حديقة أبيقور » و « آراء چيروم كوانيار » .

القراءة والتمثيل

لا أحسب أن تلاقى ألف ومائتى شخص لمشاهدة رواية تمثيلية يكوّن بضرورة الحال جماعة ملهمة بالحكمة التى لا يأتيها الباطل ولا تخطىء ، ومع ذلك فإن الجمهور — كما يلوح لى — يحمل معه إلى المسرح من بساطة القلب و إخلاص العقل مايجعل للمشاعر التى يجربها قيمة خاصة ،فالكثيرون ممن لا يستطيعون أن يكونوا لأنفسهم فكرة عن أى شىء قرؤه فى وسعهم أن يذكروا ملخصاً حسناً لما شاهدوا تمثيله على المسرح ، وأنت حينما تقرأ كتاباً تقرؤه بالطريقة التى تروقك ، وتجد فيه أو توجد فيه ما تشاء ، فالكتاب يترك كل شىء للخيال ، ولذا فإن العقول العادية التى لم تثقف فى الأغلب لا تجد فى الكتب سوى القليل من المتعة ، والمسرح يختلف عن ذلك ، فهو يضع كل شىء إزاء العين ، ويستغنى عن مساعدة الخيال ، ولهذا السبب يرضى الأكثرية ، ولا يميل إليه كثيرا ذوو العقول المفكرة

النزاعة إلى التأمل ، وأمثال هؤلاء يقدرون الموقف أو الفكرة بما تمده فى أنفسهم من آفاق التفكير ، وما تثيره فى عقولهم من الأصداء العذبة الشجية، والمسرح لا يحفز أخيلتهم ، ولا يجدون فيه سوى متاع « منفعل » يؤثرون عليه متاع القراءة « الفعال » .

وما هو الكتاب ؟ إنه فى جوهره علامات صغيرة متتابعة ، وعلى القارئ أن يستحضر لنفسه الشكول والألوان والعواطف المطابقة لهذه العلامات ، ولذا يتوقف عليه هل الكتاب فاتر أو لامع ومتقد العاطفة أو بارد كالثلج أو — إذا فضلت أن أذكر ذلك فى صورة أخرى — كل كلمة فى كتاب هى بنان مسحور يحرك ألياف ذهننا كما ترتعش أوتار المزهر ، وبذلك يثير النغم فى تجويفة أرواحنا ، ولا تغنى هنا براعة العازف وإلهامه فإن الصوت الذى يثيره متوقف على طبيعة الأوتار فى داخل نفوسنا ، وليس الأمر كذلك فى المسرح ، فالأخيلة الحية تحل هناك محل العلامات الصغيرة السوداء ، وبدلاً من الحروف الدقيقة المطبوعة التى تفسح مجال التخمين نرى رجالاً ونساء لا يحفهم خفاء ولا غموض ، فكل شىء فى مكانه المحدد المقدور ، ومن ثم فإن التأثرات العديدة التى تقوم بنفوس المشاهدين على اختلافهم تتباين فى أضيق الحدود التى تطابق اختلاف وجهات النظر الإنسانية المحتوم ، ونشاهد فى تمثيل المسرحيات — إذا لم تتدخل الخلافات السياسية أو الأدبية — كيف ينشأ بين الحاضرين التعاطف الصادق الخالص ، وإذا تذكرنا — علاوة على ذلك — أن فن التمثيل هو

ألصق الفنون الأخرى بالحياة فلا بد أن يتضح لنا أنه أقر بها إلى فهمنا وتقديرنا، ونستخلص من ذلك أنه الوحيد من بين سائر الفنون الأكثر تجاوباً مع الجمهور ، وأن الجمهور أوثق مايكون برأيه فيه .

إلى جبريل سياليز

لا أستطيع أن أقول هل دنيانا هى أردأ دنيا ممكنة . وأعتقد أنه من الملق المفرط أن نمنحها التفوق ولو كان هذا التفوق فى الشر ، وما فى وسعنا تصوره عن العوالم الأخرى جد قليل ، والفلك الطبيعى لا يوافينا بمعلومات موفورة الدقة عن أحوال الحياة حتى فى هذه الكواكب السيارة الأقرب منا ، وكل ما نعلمه هو أن الزهرة والمريخ فيهما مشابه كثيرة من الأرض، ونفس هذه المشابهة ضمان كاف لاعتقادنا بأن الشر غالب هناك لغلبته هنا ، وأن دنيانا هذه قطر من أقطار دولته الشاسعة ، وليس هناك ما يدعونا إلى أن نفرض أن الحياة أحسن على سطح تلك العوالم الكبيرة الضخمة مثل المشترى وزحل وأرانوس ونبتون التى تنزلق فى هدوء خلال مخترقات الفضاء حيث أخذت الشمس تفقد قسماً من حرارتها وضوئها ، ومن يستطيع أن يخبرنا أى نوع من المخلوقات تسكن هذه العوالم المتلفعة بالأبخرة الكثيفة السريعة التحول ؟ وإذا حكمنا بما توجبه المشابهة فإننا لا نستطيع إلا أن نرى أن نظامنا الشمسى بأسره هو جهنم مترامية الأطراف تولد فيها الحياة الحيوانية لتشقى وتموت ، ولا نستطيع أن نعزى أنفسنا بتوهمنا أن النجوم

الثوابت ربما كانت ترسل أشعتها إلى كواكب أسعد منا حالاً ، فإن النجوم الثابتة بينها و بين شمسنا من المشابهة ما يحول دون ذلك ، وقد حلل العلم الأشعة الضئيلة التى يستغرق إرسالها إلينا من تلك النجوم السنوات والقرون ، وقد أثبت تحليل هذا الضوء أن المواد التى تحترق على سطوحها هى نفسها المواد المتماوجة الموارة حول الفلك الذى ما زال منذ وجود الإنسان يبعث الضوء والدفء فى حياته المليئة بالشقاء والسخف والألم ، وهذه المشابهة وحدها كافية لتفعم نفسى باجتواء الكون .

وهذا التجانس فى التركيب الكيميائى يجعلنى أتوقع توقعاً مؤكداً رتابة صارمة فى أحوال الروح والجسد سائدة خلال امتداد الكون الذى لا أستطيع تصوره ، وأكبر ظنى أن المخلوقات المفكرة جميعها فى عالم سيريوس أو فى منظومة الفلك الطائر تحيا حياة بؤس وشقاء كخلائق هذه الأرض التى نعرفها ، ولكنكم قد تقولون إن ذلك كله لا يكون الكون ! نعم وعندى من الارتياب النفاذ ما يجعلنى أرى أنكم على حق ، وأنا أشعر بأن هذه العوالم الضخمة ليست شيئاً ، والواقع أنى واثق من أنه إذا كان هناك شىء فإن ذلك الشىء هو غير ما نراه .

نعم إننى أشعر بأننا نعيش محفوفين بالخيالات والظلال ، وأن نظرتنا إلى الكون إن هى إلا أثر من آثار الكابوس الذى يعترض ذلك النوم القلق وهو حياتنا ، وهذا هو أفتك الضربات ، لأنه من الواضح أننا لا نستطيع معرفة شىء ، وأن الأشياء كلها تعمل على خداعنا ، وأن الطبيعة تعبث بجهلنا وعجزنا عبثاً قاسياً مراً .

متعة المجهول

أقوى المتع التى تلمس قلوبنا إثارة لعواطفنا هى متعة الغامض الخفى ، فالجمال المتكشف العارى ليس جمالاً ، وما نحبه أشد حب على الدوام هو المجهول ، وإن الوجود ليصبح غير محتمل لو حرمنا روقة الأحلام ، وخير هبات الحياة هى إشعارنا بشىء منفصل عنا لا يدركه التعبير ، والواقع يعيننا بقدر ما على تصور جانب من جوانب المثالى ، وربما كان هذا أهم مزاياه .

الطفلة الصغيرة

عرفت طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها تسع سنوات وإنى واثق من أنها أرجح عقلاً من الحكماء كلهم ، فلقد قالت لى فى التو واللحظة : —

« إن الإنسان يرى فى الكتب ما لا يستطيع أن يراه فى الواقع ، لأنها جد بعيدة عنه أو لأنها قد ولى زمانها ، ولكن ما يراه الإنسان فى الكتب يراه سيئاً أو محزناً ، وأظن أنه يجب ألا تقرأ الأطفال كتباً ، ففى الدنيا أشياء كثيرة يروق النظر إليها ولم يرها الأطفال مثل البحيرات والجبال والأنهار والمدن والحقول والبحر والسفن والسماء والنجوم ! » .

إنى أشايعها على فكرها ، وإن لنا ساعة نعيشها فلماذا نتعب رؤوسنا بأشياء كثيرة ؟ ولم نحاول أن نعرف كل شىء ما دمنا نعلم أننا لن نعلم

شيئاً ؟ إننا نعيش فى الكتب أكثر مما نعيش فى الطبيعة ، وإننا لنشبه ذلك الأبله الذى ذكره بلنى الأصغر والذى ظل مكباً على قراءة أحد المؤلفين اليونانيين وبركان ڤيزوف يثور ويحيل خمس مدن رماداً على مقربة منه .

الاستسلام

ليس لنا من حيلة فى هذه الدنيا سوى الاستسلام للظروف ، ولكن النفوس النبيلة تعرف كيف تخلع على هذا الاستسلام اسم الرضا الجميل ، والأرواح السامية تستسلم فى فرح مقدس ، وهى ما تزال تجاهد فى غمرة الشك المؤلم والويل الغالب وتحت السماء الخاوية للإبقاء على فضائل المؤمن القديمة، وهى تؤمن بأن الإيمان لها ضربة لازم، وحب الإنسانية يدفىء قلوبها ، بل الأكثر من ذلك أنها تعنى عناية خالصة بتلك الفضيلة التى يضعها فقه الدين المسيحى بحكمته فوق سائر الفضائل لأنها تفترض وجودها وتحل محلها ، وهذه الفضيلة هى الأمل ، فلنعقد الأمل إذاً — لا بالإنسانية التى لم تستطع برغم ما بذلت من مجهود ضخم أن تمحو الشر من الدنيا — وإنما بهذه المخلوقات التى لا يتصورها عقلنا والتى ستنبعث من النوع البشرى كما ترقى الإنسان من الوحشية ، ولنحى باحترام وإجلال هذه المخلوقات التى سيجىء بها المستقبل ، ولنقم أملنا على الألم العام وعناء التمخض ، فإن التحول هو قانونهما المادى ، «وإنا لنشعر فى نفوسنا بوقع ذلك الألم الواهب الحياة ، فهو الدافع الذى يحفز الإنسانية فى طريقها إلى الكمال المقدس الذى لا محيد عنه ولا بد منه »

الحزن الفلسفى

طالما عبر عن الحزن الفلسفى بكلمات محزنة المغزى ، وكما أن المؤمنين السالكين الذين ترقوا إلى الدرجات العالية فى الكمال الأخلاقى يتذوقون بهجة الاستسلام فكذلك العالم العارف يغريه كون كل ما حوله مظهراً فارغاً وادعاءً باطلاً بأن يستقى من حياض ذلك الحزن الفلسفى ، وأن ينسى نفسه فى سبيل الاستمتاع بهذا اليأس الهادىء الوديع ، ومن ذاق مرة هذا الحزن النبيل العميق لا يرغب أن يستعيض عنه بكل المسرات الحمقاء والآمال التافهة التى تستهوى الدهماء والأوشاب ، وحتى الذين يعترضون على هذه الأفكار برغم جمالها الفنى ويرون فيها سماً للرجال والأمم قد يميلون إلى التخفيف من حدة كراهتهم إذا علموا أن فكرة الوهم العام وكون الأشياء لا استقرار لها قد أذاعها زينوفون فى عصر الفلسفة اليونانية الذهبى ، واطمأنت إليها فى أزهى عصور الحضارة أسمى النفوس وأهداها وأقواها إحساساً وهم ديموقريتس وأبيقور وجاسندى .

سير الزمن

الزمن وهو يغذ السير يجرح أو يقتل أحر عواطفنا وأرقها، وهو يطامن الإعجاب ويسلبه غذائيه الضروريين وهما الدهشة والاستغراب، وهو يقضى على الحب وسخافاته المستحبة ، ويهز قواعد اليقين والأمل ، ويعرى كل

براءة نامية من أزهارها وأوراقها ، وياليته يترك لنا العطف والرحمة حتى لا نكون فى شيخوختنا كالمحبوسين فى مقبرة .

والرحمة هى التى تديم علينا رجولتنا الحقة، فحذار من أن نتحول أحجاراً كالذين تحدوا الآلهة فى الأساطير القديمة ، ولنعطف على الضعفاء لأنهم يعانون الاضطهاد وعلى السعداء فى هذه الدنيا لأنه مكتوب « الويل لمن يضحك » ، ولنأخذ الجانب الصالح وهو أن نشقى مع الذين يعانون الشقاء ، ولنقل من أطراف الشفاه ومن القلب لضحايا الخطوب ما يقوله المسيحى الصالح لمريم « دعينى أقاسمك الهموم دعينى » .

الحياة والخير والشر

حينما نقول إن الحياة خير أو إن الحياة شر نقول باطلاً ولغواً ، والواجب قوله هو إن الحياة خير وشر معاً وفى الوقت نفسه ، لأننا لا نميز الخير من الشر إلا بها ، والحقيقة أن الحياة سارة ومحزنة ، ومحبوبة ومنفرة ، وعذبة ومرة ، وهى فى الواقع كل شىء ، وهى مثل ألعبان صديقنا فلوريان يراه أحد الناس أحمر اللون ويراه آخر أزرق اللون ، وكلاهما يراه كما هو حينما يكون أحمر اللون أو أخضره أو ملوناً بأى لون آخر ، وهذا طريق يؤدى بنا إلى الاتفاق ويوفق بين الفلاسفة الذين قد استحر بينهم الخلاف وأخذ كل منهم بتلابيب الآخر ، ولكننا قد جبلنا على أن نريد الآخرين أن يشعروا ويفكروا كما نشعر ونفكر ، ولسنا نطيق أن نرى جارنا مسروراً ونحن أنفسنا فى هم وحزن .

غرور الإنسان

لقد عرفت علماء فى بساطة الأطفال وتواضعهم، وفى كل يوم نلتقى جهلاء يحسبون أنفسهم محور الدنيا ، ومما يثير الأسف أن كلا منا يرى نفسه قطب الوجود ، وهو وهم يغشى الناس جميعاً ، ولم يبرأ منه كناس مفارق الطرق ، فعيناه تخبرانه بذلك ، فهو كلما أدار الطرف حوله رأى قبة السماء تحيط به من كل جانب ، وأنها قد جعلته مركز السماء والأرض ، وقد يهتز هذا الاعتقاد اهتزازاً قليلاً فى نفوس الرجال الذين فكروا تفكيراً عميقاً ، والتواضع شىء نادر بين العلماء ، وهو أندر بين الجهلاء .

قيادة الجماهير

الرجل الواثق بنفسه وبالدنيا جميعها هو الذى ستنحاز إليه الجماعة ، فالثقة بالنفس هى ما تصبو إليه الجماهير ، وهى لا تريد أن تسمع حججاً وبينات ، وإنما تريد أن تتلقى أوامر قاطعة ، والحجج والبينات تزعجها وتحيرها ، وهى بسيطة العقل ولا تفهم سوى البساطة ، فلا تقل لها كيف وماذا وإنما أوجز وقل لها « نعم » أو « لا »

التعصب

التعصب موجود فى كل العصور ، ولكل دين غلاته المتشددون ، ونحن جميعاً نزاعون إلى الإعجاب الذى لا يستند إلى أسباب تسوغه ، فإذا أحببنا شيئاً بدا لنا أن كل ما فيه حسن ، ويسؤنا أن يكشف لنا أحد عن أقدام أصنامنا الخزفية ، ويجد الناس أنه من الصعب العسير عليهم أن يتناولوا بالنقد اليسير معتقداتهم ، ومصدر إيمانهم ، وهذا خير لهم ، إننا لو أمعنا النظر فى المبادىء الأولية لما آمنا بشىء

التاريخ — محاورة (١)

وضع المسيو رومان ستة مجلدات على المنضدة

وقال « أريد منك يا مسيو بليزوه أن تبعث إلى بهذه الكتب ، فهنا كتاب « الأم والابن » و «مذكرات بلاط فرنسا » و «وصية ريشلييه» وسأكون شاكراً لك إذا أضفت إليها أى شىء جديد مما عسى أن يكون قد ورد إليك أخيراً من كتب التاريخ ، وبخاصة الكتب التى تتناول تاريخ فرنسا منذ وفاة هنرى الرابع ، فأنا معنى أشد عناية بالاطلاع على هذه الكتب جميعها »

فقال له أستاذى چيروم كوانيار « إنك على حق يا سيدى ، فكتب

---

(١) هذه المحاورة مختارة من كتاب آراء چيروم كوانيار وهو من أدل كتب أناتول فرانس على فلسفته ومنهج تفكيره .

التاريخ مليئة بالمادة السهلة الخفيفة الصالحة لتسلية الرجل الأمين ، والإنسان متأكد من أنه سيجد فيه طائفة كبيرة من القصص الشائقة » .

فأجابه المسيو رومان « ليس ما أنتظره من المؤرخين ياصاحب النيافة هو التسلية العارضة ، فالتاريخ دراسة جدية ، وإن اليأس ليملأ نفسى إذا وجدت الخيال ممتزجاً بالحقيقة ، وأنا أدرس الأعمال البشرية من حيث صلتها بسلوك الأمم ، وأبحث فى التاريخ عن مبادئ الحكم » .

فقال أستاذى كوانيار « لست أجهل ذلك ياسيدى ، ورسالتك عن « النظام الملكى » لها من الشهرة مايكفى ليجعلنا نعرف أنك قد تصورت مذهباً سياسياً مستخرجاً من التاريخ » .

فقال المسيو رومان « وبهذه الطريقة أصبحت أول من استخلص من التاريخ القواعد التى لايستطع السياسيون الانحراف عنها دون الاستهداف للخطر » .

« لقد رأيناك ياسيدى فى الصورة التى صدرت بها كتابك وأنت فى شكل مينرفا تقدم إلى ملك شاب المرآة التى ناولتها إياك الإلهة كليو وهى ترفرف بجناحيها فوق رأسك فى حجرة المطالعة المزدانة بالتماثيل النصفية والصور ، ولكن اسمح لى ياسيدى أن أذكر لك أن هذه الإلهة راوية قصص ، وأنها تقدم لك مرآة مزيفة ، ففى التاريخ حقائق قليلة ؛ والوقائع التى يتفق عليها المؤرخون هى الوقائع التى نحصل عليها من مصدر واحد ، والمؤرخون أينما يتلاقوا يناقض بعضهم البعض ، بل هناك ما هو أدهى ! فإننا نرى

أن فلافيوس يوسيفوس الذى صور الحوادث نفسها فى كتابه عن «العصور القديمة » وكتابه عن « حروب اليهود » يرويها بشكل مختلف فى كلا الكتابين ، وتيتاس ليفياس ليس سوى جامع خرافات ، وتاسيتاس وهو كاهنك وصاحب وحيك يخلف فى نفسى من الأثر ما يجعلنى أراه مخادعاً متجهماً يزدرى العالم جميعه تحت ستار التوقر والتزام الجد ، وإنى أحترم ثاثيادوس وپوليپياس وجويكشياردينى ، أما ميزيرى فإنه لايدرى ما يقول أكثر مما يدريه ڤيلاريه والأب ڤلى ، ولكنى أتهم المؤرخين فى حين أن التاريخ هو الذى يجب أن أهاجمه .

فما هو التاريخ ؟ إنه خليط من القصص التى ترمى إلى مغزى أخلاقى ، أو مجموعة من الأخبار والخطب البليغه تبعاً لقدرة المؤرخ فى الفلسفة أو فى الخطابة ، وقد تجد فيه فصولاً بليغة ، ولكن يلزم أن لانبحث عن الحق هنا لك لأن الحق يقوم على إظهار العلاقة الضرورية بين الأشياء ، والمؤرخ لايعرف كيف يوجد تلك العلاقة لأنه لايستطيع أن يقفو أثر سلسلة المسببات والأسباب ، ولا تنس أنه كل مرة يكون فيها سبب الواقعة التاريخية كامناً فى واقعة ليست تاريخية يعجز التاريخ عن رؤيته ، ولما كانت الوقائع التاريخية متصلة اتصالاً وثيقاً بالوقائع غير التاريخية فإنه يتبع ذلك أن الوقائع فى التاريخ ليست مرتبطة حسب نظامها الطبيعى ، وإنما يربط بعضها ببعض أفانين البيان ، وأسترعى نظرك إلى أن التمييز بين الوقائع التى تبدو فى التاريخ والوقائع التى يهملها تمييز متعمد مقصود ، وينشأ

من ذلك أن التاريخ بعيد عن أن يكون علماً ، لأن فى جوهره عيباً يقضى عليه بأن يظل فى فوضى الباطل ، وسينقصه دائماً التسلسل والتتابع ، وبدونهما لا يكون هناك معرفة صادقة ، ولسنا نستطيع أن نرسم صورة لمستقبل أمة قياساً على تاريخها السالف ، على حين أن خاصة العلم هو التكهن بما سيحدث كما نرى ذلك فى جداول حساب أوجه القمر والمد والجزر والخسوف والكسوف »

فبيّن المسيو رومان للأب كوانيار أنه لا يطلب فى التاريخ سوى الوقائع ، وهى وإن كانت مختلطة شيئاً ما وغير مؤكدة ومشوبة بالأخطاء ولكنها مع ذلك نفيسة للغاية بسبب موضوعها وهو الإنسان

وأضاف إلى ذلك قوله « أعرف كيف أن مدونات التاريخ الإنسانى قد عبث بها وامتزجت بالخرافة ، ولكن بالرغم من أن التسلسل المحتوم بين السبب والمسبب يخذلنا فى التاريخ فإنى أرى فيه نوعاً من القصد الذى قد يغيب عن نظر الإنسان ولكنه يعود فيجده مثل أطلال المعابد المدفون نصفها فى الرمل ، وهذا وحده لا تقدر قيمته عندى ، ويزين لى الأمل أن التاريخ فى المستقبل وقد تكون من مادة غزيرة واتبع فيه أسلوب منظم سيبارى فى الدقة العلوم الطبيعية »

فقال له أستاذى « لا تعتمد على ذلك ، فإن أكبر ظنى أن وفرة المذكرات الشخصية والمراسلات والسجلات المنظمة ستجعل عمل مؤرخ المستقبل أصعب وأشق ، فالمستر إيلوارد الذى أوقف حياته على دراسة

ثورة إنجلترا يؤكد لى أن مدة حياة رجل واحد لا تكفى لقراءة نصف ما كتب فى أثناء القلاقل والاضطرابات ، وهذا يذكرنى بحكاية فى هذا الموضوع رواها لى الأب بلانشيه ، وسأقصها عليك كما أتذكرها ، وآسف على أن الأب بلانشيه ليس هنا ليقصها عليك بنفسه لأنه حاضر الخاطر غمر البديهة .

وهذه هى الحكاية :

لما خلف الأمير الصغير زمير والده على عرش فارس استدعى علماء مملكته وقال لهم :

« لقد علمنى مؤدبى العلامة ذيب أن الملوك إذا استرشدوا بتجاريب الماضين قلت أغلاطهم ، ولذا صحت عندى الرغبة فى الاطلاع على تاريخ الأمم ، وإنى آمركم بوضع كتاب يشمل التاريخ العام . ولا تفرطوا فى شىء حتى يجىء الكتاب كاملاً »

فوعدته جماعة العلماء بتلبية طلبه ، ولما انصرفوا من حضرته شرعوا يؤلفون فوراً ، وبعد مضى عشرين عاماً مثلوا بين يدى الملك وقد تبعتهم قافلة مكونة من اثنى عشر جملاً كل منها يحمل خمسمائة مجلد ، ثم تقدم عريف الجماعة وسجد على أعتاب العرش وتكلم قائلاً :

« مولاى ، يتشرف علماء مملكتك بأن يضعوا عند قدميك التاريخ العام الذى جمعوه تنفيذاً لمشيئة جلالتكم ، وهو يدخل فى ستة آلاف مجلد ويتضمن كل ما تيسر جمعه عن عادات الأمم وتقلبات الدول ، وقد

أدمجنا فيه المدونات التاريخية القديمة التى لا تزال لحسن الحظ محفوظة ، وقد أتبعناها بشروحات وافية وتعليقات ضافية عن مواقع البلاد والتقاويم والعلاقات السياسية ، والمقدمة وحدها يحملها جمل ، والتعليقات والإضافات يرزح تحت عبئها جمل آخر »

فأجاب الملك :

« أيها السادة ، أشكر لكم ما تجشتم من عناء ، ولكنى جد مشغول بشؤون الملك ، وفضلاً عن ذلك قد تقدمت سنى فى غضون المدة التى توفرتم فيها على تأليف الكتاب ، وقد بلغت منتصف طريق الحياة كما يقول الشاعر الفارسى ، وحتى لو أوتيت بسطة فى العمر وامتداداً فى الأجل فلست آمل أن أجد وقتاً يكفى لقراءة مثل هذا التاريخ المطول ، وسيحفظ فى محفوظات الدولة ، فاحسنوا صنعاً بعمل ملخص له أكثر ملاءة لقصر الحياة البشرية »

فاشتغل علماء فارس عشرين سنة أخرى وحملوا إلى الملك فى نهايتها ألفاً وخمسمائة مجلد على ثلاثة جمال .

وتقدم عريفهم الدائم وقال بصوت واهن « ها هو يا مولاى كتابنا الجديد وفى اعتقادنا أننا لم نحذف شيئاً جوهرياً »

فأجاب الملك « قد يكون ذلك ؛ ولكننى لن أقرأه ، فقد علتنى الشيخوخة ، والكتب المطولة لا تلائم سنى ، فاختصروه ولا تطيلوا الغيبة »



فلم يتريثوا إلا قليلا حيث عادوا بعد عشرة أعوام يتبعهم فيل صغير يحمل خمسمائة مجلد .

وقال عريفهم الدائم « فى حسباننا أننا قد اختصرنا الكتاب اختصاراً مفيداً » فقال الملك « لم تختصروا الكتاب اختصاراً كافياً

إنى فى نهاية حياتى ، فاختصروا ثم اختصروا إذا كنتم تحرصون على أن أعرف تاريخ البشر قبل أن أموت »

وظهر عريفهم الدائم أمام باب الملك بعد خمس سنوات وهو يدب متوكئاً على عكازيه وقد أخذ بلجام جحش يحمل مجلداً ضخماً على ظهره

فقال له الحارس « إسرع فإن الملك يحتضر » والواقع أن الملك كان على فراش الموت فحول نظرته التى أخذت تبدو فيها علامات الموت إلى العالم وكتابه الضخم وقال متنهداً !

« سأموت إذاً دون أن أعرف تاريخ بنى الإنسان »

فأجابه العالم الذى كان مثله على أبواب الموت « مولاى سألخصه لك فى ثلاث كلمات « ولدوا وتألموا وماتوا ! »

وهكذا عرف ملك فارس تاريخ العالم فى مساء حياته »

أونامونو والعبقرية الإسبانية

لم يستطع الإسپانيون أن يغتفروا للكاتب الفرنسى تيوفيل جوتييه قوله « إن إفريقية تبتدئ من جبال البرانس » وحقيقة أن إسپانيا فى العصر الحديث ليست فى طليعة القوى السياسية أو الاقتصادية فى أوروبا ، ولكنها مع ذلك أمة ذات حضارة مجيدة ، وماض باهر ، وأثر بارز فى حياة أوربا الروحية . وعلى يد إسپانيا تم كشف أمريكا ، وهى حادثة من أروع الحوادث فى تاريخ أوروبا ، ويرى بعض المفكرين أنها أعظم حادثة فى تاريخ العالم بأسره منذ سقوط الدولة الرومانية ، ولم يكن ذلك الكشف هدية قدّمها الحظ ، وسمحت بها الأقدار ، وإنما كان آية من آيات اليقين الصادق ، وثمرة من ثمرات الخيال المبدع ، وقد تلاه عهد رحلات استطلاع ، وأسفار استكشاف ، يكوّن فى مجموعه أعظم سفر من أسفار المخاطرة والإقدام فى تاريخ البشرية ، ولا يزرى به ويقلل من بهائه ما علق به من غبار المطامع ، وأفاعيل القسوة ، وإراقة الدماء .

وعندما ننتقل من التاريخ إلى الأدب نجد أن عبقرية إسپانيا فى الأدب من العبقريات المنتجة الممتازة ، فإسپانيا تقاسم إنجلترة شرف السبق إلى إيجاد المسرح القومى ، وعصرها الذهبى فى الأدب يقارن بالعصر الإليزابيثي

عند الإنجليز ، وعهد لويز الرابع عشر عند الفرنسيين ، فهو غنى فى الشعر والرواية وسائر ضروب الإنتاج الأدبى ، وأضخم الأسماء وأسيرها فى الأدب الأوربى عامة هى أسماء شكسپير وسرڤانتيز ودانتى وجيتى .

ولا نزاع فى أن رواية « دون كيشوت » من أعظم الكتب التى ظهرت فى أى لغة من اللغات ، وأى عصر من العصور ، وقد كانت مرجعاً ووحياً لكثير مما كتب بعدها فى الرواية وغيرها من ألوان الأدب ، وأوفر الشخصيات المبتكرة فى الأدب نصيباً من الخلود هى شخصية هملت وفاوست ودون كيشوت ودون چيوان ، وسيبقى دون كيشوت ما بقى فى الإنسان عاطفة يثيرها حب العدالة والتعلق بالمثل الأعلى ، وسيخلد دون چيوان ما بقى حب المرأة متصرفاً بأهواء الرجال .

فإسپانيا إذاً قوة روحية يحسب لها حساب ويقام لها وزن ، على أنه يلاحظ أن ما قدمته إسپانيا للثقافة الأوربية فى عالم النظريات والمبادئ أقل شأناً ، وقد نبغ فى إسبانيا بعض العلماء والفلاسفة ، ولكنها لم تخرج عبقرية من الطراز الأول فى العلوم أو الفلسفة ، فليس عند الإسپانيين من يضارع نيوتن فى العلوم أو ديكارت فى الفلسفة ، ولم تظهر فى جنوب جبال البرانس حركة فلسفية ملحوظة أو نهضة علمية مأثورة ، ويعلل بعض مفكرى الإسپانيين ذلك بتغلغل الفردية فى نفوس الإسپانيين ، لأن تلك الفردية المتمادية تعوق تحول الأفكار الشخصية إلى مذاهب اجتماعية أو حركات فلسفية ، وإسپانيا لم تقدم شيئاً يذكر للتفكير المجرد والبحث العلمى ، والعقل الإسپانى بطبيعته قليل الإقبال على التجريدات ، ولا يستسيغ فى سهولة

ويسر التفكير النقى الخالص ، ودأبه سواء فى الأدب أو الفن أن يجعلهما وسيلة للحياة لأن الحياة فى رأيه أكبر وأجل من الفن والأدب ، وهو يعتمد على الاستجابة للقلب الإنسانى مباشرة أكثر مما يعتمد على الأسلوب ومذهب الإنشاء ، وفرط حبه للحياة يغريه بتجاهل الفضيلة ويبعده عن التعصب لها ، لأن الفضيلة جزء من الحياة ، والجزء مهما عظم شأنه أقل من الكل ، ولا يستحق من أجل ذلك رعاية خاصة ، ولذا لا تلمح فى الروايات التى جادت بها العبقرية الإسپانية تفضيلاً لأحد الأشخاص على الآخرين ، والجميع عندهم كما يقول المثل الإسپانى « أبناء الله » وهذه النزاهة الأدبية بادية فى كل الآثار العظيمة عند الإسپانيين فى الأدب والفن ، تطالعها فى كل صفحة من صفحات دون كيشوت ، وتلمحها فى كل صورة من صور ڤيلاسكيه .

والأدب الإسپانى يحاول أن يصف الإنسان من حيث هو إنسان مكون من لحم ودم وأعصاب وعظام ، ولا يطيق أن يحيله « فكرة » باقية أو يصيره « قالباً » متجدداً . والفرق بين عبقرية سرڤانتيز وعبقرية جيتى هو أن سرڤانتيز كان يعتمد على الحياة وحدها ، أما جيتى فإنه كان يسترشد بفلسفات وموازين أدبية وقواعد فنية يستمد منها ، ويستقى من منهلها . وأوروبا تنزع فى تفكيرها إلى « الموضوعية » وترغم الإنسان على أن يذيم أهواءه ، وينسرح من ذاتيته ، ليستطيع العقل أن يفهم الأشياء فهماً سليماً ، ويكون لها صورة صحيحة ، أما فى إسپانيا فإن الإنسان فى ذاته بقضه وقضيضه هو محور فلسفتها وأساس فنها وأدبها .

والعبقرية الإسپانية ضيقة المدى ، ولكنها عميقة مثرية ، وفكرة الموت لها فى الأدب الإسپانى كبير شأن ، لأن الأدب عندهم يدور حول الإنسان الفرد ، وهذا الإنسان الفرد هو تاج الخليقة وخلاصة الوجود ، ولكن الموت يثل عرشه ، ويهدم إيوانه ، وإسپانيا تخون فرديتها ، وتنسى رسالتها إذا كانت تقبل فكرة بقاء الإنسان فى نوعه أو فى أعماله لأن تصور «الشعب» و«الأجيال القادمة» فى رأى العقلية الإسپانية تجريدات لا حقيقة لها ، وإنما الإنسان «الفرد» هو الحقيقة ، وهو الذى ينتزعه الموت ، ويطويه الفناء ، فشدة شعور العبقرية الإسپانية بالحياة يصحبها شعور حاد مؤلم بسطوة الموت وغلبة الفناء ، ولكن العبقرية الإسپانية لا تستسلم لفكرة الموت ففى أعماقها كنوز من النشاط والهمة والعزيمة الماضية كافية للتغلب على الألم ومكافحة اليأس ، ومن هذا النبع العميق للحياة تنبجس فى نفسها الصوفية .

والقوة الخالقة فى الأدب الإسپانى أقوى وأوضح من القوة الناقدة ، والأدب الإسبانى فى تطوره يتبع العبقرية القومية ويخضع لها ، ويرفض كل إملاء عقلى أو قاعدة مفروضة ، ويستهدى بغريزة الشعب التى تحدوه على تأمل الواقع وتفسيره تفسيراً مباشراً ، وهذا هو سبب طرافة الأدب الإسپانى واستقلاله .

وقد كان الكاتب الإسپانى الكبير ميجويل أونامونو (المتوفى فى آخر سنة ١٩٣٦) فى رأى الكثيرين أكبر ممثلى العبقرية الإسپانية فى العهد الأخير ، وهو يمثل نفسية إسپانيا الملتاعة الحائرة ، وحالاتها المتناقضة ،

ومثلها العليا المتعارضة ، وروحها المترددة بين الشك القوى والإيمان الشديد .

وقد ولد فى مدينة بلباو سنة ١٨٦٤ ، وفى سنة ١٨٩٢ عين أستاذاً للغة اليونانية فى جامعة سلمنقة ، وفى سنة ١٩٠٠ صار رئيساً لها ، ثم شرع يكتب فى الجرائد فصولاً شديدة اللهجة ، ويحمل على الحكومة حملات شعواء ، فحكم عليه بالحبس مدة ست عشرة سنة ، ولكن لم ينفذ ذلك الحكم ، وبعد زيارة طويلة لفرنسا عاد إلى سلمنقة ، ولكنه ظل يتابع نقده اللاذع الجرىء لأعمال الحكومة حتى اضطرها إلى نفيه فى جزائر كنارى سنة ١٩٢٤ ، ثم ألغى الحكم ، ولكنه رفض العفو ، ولم يقبل أن يعود إلى إسپانيا فى عهد الديكتاتورية وأقام فى باريز زمناً ، ثم انتقل إلى الجنوب ليكون على مقربة من الحدود الإسپانية ، وظل متابعاً نقده لحكومة بلاده ساخراً من الملك ألفونسو ورجاله ، ولما انتهت الديكتاتورية سنة ١٩٣٠ عاد من منفاه ، واستقبلته الجموع الغفيرة استقبالاً رائعاً ، ولما تألفت الجمهورية سرعان ما وجدت فيه ناقداً لا يرحم عجزها ، ولا تكل عينه عن عيوبها ، ولما قامت الثورة ناصر الثائرين لاعتقاده أنهم يدافعون عن الحضارة ويقاومون الفوضى ، ولما مات فى آخر سنة ١٩٣٦ قال عنه أصدقاؤه العارفون بأخلاقه إنه لو مد فى أجله ورأى انتصار الثوار لانقلب ضدهم ، ويؤيدون ذلك مستشهدين بقوله : « كل من ينتصر سيرانى فى الصف الآخر » .

وقد شبهه أحد المصورين الهازلين بالبومة ، وهو تصوير قد أصاب

العجز ، فقد كانت عيناه تنفذان فى ظلام ليل الروح ، وتديمان النظر إلى لغز الوجود ، وتحومان حوله فى يأس ولهفة .

وكان فردياً معتزاً بفرديته فى تلك الأيام التى راجت فيها المبادئ الشيوعية والاشتراكية ، وذاعت الفاشية والنازية ، وهى مذاهب لا تعنى بالفرد ، وتحاول أن تطويه فى غمار الجماعة .

ولكنه لم يكن يواجه المجتمع بفرديته على أسلوب الفوضويين ، فقد كان له من تدينه العميق وتقاليد أمته ما يحميه من الوقوع فى أشراك الفوضوية ، وإنما كان يعبر بذلك عن النزعة الإنسانية الإسبانية التى هى سمة من سمات الإسبانيين الغالبة على فنونهم وآدابهم ، وكل شعب من الشعوب تشغله مسألة الإنسانية وتستأثر بنصيب من تفكيره ، ولكن كل شعب يعالجها على طريقته الخاصة ، والإنسان فى رأى الإسبانيين هو الإنسان المعين المصور من لحم ودم ، والأدب والفن عند الإسبانيين يتناولان هذا الإنسان المعين المحسوس ، ولما كان أقرب إنسان معين محسوس إلى الإنسان هو نفسه ، فلذلك كثر اشتغال أونامونو بنفسه وما يجيش بها من عواطف ويضطرب فيها من خواطر وأفكار ، وهو يرفض الاستسلام للتجريدات ، ولا يرى فيها سوى خرق بالية تستر الأفكار الميتة ، وهو لا يعنى بغير حياته الخاصة ، فهل هذا موقف أنانية وتخايل بالشخصية كالموقف الذى نعهده فى بعض الكتاب المفتونين بأنفسهم والذين ينتهى بهم الأمر إلى ضرب من ضروب « النرجسية » السقيمة ؟ أونامونو يستطيع أن يرد هذه التهمة عن

نفسه ، فهو لم يتصور الوجود مرآة كبيرة لا تطل منها على غير سحنته ، ولم يفتن فى الإعلان عن نفسه بالأساليب المعروفة عند « كواكب » الأدب فى عالمنا الحديث ! وإنما كان يدير الطرف فى أعماق نفسه ، ويبالغ فى استقراء خواطره وشجونه لأنه يحس أننا كلما تعمقنا فى بحث النفس التقينا بإخواننا فى الإنسانية ، فما إخواننا هؤلاء إلا فروع نابتة من أصل تلك الشجرة ، وإخلاصه الشديد للحياة وفرط تعلقه بها كان يبعثه على أن يقف طويلاً أمام كل فكرة تطوف بذهنه وتتضمن الشك فى البقاء وتميل إلى إنكار الخلود ، وقد كان يحس وراء كل فكرة مقنعة عن ضرورة الفناء إرادة الحياة القوية الباقية ، فيأبى أن يهزم عقله إيمانه ، ويظل ظامئاً إلى الخلود حالماً بالأبد ، وهذا الصراع العنيف بين حب الحق والإخلاص للحياة هو أساس فلسفته التى بسطها فى كتابه « معنى الحياة المحزن » وهو خير ما كتب ومن أروع ما أخرجته العبقرية الإسبانية فى العصر الحديث .

وهو يتحدث فى هذا الكتاب عن الرغبة فى الحياة والظمأ إلى الخلود ، والأساليب التى جرى عليها المفكرون والفلاسفة فى بحث هذا الموضوع ، ثم يستمسك بكلمة ترتليان المشهورة « إن هذه الفكرة سخيفة ولذلك أومن بها » ويقاوم بها الموقف الانتقادى الذى ينكر إمكان الخلود الفردى ، ويجد عقله صعوبة فى السمو فوق الشكوك ، ولكن يقينه يستلزم تأكيدات غير خاضعة للعقل ، وفى معترك هذه العواطف ، ومن أعماق تلك الهاويات

يقيم نظريته ، وأساسها بقاء الرغبة فى الحياة ، و يتسع حب النفس عنده حتى يشمل كل ما يريد الحياة و يتعلق بالوجود ، والظمأ إلى الخلود هو الذى يوسع دائرة الحب .

ومن أقواله فى ذلك الكتاب « إن الأمل ضعيف فى هؤلاء الذين لم يفكروا ولو تفكيراً غامضاً فى المبدأ والمصير وفى ماذا ولماذا ، وأمثال هذه المسائل لا يتناولها الإنسان بالعقل وحده ، و إنما يتناولها بقلبه ، إذ لا يكفى أن نفكر فى المصير ، و إنمـا يلزم أن نشعر بذلك ، والذى لا يأبه لذلك ولا يعنى به لا يستحق أن يقود الناس و يتصدى لإرشادهم ، وليس معنى ذلك ضرورة إيجاد حل لهذه المسائل ، وهل يوجد حقيقة لها حل ؟ و يقول بعض الأذكياء الأغبياء — ولا غرابة فى ذلك فقد يجتمع الغباء والكفاية غباء الإحساس ونقص الإدراك الأدبى — يقول أمثال هؤلاء الأذكياء إنه لا فائدة من الغوص على المجهول ، ولكننا لو قصّرنا فى ذلك شعرنا بأن شيئاً ينقصنا ، والبعض يدّعون أنهم لا يشعرون بذلك نفاقاً ورياءً ، وقد قال أحد هؤلاء المتحذلقين لسولون الحكيم وقد فقد ابنه ورآه باكياً « لماذا تبكى هكذا إذا كان البكاء لا يجدى شيئاً ؟ » فقال الحكيم « إنما أبكى لذلك » ومن الواضح أن البكاء يجدى و يبرد لوعة الحزن ، وقد يكون فى البكاء حكمة فوق كل حكمة » .

و يقول فى موضع آخر « الإنسان يريد الأبدية فما معنى قول شكسبير » «أكون أو لا أكون ؟ معناه طلب الأبدية ، وهو يقول فى كوريولينس « هو لا يريد شيئاً من الله سوى الأبد » والأبد هو الأمنية الكبرى ،

والظمأ إلى الأبد هو ما يسميه الناس الحب ، والذى يحب إنساناً إنما يود أن يصير أبدياً بمعاونته ، ولا شىء حقيقياً إلا إذا كان أبدياً ، ورؤية الحياة وهى تنساب من بين أيدينا انسياب الماء قد أثارت الحزن وأصعدت الآهات ، فمن قول كالدرون « إن الحياة حلم » إلى قول شكسپير « إننا من مادة كالتى صيغت منها الأحلام » وكلمة شكسپير أشد حزناً وأبلغ أسى من كلمة كالدرون لأن كالدرون يرى أن الحياة حلم ، أما شكسپير فيرى أننا أنفسنا حلم، وأننا حلم يحلم، والشعور بالحب والإحساس بزوال الحياة وغرورها ومتاعها هما أساس الشعور الصادق ، وهما وتران فى النفس ، لا يتحرك أحدهما إلا تحرك الآخر ، فالشعور بزوال الحياة يشعل الحب فى نفوسنا ، وهو الشىء الوحيد الذى ينتصر على الفناء ويملأ الحياة ويجعلها أبدية ولو فى المظهر ، ويرى الكثيرون أن عبادة الأجداد هى أهم مصادر الديانات القديمة الأولى ، ومن مميزات الإنسان اهتمامه بآثار موتاه والمحافظة عليها ، وهى دليل الجزع من الفناء ومحاولة إخفاء مظاهره، ولقد عنى الإنسان ببناء المقابر قبل أن يبتنى البيوت ويقيم القصور ، وأيام كان يسكن الغيران ويأوى إلى الكهوف ، وقد استعملت الأحجار للمقابر قبل أن تستعمل فى تشييد البيوت ، والمقابر هى التى بقيت على كر الدهور ، وعقيدة خلود النفس هى التى حفظت الأديان » .

وهو يلخص موقفه فى قوله « ديانتى هى أن أصارع بلا انقطاع وفى غير ونية ولا سأم لغز الوجود ، ولا أستطيع أن أعقد هدنة مع المجهول ، وليس

اليقين شيئاً يعثر عليه فى قارعة الطريق ، و إنما يلزم أن ننتزعه من إغراءات الشكوك وغوالب الظنون ، و إلا كان قليل الثمرة زائل الإنتاج »

و بعد فإن تفسير شخصية غامضة غريبة مثل شخصية أونامونو ليس من الأمور الهينة ، وكتابه الذى تحدثت عنه أجل شأناً من أن تظهر قيمته وتبين أعماق أمثال هذه المختارات القليلة التى عرضتها ، وأرجو أن أكون بما قدمت قد استرعيت النظر إلى طرافة تفكير هذا الكاتب الكبير الذى كان فى حياته العامة والخاصة مثالاً للمفكر الذى يعرف رسالته و يقدر خطورة موقفه ، فلا يسفّ طمعاً فى شهرة عاجلة أو تطلعاً إلى مصلحة مرجوة أو منزلة مرموقة ، وأمثاله قليلون فى هذا العصر الذى استدعت أحواله أن يصدر الكاتب الفرنسى چوليان بندا كتاباً خاصاً عن « خيانة الكتبة »

أحزان بابيني

« لم أكن يوماً ما طفلاً ، وليس لى سابق عهد بالطفولة .

فما هى أيام الطفولة النضرة الضاحيــة وأحلامها الذهبية الهانئة ؟ وما تلك البراءة الرفّافة الوريفة ، وذلك الابتهاج الذى يشيعه فى النفس تكشّف أسرار الـكون والاهتداء إلى عجائبه ؟

لم أعش فى كنف الطفولة ولم أنعم بظلالها ، ولقد عدتنى أيامها الغر وعهودها الحسان .

لقد عرفت عنهــا بعد ذلك أشياء من الـكتب ، وتوسمتها فى محيا الأطفال الذين ألقاهم ، ولم أدرك أنى قد اجتزت عهدها ولابستنى صفاتها وعرفت بشاشتها إلا بعد أن أربت على العشرين سنى ، وفى فلتة من فلتات النسيان ، وومضة من ومضات الصفاء .

الطفولة معناها الحب والمرح وعدم الاكتراث ، ولقد وجدتنى فى سالف الأيام وحيداً مهموم البال .

منذ نشأتى وأنا أشعر شعوراً قوياً بالعزلة والتفرد ،ولست أدرى لم ذلك؟ الآن قومى كانوا فقراء معسرين ، أو لأنى ولدت فذاً مختلفاً عن سائر الناس؟ لا أستطيع أن أعرف ، ولا أن أدلى برأى ، ولا أتذكر سوى أن عمة

لى صغيرة السن لقبتنى بالـكهل ، وقبل أقاربى جميعهم هذا اللقب ، وصاروا يدعوننى به ، والواقع أنى كنت فى أغلب الأوقات منقبض النفس ملتزماً الجد الصارم .

كنت قليلاً ما أحادث أترابى من الأطفال ، وكنت أضيق بألوان المجاملات وأمقت مظاهر التكلف ، ولا أشاطر أقرانى لهوهم وعبثهم فى أسعد أوقات حياتهم ، وأوثر أن آوى إلى ركن مظلم ، وانتحى ناحية مهجورة فى منزلنا الصغير الزرى ، وكان الجميع يمقتوننى أشد المقت وكنت أشعر بشدة الـكراهة التى يضمرونها لى ، فيزيدنى ذلك احتجازاً وهماً ورغبة فى العناد والمشاكسة .

وعنـد ما كانت تجمعنى المصادفة بغيرى من لداتى الأطفال كنت لا أشترك فى ألعابهم وأظل مجتنباً لهم ، معرضاً عنهم ، ناظراً إليهم من سماوة جدى الصارم بعين الناقد الزارى ، أو عين العدو الـكاشح ، لا لأنى كنت أغبطهم ، فقد كنت لا أشعر نحوهم بغير الاحتقار .

ومن ذلك الوقت بدأت الحرب بينى و بين بنى الإنسان ، كنت أباعدهم وأتحاشى لقاءهم ، وكانوا يهملون شأنى ولا يعنون بأمرى ، كنت أبغضهم وأزهد فيهم ، وكانوا يظهرون لى العداء ويضطهدوننى ، وكان أقاربى يجاملوننى مراعاة للعرف ، وكان يسوءنى هـذا التظاهر بالود فأقابله بخشونة وجفاء .

كنت لا أدخل السرورعلى قلوب الغير ، وزادنى عداء الناس لى تجافياً

عنهم وتشبثاً بالوحدة و إصراراً عليها . وزادتنى الوحدة هماً على هم ، وهذا الهم الملازم أغلق قلبى ، وألهب فكرى ، وزادنى شذوذاً ، وجعلنى غريباً بين الأهل والأقارب ، وهكذا منذ بدء حياتى شرعت أعل وأنهل من ذلك الحزن المجهول غير المحدود الذى لا يشفى من دائه ولا يستعان عليه بالسلو والنسيان .

كنت أعيش فى دنيا من تصنيف أوهامى ، ولا ترف على وجهى ابتسامة ، ولا يستخفني مرة الطرب ، وكنت شاحب الوجه حائر النظرة ، وأعود فأكرر أنى لم أكن يوماً ما طفلاً .

أسلمتنى هـذه الحالة إلى ضرب من ضروب التشاؤم الأصم المغلق ، وأخذت أسائل نفسى عن قيمة الحيـاة وغرضها ، فلم أفز بجواب أطمئن إليه ، ولم أجد عزاء ، لأن الحيـاة لم تفدنى بشىء ، ولم تمنحنى شيئاً ، ولم يكن لى أمل فى الثراء ولا نيل الفخار فى مجال المعرفة ، لأنى لم أتلق سوى دراسة مدرسية محدودة ، ولم أحلم بالفوز فى ميادين الحب وغزو قلوب النساء لأنى كنت دميماً جم الحياء والتردد ، وقليل من الناس كان يحفل بى ؛ ولم يحبنى أحد غير والدى ووالدتى ، ولقد كانت هذه النفس التى نبتت منهما شاذة عجيبة حتى فى عينيهما ، ولقد ولد ذلك فى نفسى الاعتقاد بظلم القضاء ، والشعور بغرور الحياة » .

* * *

بهذه الكلمات التى تنضح بالمرارة استهل الكاتب الإيطالى القدير

چيوڤانى پاپينى كتابه « إنسان كامل » ، و پاپينى علم من أعلام الأدب الإيطالى الحديث ، وأحد ممثلى الثقافة الإيطالية الأقلاء المعدودين ، وفى حياته ظاهرة تستدعى التفكير والمراجعة فى هـذه الأيام التى تكتوى فيها الأمم بنيران تلك الحرب المشبوبة ، وسأشير إليها فيما بعد .

ولد پاپينى بمدينة فلورنسا فى ٩ يناير سنة ١٨٨١ من أبوين فقيرين ، وكان والده صانع أثاث رقيق الحال ، ولكنه مع ذلك حر الفكر ، متقد الذكاء .

ومنذ تعلم پاپينى القراءة أولع بالاطلاع ، وأقبل على تحصيل المعرفة والاستزادة من العلم ، حتى خطر له أن يقوم بتأليف « موسوعة » وأخذ يمعن فى الاطلاع ، ويكثر من القراءة ، ويسجّل ملاحظاته ، ويجمع مختلف المعلومات وينسقها ، وصادفته عقبات لم يستطع التغلب عليها ، فهجر فكرة الموسوعة ، وأخذ يفكر فى كتابة تاريخ العالم ابتداء من الخليقة إلى العصر الحاضر ، لأن الحاجة ماسة إلى مثل هذا التاريخ ! والإنسانية الضاربة فى الظلام ، والغارقة فى الفوضى لاريب فى حاجة إلى الاسترشاد بضوء هـذا الكتاب الحفيل فى التاريخ العام الذى يقدمه لها الشاب الفطن المجرب والمؤرخ الحجة « پاپينى » ، ولكن صاحبنا على ما يظهر كان موعوداً بالعقبات التى تعترض طريقه ، فالدنيا خلقت حسب النصوص الدينية فى ستة أيام ، وهو يحاول أن يفسر التاريخ تفسيراً علمياً جذرياً بطالب ناضج مثله فى الخامسة عشرة من عمره المبارك ، ثم حاول

أن يتعلم العبرى ليسهب فى الشرح و يجيد التعليق، ولكنه وجد أن الموضوع سيطول و يتشعب ، ففكر فى أن يضع كتاباً فى الأدب المقارن .

وانغمس فى الاطلاع والقراءة حتى تأذت عيناه ، وتداعت صحته ، واعتل مزاجه ، واستولى عليه التشاؤم ، ولون أفكاره بلون قاتم ، وأخذ عليه مسالك خطراته ، واقتفى آثار شوبنهاور ، وحاول أن يجعل تحبيذ الانتحار رسالته الأدبية السامية ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يتقدم هو إلى الهاوية شأن الشجعان ، و يضرب للناس مثلاً شروداً فى رفض الحياة و إنكار النفس ؟ ولكنه أقنع نفسه بأنه إنما يعيش ليذيع رسالته و يحمل غيره على ذلك ، ثم أدرك غرابة موقفه ، وأغضبه ذلك فصب غضبه ونقمته على طائفة من الفلاسفة فى كتاب أسماه «فجر الفلاسفة»

ثم أنشأ هو وجماعة من أصدقائه مجلة لترويج آرائهم الأدبية ونقد مذاهب الفكر السائدة ، و بدأ يشرح فيها فلسفة وليم جيمس ، واشترك بعد ذلك فى تحرير طائفة من المجلات ، وأخرج كتباً شتى بين نقد وقصص وشعر تمتاز جميعها ببلاغة الأسلوب وحرارة العاطفة وقوة التفكير ، وقد ظل يجاهد جهاداً متواصلاً ، و يصدر الكتاب تلو الكتاب دون أن يعلو صيته و يعرف اسمه خارج إيطاليا ، حتى وضع كتاباً عن حياة السيد المسيح ، فذاع اسمه فى الخافقين ، وأقبل الناس على قراءة كتابه ودراسة أدبه ومعرفة شخصيته ، وسبب الضجة التى أثارها الكتاب هى أن « بابينى » كان معروفاً من قبل بأنه ملحد متطرف فى الحاده ، وكان

موصوفاً بسلاطة اللسان ، وشدة النقد ، والاستطالة على الكتاب ، والنيل منهم بالعبارات الجافية ، واللهجة الساخرة فى غير مواربة ولا تردد ، فكيف انقلب هذا الأستاذ البارع فى صناعة الرمى بالقوارص والقذف بالمقذعات وهذا الملحد الفوضوى مؤمناً يترجم للسيد المسيح ويعجب بتعاليمه ويرتضى مذهبه ؟ وما سر هذا التحول من النقيض إلى النقيض ؟

وجه إليه هذا السؤال فأجاب :

« إن الحرب هى سبب هذا التحول الذى حير عقول الناس ، فعند ما استعرت الحرب ، وأخذت تخوض غمارها الأمة بعد الأمة ، منساقة بعواطفها دون فكر ولا نظر ، ورأيت الفريقين المتحاربين يمعنان فى التخريب ، ويسرفان فى سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، ضحكت ضحكة مرة خالية من أثر السرور لأن سوء ظنى بالإنسانية قد تحقق ، ولقد كنت أعتقد من قبل أن الإنسان مجرم أبله ، وأنه غير أهل للخير ، وأنه مطبوع على الشر ، وأن النزعة الغالبة عليه هى الرغبة فى التدمير والإفساد ، نعم ضحكت وسررت لأن يقينى العميق قد قامت على صدقه الأدلة والشواهد .

ولكن هذا الشعور بالشماتة والازدراء سرعان ما مضى لسبيله ، وأخذ يتردد فى نفسى سؤال : لم هذا كله ؟ وما سبب كل هذا القتل والتدمير ؟ وأقبلت على قراءة التاريخ لأستزيد من دراسته ، وعدت إلى أقدم الأزمنة ، إلى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، ورأيت أن الأمم فى مختلف العصور كلما جرت

فى مضمار التقدم انساقت إلى الحرب ، وأن هذا الترقى لا يؤدى إلى الحرب إلا لوهن الدين القائم على روح الحب الصادق ، و بدا لى أن الحرب هى النتيجة الطبيعية المحتومة لذلك .

بدأت أعيد النظر فى تاريخ الرأسمالية ، والنهضة الصناعية ، وتقدم إيطاليا ، وتقدم أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، وأرسلت الفكر فى تحرى الأسباب والنتائج فلم أر إلا الحرب والتدمير .

أليس هناك ما يسعد على تجنب هذه الطرق المفضية إلى الهلاك وتلافى هذه المآسى المروّعة ومحوها و إزالتها ؟

استبان لى أن الحل الصحيح والطريق السوى هو تبديل روح الإنسان وتحويلها إلى الدين .

شرعت بعد ذلك فى إعادة قراءة كتب تولستوى ودستوفسكى ، وأخذت أدير الطرف فى أنحاء نفسى منقباً فى أعماقها باحثاً فى ظلماتها ، فلم أستطع الفرار من مواجهة هذه النتيجة التى انتهيت إليها ، وهى أنه لا دواء يستطب به من داء الحرب والتدمير والتخريب سوى « الدين » القائم على روح الحب » .

وأدرك يابينى عاقبة إعلان مثل هذا الرأى ، وما يجره عليه من خلاف وما يثيره حول اسمه من لغط بين الكتاب والمفكرين ، ولكنه كان فى مختلف أدوار حياته إذا آمن بفكرة أقبل عليها بنفس مجتمعة غير موزعة ، وأسرف فى الإخلاص لها ، والذود عنها ، وعرف أن خصومه سيتلقون

هذه العقيدة الجديدة بالزراية والسخرية ، ويكيلون له التهم ، ولكنه اعتقد أن طريق الخلاص قد وضحت معالمه واستبانت أضواؤه ، وليس من شأنه أن يحجم وينكص على الأعقاب ويتردد فى إبداء رأى مهما يكن مخالفاً لسابق آرائه خشية سوء القالة ، وهو الذى لم يسلم من لسانه كاتب ولا ناقد ولم ينج من هجومه مذهب من المذاهب ، وفرغ لإتمام كتابه عن حياة المسيح ، ولما أذاعه لم يقصر أعداؤه فى اتهامه بأنه إنما تحول إلى الله ليركع فى معبد «مامون» .

وبعض المفكرين الإيطاليين ذوى المكانة يشيرون عند تحدثهم عن «پاپينى» إشارات خفية تنم على سوء ظنهم بهذا التحول الفجائى من الإلحاد إلى الإيمان ، وهم بطبيعة الحال أعرف منى بأديبهم الكبير ، وأدرى ببواعثه ، ولكن ما لمحته فيما تيسر لى قراءته فى كتب هذا الرجل من صراحة فى قولة الحق ، وجرأة فى النقد ، وحرارة فى الأسلوب ، يجعلنى أتردد كثيراً قبل أن أشك فى حديثه ، وأستريب بإيمانه ، ولعلى هذه المرة غير مخدوع فى الطبيعة الإنسانية ولا فى أخلاق بعض الكتاب والمفكرين .

هذه هى الظاهرة التى أردت أن أشير إليها فى حياة «پاپينى» بمناسبة الحرب الأخيرة ، فهل حقيقة أن العودة إلى الدين والاستمساك بأصوله ، والتشبع بروحه تقضى على أسباب النزاع وعوامل الشقاق بين الأمم ؟ وهل فى تاريخ الأديان وماضى الحضارات ما يؤيد هذا الرأى ؟

يقول الدوس هكسلى فى كتابه القيم «الغايات والوسائل» ما معناه

إن أنبياء الإنسانية من لدن أشعيا إلى كارل ماركس متفقون فى أن الغاية التى تعمل على تحقيقها الإنسانية هى الحرية والسلام والعدالة والحب الأخوى، ولكن الاختلاف على الوسائل ، فالبعض يرى أن الطريق الملكى هو الإصلاح الاقتصادى ، والبعض يرى أنه الغزو والفتح ، والبعض يرى أنه مناصرة الديكتاتورية ، والبعض يرى أن الطريق الصالح هو إصلاح أساليب التربية ، والبعض يرى أن التحليل النفسى هو خير علاج وأقرب سبيل ، والبعض يرى أنه لا يمكن تحقيق ذلك دون الاستعانة بقوة أكبر من قوة الإنسان ، فالعودة إلى الدين هى السبيل الوحيد .

ولكل مذهب من هذه المذاهب شيعته وأنصاره والمتعصبون له، ولكن ما السبيل إلى ترجيح أحد هذه المذاهب على الآخر ؟ السبيل إلى ذلك المحاولات التى تستغرق فى هذا العصر جهود المفكرين على اختلاف آرائهم وتباين أساليبهم ، وأخشى ما يخافه الناس أن يظل الخلاف على اختيار الطريق قائماً ، والنقاش مستمراً ، فلا تصل الإنسانية إلى الحرية والعدالة والسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

البطل المعلوم والبطل المجهول

من مشكلات فلسفة التاريخ التى لا يفتأ يثور حولها الجدل وتختلف الآراء مسألة تقدير العوامل المتباينة المؤثرة فى سير التاريخ ، وأيها أحق بالصدارة وأجدر بالنظر والتحليل ، فبعض المفكرين يرون أن الرجل العظيم أو البطل هو العامل الحاسم فى سير التاريخ ، وأن سائر العوامل ليست بذات شأن إذا قيست به وقرنت إليه ، وقد لخص توماس كارلايل — أقوى المدافعين عن هذا الرأى — هذه الفلسفة فى جملة واحدة قاطعة فقال « إن تاريخ العالم فى جوهره هو سير الأبطال » والمتحمسون للأبطال على طراز كارلايل يقولون إن البطل هو بادىء الحركات ، وخالق القيم ، وموجد النظم ، وإن الرجل العظيم بشخصيته المنيفة ، وإرادته المصممة ، يوجه التاريخ ، ويصرف الحوادث ، ويرسم الاتجاهات البعيدة ، ويفرض على المجتمع صور الحضارة وألوان الثقافة ، ويمتد تأثيره ، ويترامى ظله إلى المستقبل ، والعظماء يشبهون القمم العالية تشرق عليها أشعة الأفكار الكبيرة ثم تنحدر الأشعة من تلك القمم العوالى إلى الشعب .

ولكن هذا الرأى لم يسلم من النقد ، ويرى فريق من ناقديه أن الرجل العظيم لكى يقوم برسالته وينجز واجبه ، لا معدى له عن أن يجد « المادة

الخام » التى تتناولها يده الصناع وتستبين فى تشكيلها قدرته ، ولهذه المادة طبيعتها وخواصها ومميزاتها التى لا يسعه إهمالها و إغفال شأنها ، وهى تؤثر فى سير التاريخ تأثير البطل نفسه ، والبطل فى دوره كذلك متأثر إلى حد كبير بالوسط والبيئة وملابسات الأحوال .

ويسترعى أمثال هؤلاء النقاد نظرنا إلى أن الكثير مما يعزى إلى العظماء إنما هو من نسج الأساطير الشعبية وخلق الحماسة التى يشعلونها فى نفوس الناس ، وقد نعجب الإعجاب كله بالنتائج التى انتهى إليها عالم عبقرى من طراز دارون أو أينشتاين، ولكنا إذا أطلنا البحث وأعدنا النظر وجدنا أن الكثيرين من العلماء والمفكرين قد مهدوا لهما السبيل ، وأن الجو كان مهيئاً لقبول ما وصلا إليه ، والابتكار المنسوب إليهما يكاد يكون « مسألة اجتماعية » ، وربما كان للمصادفة السعيدة أثر فيها أكثر مما للمزية الشخصية والعبقرية الفردية .

ولكن تأثير العظماء فى سير التاريخ مع ذلك حقيقة واقعة لا يمكن المؤرخ إنكار أثرها والإعراض عن مواجهتها ، ولقد حاول بعض المؤرخين ممن لهم نزعات اجتماعية خاصة ، أن يبرزوا تأثير الجماعات فى التاريخ ، ويقللوا جهدهم من إظهار تأثير الشخصيات الكبيرة ، فظهر كثير من الخطأ فى تقديراتهم وشاع الاختلال فى موازينهم .

ومن الواضح أن كثيراً من الحركات التى تزعمها العظماء كانت آتية محتومة لأنها مكفولة الأسباب موفورة المقدمات ، ولكن العظماء استحثوا

خطواتها ، ولقد كان لسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين مثلاً تأثير كبير فى التاريخ الإسلامى ، ولكن هذا الحادث الخطير كان من المحتمل إلى حد كبير أن يتأخر وقوعه لولا وجود أبى مسلم الخرسانى وجمعه بين صفات متعددة ومواهب مختلفة ، فقد كان قائداً بارعاً يستطيع أن يرسم الخطط ويشعل الحماسة ، وكان فى نفس الوقت سياسياً يجيد حبك الدسائس وتدبير المؤامرات ، وكان هذا الانتقال مطابقاً لرغبات أكثر الأمم الإسلامية التى ملت سياسة الأمويين ، ومتفقاً مع مطالبها النفسية والمادية ، وكانت ظروف الأسرة الأموية الخاصة تسمح بحدوثه ، وقد استطاعت عبقرية أبى مسلم أن تستفيد من هذه العناصر وتنتفع من كل هذه التيارات ، وفى التاريخ حركات كبيرة أبطأ سيرها لعدم وجود البطل الذى ينهض بأعبائها ويتولى قيادتها ، والفرصة لا تخلق الرجال كما يتوهم بعض منتقصى أقدار الأبطال ، وقد تسنح الفرصة فلا تصادف الرجل الذى يعرف كيف ينتهزها ويلبى نداءها ، ويرى بعض مؤرخى الثورة الفرنسية أنه لو مد فى حياة الزعيم الكبير ميرابو خطيب الثورة الفرنسية لاستطاع أن يغير اتجاهها ويطامن من غلوائها ، وقد أظهرت الحوادث العالمية الأخيرة تأثير العامل الفردى فى سير التاريخ وتوجيه الحوادث .

وقد رأى الكاتب الإيطالى المفكر جيوفانى پاپينى أن يتناول هذا الموضوع من ناحية أخرى طريفة مزج فيها بأسلوبه الشائق الجد بالفكاهة ، وقد

أدار فى المقال الآتى عن « الرجل المجهول » الموضوع على نواحيه المختلفة ببراعته المعهودة ونظراته النافذة : —

كثير من النقاد المحدثين قد عودوا أنفسهم عادة غير محمودة ولا موفقة ، وهى عادة الاقتصار على دراسة حياة الرجال المعروفين الذين يثقون بوجودهم ويعلمونه علم اليقين ، وكان من أثر ذلك أنه لم يخطر لأحد منهم أن يعنى بكتابة تاريخ حياة « الرجل المجهول » ولست أقصد به الرجل العادى الخامل الذكر المجهول المكانة الذى يجوز أن تفجأه الشهرة فيصير فى طرفة عين من الأشخاص المعروفين المعترف بوجودهم ، وإنما أقصد الرجل المجهول الحقيقى الذى لا يعرفه إنسان .

والنقاد جميعهم مولعون بالكتابة عن البارزين والإشادة بالمشهورين أو على الأقل بالمعروفين عند الشرطة والمذكورة أسماؤهم فى الدليل ، ومن غير المتوقع أن يفنوا المداد فى الكتابة عن رجل لا يحمل اسماً ، وقد يخطر ببالهم أن يعتذروا عن ذلك قائلين « كيف يتيسر لنا أن نترجم لإنسان مجهول لا علم لنا بأخباره ولا ندرى عنه شيئاً ؟ » ولكنه اعتذار بائن السخف لأن أجل التراجم التهذيبية شأناً كتبت عن رجال لا يعرف عنهم إلا النذر اليسير ، وأمثال هذه التراجم هى التى ترينا المثل الكامل لما يجب أن يكون عليه الإنسان !

وللنقاد مذهبهم ولى مذهبى ، وسترون أنى ليس بى من حاجة إلى الاختراع والتخيل .

إذا كان حقاً أن الرجل لا يعرف إلا بأعماله فما أكثر ما نعلم عن الرجل المجهول ! أستطيع أن أقول إنه أعظم أبطال الإنسانية وأجلهم شأناً ! وإذا خالجكم الشك فى ذلك يا أنصار المعروفين والمذكورة أسماؤهم فى القوائم فأعيرونى آذاناً صاغية !

الرجل المجهول جد قديم ، وقد ظهر فى أول قبيلة إنسانية ، وفى سالف العصور اشتغل بالكيمياء واستخراج المعادن ، وقد اخترع عربة النقل واكتشف الحديد ، وعنى بعد ذلك بالملابس ، وابتكر النقود ، وبدأ الزراعة ؛ ولكن سرعان ما مسه اللغوب ، وأسأمته هذه المسائل المادية ، فانقلب شاعراً وأخذ يذرع الأرض طولاً وعرضاً ، وخلق أساطير الأديان ، ونظم « الفيدا » وتغنى الأناشيد « الأورفية » ونسج خياله خرافات أهل الشمال ، وارتجل الحكم ، وتمثل الأمثال ، وفى العصور الوسطى نحت التماثيل العديدة ، وشيد المعابد وزين حيطانها بالصور والرسوم ، دون أن يذيلها باسمه ، ثم قص الأقاصيص وألف الروايات التى لا تحمل اسمه ولا شارته .

ولكن عند ما جاء العصر الحديث ، وطغى على الناس جنون التعلق بالأسماء ، والحرص على أن يدمغوا الأشياء بطابعهم أمسك عن العمل ، وقنع بالراحة ، وأقبل على الكتابة والتصوير والنحت جماعة من الفنانين المغرورين معروفى الأسماء ، والتمسوا الشهرة من وراء إثبات أسمائهم ، وقد كانت عبقريتهم أقل من عبقرية الرجل المجهول ، كما كان تواضعهم أقل من تواضعه ، وقد أسرفوا فى الإعلان عن أنفسهم ، وأطالوا ترديد

أسمائهم ، وزعموا أنهم لم يقوموا بهذه الأعمال ابتغاء المصلحة العامة ، أو طلباً للمتعة الفنية ، وإنما التماساً للشهرة ، وليضاف إلى أسمائهم كل فضل ويعزى إليهم كل عمل .

ولكن الرجل المجهول لم يستطب الراحة ، ولم يقبل أن يظل مغلول اليد عاطلاً من الأعمال ، وقد انتهز فرصة مجيء الدمقراطية ليستأنف سعيه ، ويعاود نشاطه ، وآثر أن ينزل إلى ميدان السياسة ، فالثورات الحديثة العظيمة هي من تدبيره ، والمتطهرون الإنجليز ، والثائرون في أمريكا والثائرون في فرنسا ، والمتطوعون الإيطاليون جميعهم كانوا من شيعته وأتباعه ، وقد استطاع تحت ستار اسم « الشعب » أن يخيف الملوك ، ويغير نظام الحكم ، ويقلب الدنيا رأساً على عقب .

ولكن هذه الأعمال العظيمة لم تنسه ذكريات الأيام الصالحة السالفة ، فعند ما يسير في الشوارع القديمة وهو مستغرق في التفكير ، تستوقفه وتسترعي التفاته الأواني المصنوعة على مثال الأواني القديمة التي مهر في صنعها ، ثم يقف الفينة بعد الفينة في الميادين العامة وقد تمثلت له صور طفولته ، أيام كان يبتني البيوت على مثال الغابات والكهوف والغيران .

وهو لا يزال حياً ، ولم يطوه الموت ، وسيحد من جهده ونشاطه الافتنان في الإعلان ، وتزايد الغرور والادعاء ، ولكنه سيظل مع ذلك ملح الأرض ، وأخشى أن يكون خموله الذي فرض عليه فرضاً ، ونزعة العصر السائدة قد أفسدا خلقه وأحالا طبيعته ، فعند ما تنسب الجرائد

والصحف السرقات وحوادث الاعتداء إلى « الجماعات المجهولة المعهودة » أخشى أن تعلق به الشبهه أو أن يكون ضالعاً فى ذلك .

وإذا صح حكمى عليه من صورته فإنه غير أهل للأعمال الدالة على سقوط المروءة والشر والإجرام ، ولا بد أنكم قد لاحظتم فى المعارض العامة صورة « رجل مجهول » وهى صور مختلفة يقول لنا النقاد المتنطعون إنها تمثل أشخاصاً مختلفين غير معروفين ، ولكن لا حاجة بى إلى الأخذ بآراء هؤلاء النقاد ، فأنا أعرف أن بطلى المجهول له وجوه متعددة وصور جمة ، فما أنبل محياه وما أجمل طلعته ! وفى بعض الأحيان يصورونه سيداً غطريفاً مسترسلاً فى عميق الأفكار ، وأحياناً أخرى يرسمونه شاباً شاحب الوجه شارد النظرة ، ومرة يمثلونه رجلاً ناضجاً مكتمل العقل يلهو بقفازه أو يداعب صقره ، وتستطيع أن تلمح فى صوره المختلفة أرستقراطية الروح ، وهذا الاحتجاز الطبيعى الذى جعله زاهداً فى أن تلوك اسمه أفواه السخفاء ويشتهر ذكره على ألسنة الأدعياء .

وقد تظننى هازلاً على طريقة سويفت أو على أسلوب كارلايل ! كلا فما إلى هذا قصدت ، وإنما أريد أن أوحى إليك موضوعاً للتفكير الخطير والتأمل الخالص ، ونحن نفرط فى الميل إلى أن نعزو أهمية لكل من كان يحمل اسماً ، ولكل من جعل له إمضاؤه وتوقيعه حقاً ، ويعزب عن بالنا أن أكثر ما نسميه حضارة هو من خلق قوم لا نعلم من حياتهم شيئاً ، ونجهل شخصيتهم الجهل كله ، وهؤلاء المجهولون قد أدوا لنا خدمات أكثر

وأبقى من الخدمات التى قام بها الرجال الذين ملأت شهرتهم الأسماع ، وحفلت بأخبارهم معاجم التراجم ومجاميع السير ، فأجمل الأوهام وأروعها ، وأحلى الأنغام وأشجاها ، وأخلد الكلمات وأبقاها ، وأعظم الاختراعات والابتكارات جميعها من عمل الرجل المجهول الذى لا يحفل به المؤرخون ولا تهدى إليه عقود الثناء ، ولا يخصه أحد بكلمة تقدير ، ومن الحق أن نتهم بجحود الفضل وإنكار الجميل ، ويزيدنا إمعاناً فى ذلك كلالة الطبع وغلبة الكسل ، ومن مألوف طباعنا أننا سرعان ما نستذكر الأشياء عندما يكون لها اسم ، ويسهل علينا الاعتراف بالجميل إذا رأينا بعيوننا شخصاً معيناً نستطيع أن نوجه إلينا أناظيم المدح ونفخر بشخصه ونزهى بوجوده ، ولكن الرجل المجهول الذى أجاد التفكير وأحسن العمل دون أن يدمغ الأشياء باسمه أو دون أن يتهافت على مراسلة الجرائد ويتمسح بها لا يلبث أن يهمل أمره ، ويعرض عن ذكره ، ومن دأب الناس أنهم عندما يحاولون العبادة يتمثلون صورة ، ويتصورون إنساناً ، والرجل الذى أتم عملاً وأجاد صنعاً لا تستطيع الناس أن توجه إليه أفكارها ، أو أن تختصه بالقليل من فائض حماستها ما داموا لا يعرفون اسمه ولا ملامح وجهه ، والشك الذى تمكن من نفوسنا وغلب على تفكيرنا هو الذى أنسانا « الرجل المجهول » مع ماله على الإنسانية من أياد بيض منذ أقدم الأزمنة ولسوء الحظ لا نزال نرى فى مياديننا العامة أنواعاً مختلفة من التماثيل

ما بين فارس وراجل لرجال مختلفين كل ما لهم من فضل هو تأليف مأساة مملة أو الانتصار القائم على المصادفة فى معركة من المعارك ، ولقد كان اليونانيون أعمق منا تفكيراً وأصح تقديراً عند ما أقاموا محراباً للإله المجهول، أليس من واجبنا فى العصر الحديث أن نشيد نصباً تذكارياً « للرجل المجهول » . ؟

تشاؤم ليوپاردى

چيا كومو ليوپاردى علم من أعلام الأدب الإيطالى ، وأكبر شعراء إيطاليا الغنائيين فى القرن التاسع عشر ، وقطب من أقطاب فلسفة التشاؤم، وعجيبة من عجائب النبوغ المبكر ، والعبقرية التى لا يقف فى سبيل إنتاجها الوافر الممتاز عقبات المرض الملازم ، والهموم المتكاثرة ، وقلة العطف والتشجيع ، والإخفاق فى كل ميدان من ميادين الحياة سوى ميدان السبق والإجادة والتبريز فى الشعر والنثر والفلسفة .

وقد أثار ليوپاردى قبل أن تبلغ سنه العشرين إعجاب العلماء الراسخين فى معرفة اللغة اليونانية واللاتينية بمواهبه اللغوية النادرة ، ودعاه كبير نقاد عصره — بيترو چوردانى — « الكاتب الإيطالى الكامل » .

وقد ولد چيا كومو سنة ١٧٩٨ ، وتلقى دروساً خاصة إلى السنة العاشرة من عمره ، و بدأ بعد ذلك دراسته معتمداً على نفسه ، واستولى عليه نهم شديد للقراءة والاطلاع ، فتعلم اليونانية بنفسه فى أربعة أشهر ، وأضاف إلى معرفته باللاتينية دراسة اللغة الفرنسية والإسپانية والإنجليزية والعبرية وكان يقرأ و يبحث و يترجم و يكتب شروحات وتعليقات قيمة ، و يعقد موازنات بارعة ، وهكذا ظل ينتقل من مجد أدبى سام إلى مجد أسمى ،

ويحلم الأحلام العظيمة ، ويراسل مشاهير عصره ، وثقات الباحثين فى اللغات والآداب حتى شاع اسمه ، وطارت شهرته .

ولكن الطبيعة التى كان يسىء بها الظن انتقمت لنفسها من هذا النبوغ المبكر ، والمجهود الجبار ، والانتاج المتواصل ، فى مطالع الحداثة وريعان الشباب ، فأصبح فى العشرين شيخاً فانياً متهدماً قد تقوس ظهره واحدودب ، وبرزت وجنتاه ، وحال لونه ، وضعف بصره ، وكان قد ورث من أسرته الاستعداد لمرض الكساح والاضطرابات العصبية ، وكانت مقاومة هذه الحالة تستلزم العناية بالتغذية الصالحة ، والحياة الرياضية ، ولكن سنوات الإجهاد الشديد فوتت عليه فرصة العلاج ، فغاضت نضارته ، وجازته فتوة الشباب ، وأصبح خليقاً بقول المتنبى :

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى شيئاً تتيمه عين ولا جيد

وكان أبوه الكونت موندالو ليوپاردى رجلاً شديد المحافظة ، ميالاً إلى الرجعية ، ولوعاً بجمع الكتب ، فخوراً بما عنده من وشل المعرفة ، وأعجبه إقبال ابنه على الدرس ، ورجا أن يكون له مستقبل زاهر بين رجال الكنيسة وحماة الدين وأن يصبح من الكرادلة ، ولم يلتفت إلى أن هذا الإفراط فى الدرس والاطلاع هادم للصحة ، متلف للأعصاب ، ولما احدودب ظهر جيا كومو استبشر أبوه خيراً لأنه اعتقد أنه قد أصبح أليق بخدمة الكنيسة وأصلح لها !

وكان أبوه متلافاً فلما أحس بمواجهة الإفلاس أسلم إدارة ضيعته لزوجته

الكونتس أديليد ، وكانت امرأة صارمة أشرب قلبها القسوة ، واستعصت على كرم السجية ، وصرفت همها إلى جمع المال من طريق الشح الشديد ، والتضييق البالغ ، وكانت لا تعطى أولادها نصيباً من عنايتها ، ولا تظللهم بشيء من رعايتها ، فلم يسمعوا منها كلمة عطف وحنان ، ولم يظفروا منها ببسمة رضا وتشجيع ، وقد أهملت چيا كومو فى طفولته ، ولما بذل البقية الباقية من صحته الواهنة فى صباه ليعول نفسه ، ويشق طريقه ، رفضت أن تعينه ، وذكرى الوالدة فى حياة أكثر الناس ملاذ يفيئون إلى ذراه ، ويأوون إلى حماه ، فى دنيا بائسة حزينة ، وعلاقة ليوپاردى بأمه ترينا باعثاً من بواعث يأسه المرير ، وحزنه المظلم .

ولم يكن على علاقة حسنة بأهل بلده ، فقد كانوا يخالونه متكبراً تياهاً ، ولما انحنى ظهره ، وهزلت صحته ، سنحت لهم الفرصة للنيل منه ، والاستهزاء بعبقريته التى لم يحسنوا فهمها .

وبعد أن ظل غارقاً فى البحوث اللغوية اتجه إلى الشعر وأولع بجيده ، ثم عالج قرض الشعر فنبغ فيه وأجاد ، ونظم شعراً وطنياً ضايق والده ، فرفض رجاءه له فى أن يسمح له بمغادرة ركاناتى والشخوص إلى روما ، واعتزم ليوپاردى الهرب من منزل أبيه ، وحاول الحصول على جواز سفر ، ولكن والده كشف الأمر ، وتلا هذه المحاولة المخفقة عهد استسلام وخضوع لما ابتلاه به القدر ، وهم بالانتحار ولكن عقله تغلب وانتصر ، ولعل الأعجب من إحجامه عن الانتحار قدرته على احتمال هذه الظروف

القاسية المحدقة به ، والصبر على الآلام الشديدة التى كانت تنتابه ، وأعجب من ذلك كله وأغرب متابعته الإنتاج فى وجه هذه المثبطات والمضايقات والأحزان ، فقد ظل يسح ويهضب بالشعر ، ويوالى كتابة الفصول النثرية المجودة الممتازة ، ويبحث الأدب واللغة والفلسفة ، وتحسنت صحته قليلاً فضاعف نشاطه فزاد بصره ضعفاً حتى كتب إلى صديقه چوردانى « لقد جعلتنى عيناى بومة تكره ضوء الشمس » .

وأخيراً فى سنة ١٨٢٢ سمح له أبوه بزيارة خاله فى روما ، فسافر إليها وبحث هناك عن عمل ، ولقى العلامة الألمانى نيبيهر ، وكان حينذاك وزير بروسيا المفوض فى البلاط البابوى ، وقد كتب نيبيهر إلى صاحبه بنسن من رسالته .

« تصور ما أخذنى من العجب والدهشة حينما أبصرت أمامى شاباً ضعيف البنية يبدو عليه أنه معتل الصحة ، وهذا الشاب هو أول العارفين باللغة اليونانية فى إيطاليا ، بل هو العالم الوحيد باللغة اليونانية فى إيطاليا جميعها ، وله ملاحظات انتقادية تشرف أعظم اللغويين الألمان ، وسنه لا تتجاوز الثانية والعشرين ، وقد بلغ هـذا المبلغ وتعمق هذا التعمق بلا مدرسة ولا مدرس ولا مساعدة ولا تشجيع من ناحية أسرته »

ورغم مساعدة نيبيهر لم يوفق فى إيجاد عمل له ، فعاد إلى را كاناتى ، ودعى بعد ذلك إلى ميلان ليشرف على طبع مؤلفات سيشرون وليشارك فى أعمال أدبيــة أخرى ، فغادر را كاناتى ومر ببولونا واجتمع بچوردانى

وأصدقائه ، وراقته الإقامة هناك ، فعاد من ميلان إلى بولونا ، واستقبل فيها استقبالاً حسناً ، وذاق شيئاً من طعم السعادة الدنيوية ، وأحب بعض النساء ، ولكنه أخفق فى حبه ، ولم تبادله إحداهن الحب ، واستطاع بعد عناء أن يفيق من إحدى الأزمات الغرامية الشديدة وأخذ بعد ذلك ينتقل بين راكاناتى و پيزا وفلورنس وروما حتى استقر به المقام أخيراً فى نابولى ، وكانت صحته تزداد سوءاً وهو مع ذلك مثابر على الإنتاج الممتع الفائق ، وظل مريضاً لا يرجى حتى أراحه الموت فى سنة ١٨٣٧ .

ورغم ذلك كله كان ليوپارى يخالف الذين كانوا يعزون تشاؤمه إلى سوء الصحة وقسوة الظروف ، وقال فى ذلك « سأظل أحارب قبل أن تمضى بى الموت هذه الفكرة الواهنة العامية ، وأطلب إلى قرائى أن يلتفتوا إلى ملاحظاتى وما أقدم من أسباب بدلاً من أن ينحوا باللائمة على أوجاعى وعللى » ولكن الذين يزنون أفكار ليوپاردى مضطرون إلى أن يدخلوا فى حسابهم وتقديرهم حياته الخاصة وما عاناه من الأوصاب والآلام .

وليوپاردى يخالف أرسطو والمفكرين الذين تبعوه فى أن الإنسان مدنى بالطبع ، والإنسان فى رأيه أقل الحيوانات ميلاً إلى الاجتماع ، وهو أكثر حيوية من سائر الحيوانات ، وهو لذلك أشد منها حباً لنفسه ، ومن ثم كان أكثر منها كراهة للاجتماع ، ووراء الدوافع الإنسانية جميعها غريزة المحافظة على الذات وتأكيدها ، وهى القوة الدافعة والنشاط المحرك ، وحرصنا على سعادتنا يجعلنا نكره الغير ، ورغبتنا فى المتعة ليس لها حدود

على حين أن الاستمتاع محدود ، ولذا لامفر لنا من خيبة الأمل ، وكلما كانت رغبات الإنسان أقوى كان الشقاء المدخر له أعظم ، وكان ما يسببه هو من الشقاء أكثر ، وليس هناك أمل فى المستقبل لأن الحضارة وما يسمى بالتقدم يضاعفان رغباتنا ، ويزيدان أثرة الناس ، ويرى ليوباردى أن السيد المسيح قد أدرك ذلك ولذا قال « مملكتى ليست فى هذه الدنيا » فالإنسان غارق فى أثرته الفارغة التافهة وبأس شرير .

والشاب الناشئ ينهض من بين كتبه وفى مأموله أن سيعيش عيشة سعيدة فاضلة راضية ، ولكن سرعان ما تعلمنا الحياة جميعاً درسها المر القاسى فنرى الأثرة الكالحة التى لاتلين ولا ترحم ، والعداوة والحسد ، والسباب والغيبة والخداع والغش ، فتتبدد أوهامنا ، وتنجلى غيابة أحلامنا ، ونفقد الطمأنينة ، ونسلب الراحة والتسلى ، ويبدو لنا أن العدالة والوطنية والمجد واليقين والحب جميعها أوهام واهم وأضغاث أحلام ، ونرى أننا ننشد سعادة لاتنى تفر منا ، وتبعد عنا ، ونضطر إلى أن نعترف بأن منزل السعادة قائم على الرمال .

وفكرة وجود عناية مشرفة على أحوال الدنيا فى رأيه وهم من الأوهام وقد ظن الإنسان أنه غرض الوجود ، وتاج الخليقة ، وأن كل ما فى الوجود قد خلق من أجله ، وسخر لخدمته ، والطبيعة ليست فى رأيه أمنا الرؤوم ، وإنما هى مصدر آلامنا ومتاعبنا وشقائنا ، ونحن لسنا سوى بضعة من المادة المفكرة طافية فى تيار العدم ، وشقاء الإنسان فى رأى ليوباردى لادافع

له ، ولا نجاة منه ، وليس من الميسور تهوين وقعه ، وإنقاص مقداره ، وحياتنا يلفها الغموض ، ويطغى عليها البؤس والشقاء .

ولكن هل الإنسان جدير بأن يرثى لحاله بعد ذلك كله ؟ كلا لأنه متوحش هدام بشع فظيع ، ديدنه الحقد والحسد والبغضاء ، فماذا يصنع الإنسان إذاً فى عالم تافه فاسد شرير لا قيمة له ، ولا خير فيه ؟ من الواضح أن أمله قد يترامى إلى عالم آخر وراء الموت أحسن من هـذا العالم الأرضى ، أو ربما أصابه التبلد وفقدان الحس ، أو انقلب كارهاً للبشر ، ساخراً من آلام الإنسانية ، أو ربما لجأ إلى الانتحار ، وقد رأى ليو پاردى هذه الطرق ولكنه أعرض عنها جميعها .

وحقيقة أنه لم يظفر بحب النساء ، ولكنه برغم ذلك لم يصبح كارهاً للبشر والدليل الواضح على ذلك حب أصدقائه له وعطفهم عليه ، والمعروف عنه أن كان صريحاً فى غير تبجح ولا قحة ، ولم تعرف نفسه الحقد ولا الضغينة قال عنه أحد أصدقائه « أخلاقه أخلاق ملك هبط الأرض » .

وقد كان عقله يقدم له الأدلة المقنعة القاطعة على أن الحياة أكذوبة وضلال ، ولكن خياله الوثاب المرح كان يعلو فوق هذه الحياة ويشع فيها الضوء ، ويحبوها الطرافة ، وبلاغة تعبيره عن أن الحياة لا قيمة لها وبراعته فى عرض مساوئها وقدرته على تقصى عيوبها كل ذلك يشعرنا بأن للحياة قيمة أو على الأقل يخلق لها قيمة ، ويخلع عليها حلة من البهاء والجمال ، ويشعل فى نفوسنا الحماسة ، ويثير الأمل ، والشاعر الكامن فى نفس

ليو پاردى كان ينقذ الفيلسوف ، و ينتقل به من مغاور الظلام إلى معارج النور ، والفيلسوف عند ليو پاردى لا يكمل إذا كان فيلسوفاً فحسب ، لأن العقل فى حاجة إلى الخيال، والحقيقة أن ليو پاردى يثير مشكلة عميقة بعيدة الأثر وتستحق أن نقف عندها ، فقد استطاع عقله أن يواجه حقيقة أن الحياة لا قيمة لها ، ولكنه صادف لغزاً لم يدر كيف يعالجه وهو أن الحياة لو كانت تافهة ومتاع الغرور ولا قيمة لها كما يقنعنا العقل أ كان يمكن أن يعبر عن تفاهتها و إقفارها بتلك البراعة البارعة والبلاغة البالغة والتفوق المحلق الذى نعهده فى كبار الشعراء والكتاب والفلاسفة ؟ وهل الحب والجمال والفضيلة والعدالة والمجد والحق جميعها أوهام قد أبدع وصفها الخيال وأجاد تصو يرها ؟

ولعلنا نسىء فهم فلسفة ليو پاردى إذا اكتفينا بأن نسلكه فى عداد المتشائمين الناقمين ، وقد لمح ذلك الناقد الإيطالى الكبير فرانشسكو دى سانكتيز فى قوله عن ليو پاردى « يحدث ليو پاردى تأثيراً مناقضاً لما كان يقصد إليه ، فهو لا يعتقد بالتقدم، ولكنه يجعلك ترغب فيه، ولا يؤمن بالحرية ولكنه يحببها إليك ، وهو يسمى الحب والمجد والفضيلة أوهاماً ولكنه يثير فى نفسك الحنين إليها والحرص عليها ، وتشعر بعد مغادرته أنك خير مما كنت قبل أن تلقاه ، ولا تقترب منه دون أن تستجمع أفكارك وتطهر نفسك حتى لا يستولى عليك الخجل فى حضرته ، وهو لا يرى إمكان أن يكون مستقبل وطننا أقل حلوكة ظلام ولكنه مع ذلك يحرك فى نفوسنا بواعث

حبه ، ويحفزنا إلى النهوص بنبيل الأعمال ، وهو سيئ الظن بالطبيعة الإنسانية ولكن روحه السامية العذبة المهذبة النقية الزكية تشرف الإنسانية وتسمو بها » فوراء يأس ليو پاردى قلب ينبض بالأمل ، وعقل حافل بالأفكار الكبيرة ، وقوة مبدعة تخلق الصور النابضة بالحياة والشباب والجمال ، وتعمر الديمومة القفر ، وتؤنس الوحشة الرهيبة ، والمحاورة الآتية ترينا لوناً من أدبه ، ونمطاً من تفكيره ومذهبه : —

محاورة بين روح الهواء وروح الأرض

روح الهواء .

ما هذا ! أنت هنا ؟ وإلى أين تقفزين ؟

روح الأرض .

أرسلنى والدى لأبذل الجهد فى الوقوف على ما يكيده لنا هؤلاء الأدميون الفجرة ، وهو يرى بثاقب فطنته أنهم يبيتون لنا الشر فقد غبر عليهم زمان طويل وهم فى سكون مطبق مما أثار دهشتنا ، ولم يظهر أحد منهم فى العالم السفلى ، ووالدى يستريب بهم ، ويرى أنهم عاكفون على ابتداع حيلة لإيذائه ، إلا إذا كانوا قد عادوا إلى عادتهم القديمة فى المقايضة بالسائمة بدلاً من الذهب والفضة ، أو ربما اكتفى المتحضرون فى هذه الآونة بالحوالات والسندات ، واستغنوا بها عن النقود كما كانوا يفعلون ، أو اعتاضوا عنها بحبات الخرز كما هى الحال عند المستوحشين

روح الهواء .

عبثاً تحاولين البحث عنهم فقد هلكوا و بادوا .

روح الأرض

بالله ماذا تعنين بذلك ؟

روح الهواء .

أعنى أنهم انقرضوا جميعاً .

روح الأرض .

هذا هراء ، ولو حدث شىء مثل هذا لذكرته الجرائد ، وأنا لم أسمع شيئاً قط عن هذا الحادث .

روح الهواء .

الجرائد ! أأنت غبية إلى حد أنك لا تعرفين أن الجرائد لن تظهر مادام الإنسان قد هلك .

روح الأرض .

نعم هذا حق ، ولكن كيف نقف الآن على أخبار الدنيا ؟

روح الهواء .

أى أخبار تريدين سماعها الآن ؟ أغربت الشمس أم أشرقت ، وهل الجو حار أو بارد ، وهل أمطرت السماء وتساقطت الثلوج وهبت العواصف الشديدة ؟

والآن وقد انقرضت السلالة البشرية استراح الحظ ، وأزاح العصابة عن

عينيه ، واستعاض عنها بنظارات ، وربط عجلته إلى أحد الأبواب ، وجلس مضموم الذراعين ، يتأمل أحوال الدنيا دون أن يشترك فيها ، فليس الآن ثمت من ممالك ودول تنتفخ وتتضخم ثم تختفى اختفاء فقاقيع الصابون ، ولقد اندثر أثرها وطمست معالمها فلا حروب ولا جهاد ، وكل سنة الآن تشبه سابقتها كما تشبه البيضة البيضة .

روح الأرض .

ولكننا لا نستطيع أن نعرف أيام الشهر إذا لا نتائج الآن .

روح الهواء .

ولكن ما خطر ذلك ! إن القمر سيتابع سيره دون أن يعوقه عائق .

روح الأرض .

ولكن الأيام ستفقد أسماءها .

روح الهواء .

ماذا ! أتظنين أن الأيام تقف عن دورتها إذا نحن لم ندعها بأسمائها ! وربما دار فى خلدك أنها إذا مرت مرة يمكن إرجاعها بالنداء !

روح الأرض .

ولكننا لن نستطيع عدّ السنين

روح الهواء .

فى هذه الحالة يمكننا أن نعد أنفسنا صغيرات السن بعد أن يطول عمرنا ، وفوق ذلك فإننا حينما نعجز عن قياس الماضى يقل اهتمامنا به ، و إذا بلغنا

الشيخوخة لا نظل نترقب الموت من يوم لآخر .

روح الأرض .

ولكن كيف كانت خاتمة هؤلاء المنا كيد ؟

روح الهواء .

لقد أبادتهم الحروب المتوالية ، و بعضهم غرق فى الأسفار البحرية والرحلات البعيدة ، وفريق آخر منهم هلكوا لأنهم أكلوا بعضهم بعضاً ، وانتحر منهم فريق ، و بعضهم أنهكوا أذهانهم بإدمان المطالعة ، والبعض أودت به البطنة ، وقصارى القول أنهم هلكوا بإتيانهم كل ما فى طاقتهم لإغضاب الطبيعة وجلب الهلاك .

روح الأرض .

لم أستطع أن أفهم من مضمون كلامك كيف أن شعباً من الحيوانات ينساق برمته إلى الهلاك والانقراض على هذه الصورة العجيبة .

روح الهواء .

لقد كنت أظن أن من كان مثلك « چيولوچيا » محنكاً لا يرى فى هذا شيئاً غير مألوف ، وأنواع كثيرة من المخلوقات التى غشيت الأرض غير موجودة الآن ، ولا يوجد لها أثر إلا فى حفريات الأرض ، وهذا بالرغم من أن هذه المخلوقات التاعسة لم تلجأ إلى حيلة من الحيل العديمة الحصر التى كان يلجأ إليها الإنسان لجلب الهلاك .

روح الأرض .

أظنك على حق ، ولكنى أريد أن أقول إننى أود لو أنه أتيح لحشرة أو لحشرتين من هؤلاء الآدميين أن تعودا إلى الحياة ولو لم يكن ذلك إلا لنعرف ماذا يقولان عند ما يجدان أنه بالرغم من هلاك النوع البشرى فإن كل شىء لا يزال سائراً فى مجراه كما كان الأمر من قبل فى هذه الدنيا التى كانوا يظنون أنها خلقت من أجلهم .

روح الهواء .

إنهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن الدنيا خلقت فى الحقيقة لأجل هوام الهواء .

روح الأرض .

إسمحى لى أن أسترعى نظرك إلى ما فى كلامك من الخلط إذا كنت تجدين.

روح الهواء .

ماذا تعنين بذلك ؟ أنا أجد فى كلامى .

روح الأرض .

أصلح الله حالك أيتها الهازلة الصغيرة ، إن صبية المكاتب يعلمون أن الدنيا لم تخلق إلا لحشرات الأرض .

روح الهواء .

حقيقة لحشرات الأرض التى تعيش على الدوام تحت الأرض ! هذا

هزل ، ماذا تستفيد حشرات الأرض من الشمس والقمر والهواء والبحر والسهول ؟

روح الأرض .

وأنا أريد أن أعرف ما الذى تستفيده حشرات الهواء من مناجم الذهب والفضة وسائر محتويات باطن الأرض ؟

روح الهواء .

سواء استفادت أو لم تستفد فلنترك الخلاف فى هذا ، وإنى متأكدة أن الضب والبعوض وسائر الحشرات تتصور أن الدنيا بأسرها خلقت من أجلها ، فلندع كل مخلوق يستمسك برأيه إذ لا يستطيع أحد أن ينتزعه من رأسه ، وأنا أقول بالإصالة عن نفسى إننى لو لم أولد من حشرات الهواء لانفطر قلبى .

روح الأرض .

وأنا كذلك لو لم أولد من حشرات الأرض ، ولوددت أن أعرف ماذا عسى أن يقولوا الآن فى ادعائهم ملكية الأشياء ، ذلك الادعاء الذى كان يستحثهم على بسط أيديهم فى كنوز الأرض وانتهابها زاعمين أنها من فيئهم ، وأن الطبيعة إنمـا خبأتها فى باطن الأرض لتختبر قدرتهم فى التنقيب عنها وإخراجها .

روح الهواء .

هذا حالهم ، ولست أدرى لماذا بلغت بهم القحة إلى حد أنهم لم يكتفوا

بأن يتصوروا أن كل شيء على الأرض إنما جاء لمنفعتهم فحسب بل توهموا أن الخليقة بأسرها ليست إلا سفاسف إذا قيست بهم ، ولقد كانوا يسمون الانقلابات الضئيلة التى تنتاب أحوالهم ثورات عالمية ، وأطلقوا على تاريخ أقوامهم وأممهم اسم « تاريخ الدنيا » مع وجود أنواع كثيرة أخرى من الحيوان على الأرض — بغض النظر عن الحشرات — تعادلهم فى الكثرة، ومع هذ كله فإن هذه الحيوانات التى كانوا يظنون أنها لم تخلق إلا لمنفعتهم لم تحس بهذه الثورات العالمية .

روح الأرض .

وهل استيقنوا أن البعوض والبراغيث خلقا لمنفعتهم ؟

روح الهواء .

أى نعم ، لأجل أن يتعلموا الصبر !

روح الأرض .

فكأنهم لولا وجود البراغيث لما وجدوا شيئاً يجربون به صبرهم .

روح الهواء .

ولقد وصلت الغلظة بأحدهم — وهو المدعو كريسبس — إلى حد أن يقول إن الخنازير ليست إلا بضعة من اللحم جهزتها الطبيعة ليلتهمها الإنسان ، وإن الحياه لم تمنح لها إلا لحفظها من التلف مثلما نضع البهارات والتوابل فى الطعام خشية العفن والفساد .

روح الأرض .

لو كان فى ذهن كريسبس المذكور ذرة من الملح بدلاً من هذا الخيال اليقظ لما فاه بمثل هذا الكلام .

روح الهواء .

وهناك فكرة أخرى ممتعة ، وذلك أنه يوجد عدد لا نهائى من المخلوقات الحية لم ينظرها هؤلاء الذين ادعوا السيادة وظهروا بمظهرها ، بل إن وجودها نفسه كان مجهولاً عندهم ، إما لأن هذه المخلوقات تعيش فى أماكن لم يطرقها الإنسان ، وإما لأنها من الضؤولة بحيث لا تراها العين العارية ، والآلاف المؤلفة من هذه المخلوقات لم تعرف إلا فى الأزمنة الحديثة ، ويصدق هذا القول على النباتات ، وليس هذا كل ما فى الأمر ، لأنه بعد أن مرت أجيال واخترع المنظار المكبر واطرد رقيه فاهتدوا به إلى مواقع عدد قليل من النجوم والأجرام التى كانوا يجهلونها منذ آلاف السنين أسرعوا فأدرجوها فى قائمة ممتلكاتهم متوهمين أن هذه الأجرام السماوية ليست سوى مصابيح وشموع قد زينت بها السماء لترسل الضوء إلى حضراتهم إذ من الضرورى لهم أن يشغلوا أنفسهم حتى فى أثناء الليل .

روح الأرض .

هذا حق ، ومن هذا القبيل أيضاً أنهم حينما يبصرون فى ليالى الصيف النيازك تمرق فى عرض السماء أظنهم يقولون إنها أرواح صاعدة إلى السماء لتصلح الشموع حرصاً على راحتهم .

روح الهواء .

صحيح ، ولكن الآن وقد عفا أثرهم فإن الكون لم يحفل بهم ولم يشعر بحاجة إليهم ، فالأنهار لا تزال تجرى كعادتها ، والبحر و إن لم يعد يستخدم للاحتهم فإن مياهه لم تغض ، وهذا لعمرى مما يدهش .

روح الأرض .

ولا تزال النجوم والأفلاك كدأبها تشرق وتغرب ، ولم تلبس عليهم ثياب الحداد .

روج الهواء .

والشمس لم يعل صفحتها الصدأ كما فعلت يوم مات قيصر فى زعم ڤرچل ، ومن رأيى أنها لم تحفل به مثقال ذرة أكثر مما حفلته بتمثال پومپى .

بين التردد والعزم

يعجب الناس بالرجل القليل التردد ، السريع البت فى الأمور ، الذى يصدق فيه قول شاعر الحماسة :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه   وأعرض عن ذكر الحوادث جانباً

ويستخفون بالرجل الهيابة المتردد، كأن سرعة إدراك الطريق السوى والخطة الموفقة ، والاندفاع إلى العمل ، بين ثوائر الظنون ومختلف الشكوك ، هى وحدها الصفة الخليقة بالتمجيد والإطراء ، وقد اخترعوا أسطورة طريفة لبيان مساوئ التردد ، وعزوها ظلماً إلى العالم الفرنسى بيريدان ، وهى أسطورة ذلك الحمار المسكين الذى وجد نفسه واقفاً على مسافتين متساويتين بين حمل من القرطم ودلو من الماء ، وقد نال منه السغب ، وبرح به الأوام، وظل تتجاذبه الدوافع ، ويتنازعه سعار الجوع ، وحرقة الظمأ حتى نفق دون أن يرثى له أحد ، وبقى مصرعه الفاجع أمثولة الضعف والفشل ، وأضحوكة الأجيال المتوالية .

والتردد فى رأى أكثر الناس مدعاة الإخفاق وإضاعة الفرص ، وفى التردد فساد الرأى وإحباط التدبير كما فى قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأى أن تترددا

بل فى التردد ما هو أدهى من ذلك وأشد ، فقد يميت التردد الإنسان حزناً وغماً ، كما قال سلم الخاسر فى ذلك المعنى الذى سلخه من بشار ابن برد :

من راقب الناس مات «غماً» وفاز باللذة الجسور

ودواوين الشعر ومدونات الأدب وأقوال الحكماء حافلة بإطراء العزم الماضى والهمة التى لاتنثنى ، والضربة التى لاتعاد ، على أن الأدب — كما هو معروف — يصلح لتزكية كل رأى و تزيين كل خطة ، وفى الأدب ما يبين قيمة التردد والتروية وسياسة الأمور فى رفق وأناة وتقليبها على وجوهها المختلفة وقتلها بحثاً وعلماً ، ولكن النغمة الغالبة على الشعراء والكتاب هى إيثار الهمة التى لاتتراجع ، والعزم الذى لاينكل ، وينصح الأخلاقيون الناس بأن يدرسوا الأمور دراسة وافية ، ويحيطوا بها إحاطة تامة ، فإذا انتهوا فى أعقاب ذلك إلى رأى واطمأنوا إليه بادروا إلى تنفيذه فى غير روية ولا تردد ، ونحن جميعاً نعجب بمواقف الرجال ذوى المبادئ الثابتة والعقائد المتينة الذين لم يترددوا عند استهدافهم لكيد المستبدين وقسوتهم ، ولم تلن قناتهم ، وظلوا أوفياء لما يعتقدونه حقاً .

وجمهرة الشعراء والروائيين والمؤرخين لايرتضون أن يصوروا بطلهم فى صورة الحائر المتردد ، فإذا عرض فى تاريخ حياة البطل الذى يكبرونه موقف من مواقف التردد حاولوا إخفاءه أو تهوين أمره وتلطيف وقعه ، واستنبطوا منه حكمة سياسية أو عظة أدبية ، وفى عصرنا الحاضر شكت

بعض الأمم فى قدرتها على تفريج الأزمات الاقتصادية وحل المعضلات السياسية ، ولم تحتمل مع ذلك عبء التردد فى تناول المشكلات و إبرام الأمور ، وحاولت أن تستمد العون من قوة خارجية ، وهذا من أقوى الأسباب التى مهدت السبيل للديكتاتوريات الحديثة .

فالتردد مكروه ومنبوذ من الناس ، ولكنه فى الواقع عنصر من عناصر تكوين العزيمة ، وعامل من عوامل إمضاء الأمور ، و برغم ما وجه إليه من المطاعن ورمى به من المثالب لانستطيع أن ننكر الدور الهام الذى يلعبه فى خلق طرف الفن ، والاهتداء إلى ابتكارات العلم ، وفى مختلف فصول الحياة وأدوار العمر .

وكبار الفنانين وأعالى المفكرين أدرى بالتردد وأعلم به لما عانوه منه ، فطالما ترددوا بين قمم الأمل وهاويات اليأس ، وطالما ذاقوا لذة التوفيق والانتصار وتجرعوا مرارة الترقب وذل الانتظار ، فأى تردد يعانيه الفنان قبل أن تسعفه عبقريته وتنبعث عزيمته ؟ وأى شك يساور المفكر قبل أن يسعده الإلهام و يتسق له الرأى ؟ وكل فنان مطبوع قد عانى تردد الضعيف و إقدام القوى ، وعرف رعدة الخوف و برودته ، وهزة الأمل وحرارته ، وكبار الفنانين ونوابغ المفكرين وعباقرة العلماء لم يكونوا رجالاً قد صيغت نفوسهم من الحديد وقدت من الصخر ، فهم يتجهون إلى أغراضهم بلا تردد ، و ينجزون أعمالهم بغير أناة ، وطالما أعياهم التردد وساورهم الشك ، وصابروا مختلف الحالات النفسية ، بين مد الأمل وجزره ، شأن القوة الخالقة المبتكرة

فى هبوطها وتساميها و إقبالها و إدبارها ، وقد عرف عظماء رجال الدين ومشاهير القديسين تلك الأزمات المؤلمة الرهيبة التى غام فيها الشك على نفوسهم ، ودب اليأس إلى قلوبهم قبل أن يهتدوا إلى الطريق و يعمر قلوبهم الإيمان، ولو تحرى المؤرخون الصدق ، وتجافوا عن المبالغة ، واخترقوا ببصيرتهم ما وراء المظاهر الخادعة المحوا فى حياة جبابرة الفاتحين من طراز أتلا وجنكيز خان وتيمورلنك ونابليون وقيصر والإسكندر أثر التردد بين مختلف البواعث ، ولاكتشفوا خلف ما يبدو عليهم من صلابة العزم ، وعدم المبالاة بالعواقب تلك الحرب الخفية المحتدمة بين الإقدام والإحجام والعزم والتردد .

وقد فطن لذلك چياكومو ليوپاردى أعظم شعراء إيطاليا فى القرن التاسع عشر . فصور حالة التردد وانكسار العزم التى ألمت برجل من أمضى من عرفت الدنيا عزيمة وأصدقهم إقداماً ، وهو كريستوف كولمب ، فى محاورة خيالية بينه و بين أحد أتباعه فى رحلته التاريخية المأثورة ، وسيرى القارىء فى هذه المحاورة الخيالية فى الوضع والتصوير والحقيقية فى الجوهر واللباب كيف لعب التردد والشك دوراً ظاهراً فى حركة من حركات الكشف الخالدة ، وفى رحلة من الرحلات البالغة الأثر ، الخطيرة النتائج ، وقد استنجد فيها ليوپاردى خيال الشاعر الملهم، و إحساس الفنان المرهف ، وصور ما تردد فى نفس كولومب من الشكوك صورة شعرية رائعة مقنعة .

وإلى القارئ المحاورة المذكورة وقد اخترتها من « محاورات ليوپاردى» التى نقلها من الإيطالية إلى الإنجليزية پاتريك ماكسويل :

كولمب : إنها ليلة غراء يا صاحبى !

جوتيريز : حقاً إنها لكذلك ، وستزداد جمالاً لو أبصرنا الأرض !

كولمب : أقسم أنك على حق ، وأنت كذلك أدركك الإعياء من هذه الرحلة ؟

جوتيريز : لم أسأم مجرد الرحلة ، ولكن رحلتنا هذه قد أخذت تطول أكثر مما كنا نقدر، وأقل ما يقال فيها إنها أصبحت مملة ، ولكنى رغم ذلك لن أشترك مع الآخرين فى لومك وتعنيفك ، وثق بأنى سأنصرك كما فعلت من قبل بكل ما فى من قوة ، وبكل ما ملكت يمينى ، مهما كان من الأمر ، وما دمنا قد تطرقنا فى الحديث إلى هـذا الموضوع فإنى أرجو أن تصارحنى ألا تزال متأكداً من وجود أرض فى هذه الناحية أو أن الشك قد أخذ يتسرب إلى نفسك بعد خيبة الأمل المستطيلة ؟

كولومب : إذا شئت الصراحة ، وهى ما أستطيعه فى الحديث مع صديق راجح العقل مثلك ، فإنى أعترف بأن الشك قد دب إلى نفسى من هذه الناحية ، ويزيد فى الشك أن علامات خاصة أثارت فى بادىء الأمر كبير أملى قد أخلفت رجائى وعكست ظنونى ، منها أسراب الطيور البحرية التى مرت بنا طائرة مقبلة من الغرب ، بعد أن برحنا جوميرا بأيام قلائل ، فقد خلتها علامة دالة على قربنا من الأرض ، ولكنى خدعت

فى ذلك ، وهكذا كل يوم أرانى واهماً مخدوعاً فى علامة من العلامات التى اعتقدت من قبل أنها ستبدو لنا فى أثناء الرحلة ، ومن ثم قد بدأت أقول لنفسى إنه ما دامت تلك التقديرات المنظورة التى كنت واثقاً بهـا ومتأكداً من صحتها قد غررت بى فإنه من المحتمل أنى قد خدعت فى تقديرى وجود أرض فى الجانب الآخر من المحيط ، ومع ذلك فإن هذا التوقع قائم على أساس هو من القوة والمتانة بحيث إنه إذا ثبت أنه خاطىء فإننى لن أعتمد بعد ذلك على أى استنتاج إنسانى لا يقوم على البرهان المنظور والملامسة المحسوسة .

وإنى مضطر فى الوقت نفسه إلى التسليم بأن الحقيقة كثيراً ما تبعد بعداً شاسعاً عن تصورنا لها ، وأنا أسائل نفسى : كيف نستطيع أن نثق بأن كل جزء من أجزاء الدنيا يشبه الأجزاء الأخرى ، أو أن النصف الغربى منها يلزم أن يكون به يابس وماء لمجرد كون القسم الشرقى منها كذلك ؟ ونحن لا ندرى فربمـا كان أقيانوساً متسعاً مترامياً ، وربما كان مكوناً من عنصر آخر غير الماء واليابس ، وإذا كان به أرض ومياه فلسنا ندرى أعامرة هى بالسكان أم خالية منهم، وإذا كانت عامرة بالناس مثل بلادنا فلست أدرى أسكانها قوم لهم عقول مثلنا أم هم نوع آخر من أنواع المخلوقات ، وربما كانوا يتفوقون علينا فى الطول والقوة ورشاقة الحركة ، وربما كانوا أرقى منا عقلاً وأسمى روحاً وأعظم حضارة وأسبق فى مضمار العلوم والفنون .

وقد ملأت عقلي هذه الشبهات والظنون ، والحق أن قوى الطبيعة كثيرة منوعة بحيث لا يستطيع الإنسان أن يكون أفكاراً مقطوعاً بصحتها عن مدى تصرفاتها وأعمالها فى الأصقاع المجهولة ، والأكثر تمشياً مع العقل أن نفترض أننا عرضة للتورط فى الخطأ عندما نقيس ما لا نعلم ، فقد يكون ما نجهله مختلفاً فى طبيعته كل الاختلاف عما نعرفه ، مثال ذلك أننا فى هذه المياه قد رأينا بعيوننا أن الأبرة الممغطسة تنحرف عن ناحية نجم القطب وتميل ميلاً إلى ناحية الغرب ، وهذا شيء جديد بالإضافة إلينا ، وغير معروف عند الملاحين ، وكلما فكرت فيه عجزت عن تعليله ومع ذلك فإنى لا أرى قيمة لتلك الخرافات التى رددها القدماء عن عجائب العالم غير المنظور ، ومن أمثال تلك الخرافات الأوهام المفزعة التى ملأت عقول زملائنا فى هذه الرحلة ، وكل ما أريد أن أوضحه لك هو أن تقديراتى — ولو أنها قائمة على احتمالات دقيقة — لا فى رأيى وحدى وإنما فى رأى صفوة الجغرافيين والفلكيين والملاحين الذين تحدثت إليهم وناقشتهم — أقول إن تلك التقديرات قد يثبت بطلانها ، لأننا وجدنا أن كثيراً من النتائج المستنبطة من مقدمات سليمة فى ظاهرها قد زيفتها التجربة » .

جوتيرز : موجز القول إذاً هو أنك قد خاطرت بحياتك وحياة رفقائك فى مشروع ليس له سند من الحق أكثر مما لأية فكرة نظرية محضة !

كولومب : نعم — هذا هو الواقع الذى لا أستطيع إنكاره ، ولكن

إذا طرحنا من فكرنا أن الناس فى كل يوم يعرضون حياتهم للخطر من أجل أشياء زائلة وأغراض تافهة أو لغير غرض على الإطلاق فإنى أريدك على أن تفكر قليلاً فى هذه المسألة وهى : إذا لم نكن جميعاً على ظهر هذه السفينة وفوق متن المحيط فى هذه العزلة المحفوفة بالشكوك والأخطار ففى أى أحوال أخرى كنا نكون ؟ وما الذى كان يشغلنا ونزجى به الوقت ؟ أترانا كنا نكون سعداء ! يبدو لى أنه من المحتمل إلى حد كبير أننا كنا نكون فى خطر أعظم وهم أفدح مما يحيط بنا الآن؟ وربما كان استولى علينا الملل الذى لا يطاق ولا يحتمل ، وما معنى حالة الانطلاق من إسار الشكوك والأخطار ! إذا كان معنى ذلك نيل السعادة والاستمتاع بالقناعة وراحة البال فإنى أسلم بأنها أفضل جميع الحالات ، ولكن إذا كانت هذه الحالة اسماً آخر للرقابة المملة والسأم المضوى فإنى أصر على أن أية حالة أخرى أفضل منها .

ولا أقول شيئاً عما نناله من المجد ، وما يعود على غيرنا من النفع لو نجح مشروعنا كما نؤمل ، وإذا لم نجن من رحلتنا هذه ثمرة فيكفى أنها أماطت عنا غبار الكسل وصدأ الخمول ، وعلمتنا كيف نقدر النعم السابغة التى كنا نسترخصها ونستهين بها .

ولعلك قرأت أو سمعت ما كتبه القدماء عن المحبين الذين فشلوا فى حبهم ، وكيف كانوا يلقون بأنفسهم من فوق صخرة سانتامورا ، وكان فى اعتقادهم أن الذى ينجو من هذه الوثبة اليائسة يبرأ من علل الحب اليائس

ببركة الإله « أپولو » . ولست أدرى أ كانوا بعد ذلك يتقلبون فى أعطاف النعيم أم لا ، ولكن الذى أعلمه أنهم لو نجوا من الموت لحرصوا على الحياة التى نبذوها من قبل أشد الحرص دون أن يستعينوا على ذلك ببركة «أپولو» وأنا الآن أشبه رحلتنا هذه بوثبة من تلك الصخرة ، وهى تحدث نفس التأثير ، وسيكون تأثيرها أبقى وأدوم .

ومن المعتقدات السائدة أن الملاحين والجنود لا يحرصون على الحياة لكثرة استهدافهم للأخطار وطول تعرضهم للموت ، ولكن الأمر على نقيض ذلك ، فهم من أجل ذلك يقدرون الحياة و يحرصون عليها ، ونحن ننظر بدون اكتراث لكثير من النعم التى فى متناول الأيدى ، ولكن الملاح يحسن تقديرها لأنه قد حرم منها ، ونبئنى من من الناس يرى أن الوقوف على قطعة من الأرض اليابسة نعمة سابغة غير الملاح ؟ أليست رؤية اليابس هى الآن أول فكرة تملأ نفوسنا عند ما نستيقظ من النوم وآخر فكرة تمر بخاطرنا عند ما يغشانا النوم! ولو أبصرنا يوماً قمة جبل أو شاهدنا منظر غابة لاستطارنا الفرح ، ولو لمست أقدامنا الأرض فإننا سنظل زمناً شاعرين بالغبطة والسعادة .

جوتيريز : كل هذا حق ، و إذا كانت فروضك النظرية قائمة على أساس مكين مثل تسويغك لها ودفاعك عنها فسوف نظفر ببغيتنا ونحظى بهذه النعمة .

كولومب : أما من ناحيتى فإنى أشعر شعوراً قوياً باقترابنا من الأرض

ولو أنى لا أستطيع أن أثق الثقة كلها بهذا الأمل ، ومنذ أيام لمس جهاز سبر الأعماق مادة تدل دلالة واضحة على ذلك ، وقد بدا لى فى المساء أن ألوان السحب الحافة بالشمس وأشكالها مختلفة عما كنت أعهده من قبل ، وقد رق الهواء واعتدل وهدأ عصف الريح كأن عائقاً مادياً يعترض هبوبها ، وقد شاهدنا أمس قصبة طافية على سطح الماء وقد حفر عليها رسم ، وقد بدأت أسراب الطيور تكثر يوماً فيوماً ، وقد خدعتنى من قبل ، ولكن مظهرها فى هذه المرة يبعث على الأمل ، ويزيدنى ثقة بذلك الأمل أننى رأيت بينها طيوراً لا تدل أشكالها على أنها طيور بحرية ، وبالاختصار برغم عدم ميلى إلى الإسراف فى الأمل قد أخذت هذه الدلالات تملأنى ثقة ورجاء .

جوتيريز : أرجو من الله أن يحقق آمالنا هذه المرة .

فلسفة مازاريك

لم يكد ينقضى شهران على الأزمة العصيبة العسراء التى عانتها الجمهورية التشيكوسلوفاكية الأخيرة فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ حتى مضى الموت بكاتبها الكبير كارل كابك بعد أن ذاعت شهرته، وعرف له نقاد الأدب فضله واعترفوا بمكانته، ونقلت كتبه ورسائله إلى مختلف اللغات، وصادفت رواجاً وإقبالاً فى شتى البيئات، وقد كان كابك مقرباً من زعيم تشيكوسلوفاكيا الكبير مازاريك، وقد تولاه بالرعاية وكفله بالتشجيع، وأنزله من نفسه أسمى منزلة، ولم يمت كابك عن سن عالية فإنه لم يتجاوز الثامنة والأربعين وقد هدمت منه الأحداث التى نزلت بأمته وضاعفت علته، فلم يثبت للمرض ولم يكن كابك صديق مازاريك وحده وإنما كان كذلك من أوفى أصدقاء الجمهورية، ومن أشد الناس تعلقاً بها وأقواهم حماسة فى نصرتها، وكان أكبر ممثليها والذائدين عنها بين رجال الأدب وحملة الأقلام، وقد كادت حياته أن تكون متصلة بحياتها مستمدة من أصولها، وذلك برغم أنه لم يشترك فى السياسة اشتراكاً فعلياً ولم يشهد مشاهدها ولم يتعرض لأخطارها، وكان يعتبر لسان حال الشباب الطامح المرجو، والمعبر الأمين عن سريرة قومه، والممثل لتقاليدهم الأدبية وملكاتهم الفنية، وهو فى كتبه يعطيك صوراً

بديعة لحياتهم من الطفل الغرير إلى الشيخ المجرب ومن الفلاح الكادح في حقله إلى الفتاة البوهيمية المزهوة بجمالها ، وكابك ساخر ممتاز يلطف من وقع سخريته روح العطف الفائض في كتابته .

وقد كان الرئيس مازاريك يستزيره في قلعته وفي قصره الخلوي ليقضي عنده أمسيات أيام الجمعة ، وكانا يديران الحديث على مسائل الفلسفة وشؤون التفكير العالي في السياسة والأدب والتاريخ والدين ، وقد جمع كپك بعد ممات زعيمه خلاصة ما دار بينهما من حديث في كتاب حفيل يعد من أمتع كتبه وأبقاها ، ولعله كان آخر ما أصدره من المؤلفات ، وقد بدا لي أن أختار منه المحادثات الآتية لدلالتها على فلسفة حياة رجل عظيم يعد من رجال هذا القرن البارزين .

كابك : أترى أن يكون النظري موقوفاً على خدمة العملي ؟

مازاريك : نعم ولكني أرى كذلك أن يكون العملي موقوفاً على خدمة النظري ، والفكر النظري له قيمته حتى عندما يصعب نقله إلى عالم الواقع ، وأهمية الفهم لا تقل عن أهمية العمل ، وفي أثناء الإقبال على العمل نحصل المعرفة ، وكذلك خلال تحصيل المعرفة نمهد الطريق للعمل الموفق ، وإذا نشأ في بعض الأحيان تضارب بين النظري والعملي فلا بد من وجود خطأ وسوء فهم في ناحية من النواحي ، فإما أن النظرية غير صحيحة وإما أن التنفيذ لم يصحبه التوفيق ، وفي الأغلب يحدث الاثنان معاً ، وطبيعتي العملية تحدوني في كل وقت إلى التماس المعرفة العلمية والدراية الفلسفية ،

ولست أطلب التفكير العقيم أو اللعب بالألفاظ ، كما لا يروقني المجهود الضائع عبثاً ، وكما أن النظرية قد لا تثمر ثمرتها ولا تؤتى أكلها فكذلك العمل قد لا يسفر عن شيء ولا يأتي بنتيجة ، ومعنى الحيـاة ليس مقصوراً على العملى والنافع ، فإن الشيطان جد مجتهد ، وهو عاكف على الاحتيال ليلاً ونهاراً ، ولكنه مع ذلك غبى أحمق ، وأنا على أى حال من طلاب المعرفة الموضوعية للأشياء المعينة .

كابك : وهل ترى إخضاع العلم للأخلاق ؟

مازاريك : إنى أقول العالم لا العلم ، وكل إنسان خاضع للأخلاق ، وكل ما نعمله ونحاول فهمه واقع تحت سيطرتها ، وتعرّف الأشياء نفسه واجب أدبى مثل حبنا لجارنا وحدبنا عليه ، ونحن لا نكرم مواهب العلماء والفلاسفة ، وإنما نكبر جهادهم الهائل لأجل الحق ، وهو عمل أخلاقى ، ولذا نشعر بأن سوء استعمال العلم جريمة ، وأخلاقية العلم وفائدته هى فى أن يعمل بنية خالصة لأجل المعرفة والإهتداء إلى الحق ، والحق بطبيعته صالح للحياة عائد عليها بالخير .

كابك : نعم ولكن ربما توقف الأمر على الأسلوب الذى نجرى عليه فى استعمال الحق .

مازاريك : تريد أن تقول إن الإنسان فى بعض الأحيان يسىء استعمال العلم ويخطىء فى الانتفاع من المعرفة ، وهذا حق ، ولكنى مع ذلك أرى أن الحق قبل كل شيء ، والحق لا يناقض الأخلاق ، ولا دوام لنفع

يجيء من وراء الباطل أو ينجم من الكذب ، وليس الكذب من صفات الرجولة ، وإنما هو سلاح العاجز ، وقد يركن إليه الرجل الفظ العاتى ، أما الرجال الأقوياء فإنهم يتجافون بأنفسهم عنه ، والحق الأمين والمعرفة الصادقة لا يجيء من جرائهما شر ولا ضرر .

كاپك : ومارأيك فى العلم الذى يخدم الحرب ويعين على إشعال نارها؟

مازاريك : إن العلم لا يثير حرباً ولا يهيج شراً ، وإنما يعزى ذلك إلى نقائص الإنسان وعيوبه وضنه بأن يبذل للعلم كل ما يستحقه . ولو كانت الدنيا تهتدى بهدى المعرفة وتسترشد بالحق لبطلت الحروب وانتفت بواعثها ، ومن الجائز للانسان أن يتخذ العلم وسيلة للدفاع وتوقى الأخطار ، ولكن تسخير العلماء واصطناع القسوة والأخذ بالعنف جريمة منكرة ، ويلزم أن نفرق فى النهاية بين الحق والقوة ، والصادق والزائف ، والحقيقة والوهم ، وقد وضح لكل ذى عينين سوء أثر الحرب السالفة وما أصاب العالم من كوارثها ، ولا تزال معرفتنا للدنيا وللناس بعيدة البعد كله عن الكمال ، ولزام علينا من أجل ذلك أن نجد فى طلب المعرفة والبحث عن الحق بأمانة وإخلاص ، ولا بد من انتصار الحق فى النهاية .

كاپك : إنك مؤمن بالله مصدق بوحدانيته ، ولكن ماسبب إيمانك ؟ أصادر هو عن الشعور أم عن العقل أم عن اليقين ؟

مازاريك : إن إيمانى قائم على العقل وقد استخلصت عقيدتى من التجارب والعقل معاً .

كابك : وما دليلك على ذلك ؟

مازاريك : أقوى دليل فى رأيى هو الدليل الغائى ، لأن التسليم بوجود غاية للدنيا والحياة وحوادث التاريخ والمجهود الأدبى يفضى بى إلى الاعتراف بوجود خالق مهيمن الكمال من أسمائه ، والله نفسه هو العقل ، وقد أدرك اليونانيون ذلك عند ما انقشعت من فوق أبصارهم غشاوات الخرافات وتحررت عقولهم من إسار الأساطير والأوهام ، فقد قال أناكسجوراس إن العقل هو مبدع الكون ، ونال بذلك ثناء أرسطو الذى قال عنه إنه مثل المفيق بين السكارى .

كابك : وكيف تثبت وجود تلك الغاية ؟

مازاريك : بطريق العقل والتجربة ، وحقيقة أن أكثر الناس لا يؤمنون الإيمان كله بوجود غاية ، ولكن كيف يعيش الرجل الذى ينكر الإنكار كله وجود نظام فى الدنيا وما يترتب على ذلك من وجود غاية لكل شئ حتى لحياته ؟ إن العقل نفسه يؤكد وجود نظام فى كل شيء ، بل هو إلى حد ما ينشئ هذا النظام المعقول فى الأشياء ، والعقل بطبيعته موكل بالنظام وطلب الغاية ، وهو نفسه يصوغ الغاية وينشئ الغرض ، والقول بالمصادفة وانتفاء الغاية يناقض العقل ولا يجرى على سننه ، والعقل نفسه هو عامل النظام وموجد الغاية ، فوجود النظام الذى يتوخى القصد أمر يؤيده العقل و يشد دعائمه ، ومعرفتنا فى صميمها غائية .

كابك : وكيف تفسر وجود الألم والشر والشقاء والحروب والكوارث ؟

مازاريك : ليس من همى تفسيرها ، وإنى أعرف عجزى عن ذلك ، ولكن الفلسفة المادية ومذهب وحدة الوجود ومذهب المثنوية وسائر المذاهب المناهضة لمذهب الوحدانية ليست جميعها أقدر منى على تفسيرها ، وإنى أستمسك بتلك العقيدة لأننا لو عرضنا جميع الفروض الخاصة بمادة الدنيا وأصلها لوجدناها أبسطها وأبعدها عن التعقيد ، وخبرنى لماذا نعتد بالمؤلم ونحصى الشر والفوضى ولا نقيم وزناً لجوائب الحياة الباسمه السليمة ونواحيها الخيرة الصالحة ؟ إن نظام الدنيا به نصيب أوفر من الخير ، ولكن الإنسان يحس أن الشر أقوى مراساً وأعظم صولة ، وإنى لا أستطيع أن أفسر بأمانة ما الذى ينتفع من النقص والشر وما إليهما ، ولكنى أرى أن الإنسانية تستطيع مواجهة نقائص الحياة ومساوئها ، ولا تكون الحياة حياة كاملة إذا خلت من محاولة التغلب على العقبات العارضة والاستعلاء على الظروف القاسرة ، ولست أعتقد أن الفلسفة فى حاجة ماسة إلى تزييف مذهب التشاؤم والدفاع عن الله ، وليس الله فى حاجة إلى مدره ، والمرض والشقاء والجريمة لا تفند بالكلام ، ولا تظن أنى أغمض الطرف عن متناقضات الحياة وما بها من دواعى الشقاء وأسباب الألم ، وعند ما زرت لعهد قريب زيد ليكوفيش فى موراقيا كان يتقطر فى مسمعى تغريد العنادل الشجى المستطاب ، وعلمت هناك أن العنادل كانت تكثر من التغريد

لتوفر البعوض فى ذلك العام ، وخطر ببالى أن ذلك التغريد شكر لله لأنه هيأ لها هذا البعوض ، ونفس طنين البعوض ضرب من ضروب التسبيح لله لأنه أتاح له العنادل لتتغذى بها فى طيرانها وتحويمها ، والعقيدة الغائية مثل البندقة الصلبة الجامدة إذا أعياك كسرها فهى أسهل فى راحة يدك من المذاهب التى ترى الكون خاضعاً للمصادفة نهباً للفوضى و بطلان الغاية .

والدليل الثانى على وجود الله هو الدليل الكونى ، وذلك أننا لا نستطيع أن نتصور الكون بدون خالق ، ولا نستطيع أن نفهم منشأه وحركته وتقدمه بدون محرك أول ، ومن وجهة النظر السببية يقتضى الأمر أن يكون هناك بدء لهذه الحلقة من الأسباب ، ولا أعتبر اللا أدرية التى تقول باستحالة المعرفة تفسيراً للكون والحياة .

كابك : وهى حتى من الوجهة النفسية غير مألوفة ، وكيف لا نسمح لأنفسنا بالبحث عن الأسباب الأولى ؟ إن ذلك يذكرنى بأقصوصة القصر ذى الحجرات التسع المسموح بدخولها والحجرة العاشرة المحرم فتحها والدخول إليها ، فإن ذلك يثير الطلعة ، و يوقع فى الروع أن الحجرات التسع لا أهمية لها أو ليس فيها ما يشوق الخاطر ، وأن الحجرة العاشرة المحرمة هى بيت القصيد ومطلع الأسرار .

مازاريك : لقد أصبت الحقيقة ولمست صميم الأمر ، وقد أخطأ هيوم وكونت عند ما نبذا كل محاولة للبحث عن السبب الأول ، وقد

غالى كونت فى محاولة منع مثل هذا البحث حتى انعكست معه الآية وغاص فى الأسطورة إلى أذنيه .

كابك : وهل تكتفى فى الاستدلال على وجود الله بهذين الدليلين ؟

مازاريك : نعم ، و بتعبير أدق أقول « فرض وجود الله » والاعتقاد بوجود الله فرض أبسط وأكثر تمشياً مع المنطق من الفروض الأخرى مثل المادية وما إليها من المذاهب ، بل إنى أذهب إلى مدى أبعد من ذلك ، فإنى — موحداً — أعتقد بوجود الروح وخلودها ، ومع استيقانى من ذلك ليس عندى براهين دامغة تخترس كل إنسان ، ولكن ألا ترى إلى هؤلاء العلماء الذين ينافحون عن المادية وعن مذهب وحدة الوجود وأمثالها من المذاهب ؟ وما أحسبنى أكثر منهم عصمة وتوقياً للخطأ ولا أحسن منهم إلماماً بأطراف المعرفة ، ولا أظن أن فرض خلود الروح يناقض علم الحياة و يخالف حقائق علم النفس ، ولقد مرت بى أوقات وأنا فى مستهل الشباب كان يقلقنى و يهمنى و يقض مضجعى عجزى عن إقامة دليل لا يمكن تفنيده ولا نقضه ، ولكنى اليوم أقول لنفسى أنى استطاعتنا أن نعرف الأشياء معرفة لا يخالجها شك ولا يطوف بها تردد ؟ وماذا تكون الدنيا لو خلت من الأسرار وانكشفت مجاهلها ؟ ولو أننا اعتقدنا أننا أوتينا علم كل شىء لنفخ فينا الغرور ومشينا فى الأرض مرحاً ، وعند ما كنت أستاذاً للفلسفة كان يجىء إلى الطلبة و يسألوننى عن هذا وذاك من الأشياء ، وكانوا لا يتصورون كيف أقول لهم : لا أدرى ، وكانت

تأخذهم الدهشة من هذا الفيلسوف الذى لا يملك الجواب عن كل شىء .

كابك : ولكن إذا كان يعجزك إثبات خلود الروح فيلزم أن يكون عندك على الأقل بعض الأسباب التى تدعم بها اعتقادك .

مازاريك : نعم ! إنى لا أستطيع أن أتخيل أن المعرفة والفكر وإدراك الجمال والثقافة جميعها ضائعة فانية والعالم الطبيعى يقول إن الطاقة لا تفنى فما مصير الطاقة التى فى نفوسنا ؟ إن الروح تحرك المادة ، والعقل يهبها الصورة والشكل ويرسم لها الغاية ويستوعب الدنيا فى كليتها الشاملة ، فهل تخلد المادة وتبقى على حين تفنى الروح وتتلاشى! ألا يكون هذا من الغرائب ؟.

كابك : ولهذا الاعتبار ترى أن الحياة نفسها حجة على الموت ، حقيقة أن كل الأشياء الحية سيدركها الموت ، ولكن كل الأشياء الحية كذلك بها دافع قوى غلاب إلى طلب الحياة ، وإلى أن تعمر وتمتد حياتها ، وإلى أن يطول أجلها دون أن يطرأ عليها تغيير ، والنبات يعيش حياة ثانية فى بذوره ولا يفقد شيئاً من مميزاته وخصائصه ، فكيف لا ترث الروح وحدها نفسها ولا يتاح لها البقاء والاستمرار ؟ لا ريب أن هذا غير طبيعى .

مازاريك : فى وسعك أن تقول إن أعمالنا تحيا بعدنا ، ولكن كم من الناس هؤلاء السعداء الذين يخلفون أعمالاً جليلة ومآثر باهرة للأجيال اللاحقة ؟ فالبعض يغتضر فى باكورة الشباب ، والبعض لا تتاح له الفرصة لإظهار مواهبه ، ولا أعتقد أن القوة الكامنة فيهم تذهب عبثاً وتتبدد هباء لأن هذا ظلم جائر وغبن شديد .

سياسة فيلسوف

العصر الحاضر من العصور التى اشتدت فيها العناية بدراسة السياسة والوقوف على مذاهبها المختلفة واتجاهاتها المتعارضة ، وقد كان هذا الاهتمام المتزايد نتيجة مرتقبة لذلك القلق العميق والاضطراب الداخلى المستولى على الروح الإنسانية فى هذا العصر ، وقد قام كثير من الأمم بعد الحرب الكبرى السالفة بتجارب جديدة فى صناعة الحكم واتبعت أساليب مستحدثة تحدت بها النظم القديمة التى ظلت زمناً فوق منازع الشك ، وقد رأيت من المناسب أن تقف فى تلك الفترة على أراء زعيم خطير وسياسى مُنَجَّذ مثل توماس مازاريك ، ويزيد فى قيمة آرائه أنها لم تستمد من حفير الكتب ولم تتكون فى أبهاء المطالعة وحجرات الدراسة وإنما تكونت فى ضوء الحوادث الجسيمة ، وهى ثمرة تجربة طويلة وخبرة عريضة ، وسيتبين القارىء من معاريض أحاديثه أنه لا ينتسب إلى مدرسة مكيافلى المعروفة ، ولا يرى "ذلك التفريق بين السياسة والأخلاق الفاضلة الذى يبلو العالم اليوم المر من ثمراته" ، ويذهب بعض المفكرين السياسيين إلى أن السياسة فرع من علم النفس لأننا إذا عرفنا الكثير من الحقائق عن الطبيعة الإنسانية أمكننا أن نستنبط النظم الملائمة لها ، ولكن مازاريك يرى أن الدراسة التاريخية لها

المكانة الأولى لأن التاريخ عنده هو سجل الحقائق وهو زاخر بالحقائق النفسية القيمة لمن يعرف كيف يقرؤه ، وإذا جهلنا التاريخ فإننا لا نستطيع أن نتبين الأثر العملي للدوافع والمحركات النفسية والتبس علينا تقدير نتائجها ، والنظرية السياسية التي تكتفي بالبحث عن الطبيعة الإنسانية وتتخذها أساساً لاختيار القوانين والنظم تمنى في أغلب الحالات بالفشل والإخفاق ، وعلم السياسة إنما هو ضرب من فلسفة التاريخ ، وكبار فلاسفة العالم السياسيين كانوا يستمدون فلسفتهم السياسية من التاريخ مثل هوبز ولوك وروسو وكارل ماركس ، فالسياسة عند مازاريك يلزم أن تدرس في ضوء التاريخ وأن تقوم على أساس تنظيم نتائج تجارب الحكم عند الحكومات والدول المختلفة ، وقد بسط جانباً من هذه الفلسفة في المحاورة الآتية — وهي مختارة من أحاديثه مع صديقه الكاتب الكبير كارل كابك — وقد استطاع كابك — قبيل وفاته بقليل — أن يقدم للعالم بهذه المحادثات خلاصة وافية لآراء زعيم بلاده في السياسة والاجتماع والفلسفة وأن يرسم لنا خلالها صورة دقيقة الملامح ، ناطقة السمات ، قوية الأثر ، لذلك الزعيم النابه والمفكر الممتاز : —

كابك : هل تعتقد أن شريعة الحب تصلح في السياسة وفي الحياة الخاصة على السواء .

مازاريك : نعم هي بلا ريب صالحة للحياة على اختلاف ألوانها ، وللأعمال والأفعال جميعها ، وكل سياسي أمين راجح التفكير يعمل على

تقوية الإنسانية فى داخل بلاده وفى خارجها ، ويجاهد لبلوغها مرتبة الكمال ، والسياسة كسائر الأعمال التى تصدر عن الإنسان يلزم أن تكون خاضعة لنواميس الأخلاق ، وإنى أعرف أن هناك فريقاً من السياسيين يخالون أنفسهم عمليين وجد حصفاء فلا يحفلون بهذا المطلب ولا يتوخون تلك الغاية ، ولكن التجربة — ولست أتحدث فى هذا المقام عن تجربتى الشخصية وحدها — ترينا أن السياسيين الأمناء ذوى الأفكار الثاقبة هم الأبلغ تأثيراً والأقدر على النهوض بالأعباء ومواجهة الحوادث ، وهم يؤدون لوطنهم وحكومتهم أعمالاً ينكل عن القيام بأمثالها الساسة الذين يسمون أنفسهم بالعمليين البارعين ،ومرور الزمن كفيل بإظهار غبائهم وقصر نظرهم .

كاپك — ولكن السياسيين المثاليين قد يخطئهم التوفيق .

مازاريك — فى بعض الأوقات يصيبون وفى أوقات أخرى يخطئون ، وإذا كنت أتحدث عن الأخلاق فى السياسة فإنى واضع نصب عينى فى أول الأمر الأساليب السياسية والمناورات الحزبية والأعمال الإدارية على وجه الإجمال ، وممارسة السياسة نفسها يجب أن تكون عملاً أخلاقياً ، والبرنامج السياسى يجب أن يكون متمشياً مع قواعد الأخلاق ، وفى مستطاع كل إنسان أن يضع برنامجاً سياسياً محترماً سامى المبادىء ، ولكن معرفة الأعمال الإدارية شىء والعمل على مزاولتها فى رفق واعتدال شىء آخر ، ومعرفة مصلحة الدولة ومنفعة الوطن فى أوقات الأزمات المتحرجة والمواقف الفاصلة تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، ولذا يتحدث الناس فى مناسبة ذلك عن

مسائل السياسة العليا ، ويفرقون بين رجل الدولة والسياسى الحزبى ، والسياسة فى هذا المعنى قائمة على أن يحسن السياسى إدراك الظرف المناسب الذى يخدم فيه أمته خلال تدفق التاريخ وتوالى الحوادث ، ومما يعين السياسى على إدراك ذلك وقوفه على تاريخ بلاده ومعرفته لحاضرها وعنايته بمستقبلها ، ولقد عالجت تلك الحياة وتمرست بصروفها ، وأنا رجل سياسة كما قدمت لك ، وقد همتنى المسائل السياسية منذ كنت غض الشباب ، وأنت تعلم أنى فى سنة ١٨٩١ كنت نائباً ثم تنازلت عن النيابة ، وكان الدافع الحقيقى لذلك شعورى بعدم نضجى السياسى ، وذلك لأننى عند ما وقفت على سياسة ڤينا وعلاقاتها بأوروبا وجدت أننى رغم ما حصلت من علم غير متأهب تمام الأهبة ، فبدأت من جديد دراستى السياسية فى دقة وتمحيص، وحاولت أن أجلو لنفسى مشكلة العصر ، وكان تاريخ أمتى فى نظرى جزءاً لايتجزأ من تاريخ العالم ، ولم يقتصر عملى خلال تلك الفترة على تأليف الكتب .

كاپك : — كنت تعتقد فى ذلك الوقت أن السياسة يجب أن تقوم على أسس عامية فهل لاتزال مستمسكاً بهذا الرأى بعد تجربتك الطويلة ؟.

مازاريك : — نعم إن السياسة علم ويجب أن تكون كذلك على الدوام ، حقيقة أن جامعاتنا ليس بهـا أساتذة لتلقين السياسة ، والسياسة عندنا تدرس من حيث هى فرع من علم الاجتماع وناحية من نواحى القانون وجانب من جوانب الفلسفة ، وقد خصصت لها فى بعض الأمم

الأخرى مناصب وكثرت فيها المؤلفات واتسعت بحوثها ، وأمامنا مرحلة لابد لنا من اجتيازها قبل أن نعمل على إنشاء منصب أستاذ لدراسة السياسة فى جامعاتنا .

كابك : — وهل ترى أن البون شاسع بين السياسة العلمية والسياسة العملية البرلمانية ؟

مازاريك : — نعم وكيف لايكون الأمر كذلك ؟ ولكن يوجد كذلك خلاف بين آراء الجماهير التى تؤم الكنائس وآراء المستنيرين من رجال الدين ، وليس الفرق بين الرجل العادى والمحامى الذى درس القانون بأقل من ذلك ، ولكننى إذا كنت أقول بالسياسة النظرية العلمية فإنى لا أنسى الفرق بين العملى والنظرى ، ومما يسترعى النظر فى تقدمنا السياسى أن بعض رؤساء الحكومة وقادة الأحزاب وأعضاء البرلمان لم يتلقوا تعليما جامعياً ، ولكنهم برغم ذلك قد تزعموا الأحزاب وألقيت إليهم مقاليد الأمور ، وإنى أعتقد أن السياسة العليا تستلزم إعداداً نظرياً ، ولكننى أصرح مع ذلك بأن حزمة من الإجازات العلمية لاتغنى عن المواهب الطبيعية ، ولا تنس كذلك الناحية الأخلاقية لأن الاطلاع والعلم واجتياز الامتحانات والحصول على الإجازات والألقاب والدرجات ليس دليلاً على الشرف والشجاعة والاعتدال .

كابك : — إسمح لى بسؤال لا أريد به شخصك ، عند ما تتكلم عن السياسة من حيث هى علم ماهى علاقة السياسة بالفلسفة ؟

مازاريك : — تريد أن يكون سؤالك غير شخصى ، ولكنك فى هذا السؤال شخصى إلى أقصى حد لأنك تريد أن تقول إننى قد انتقلت من منصب أستاذ فى الجامعة إلى مسند رئاسة الجمهورية ، وسأحاول فى الإجابة عن سؤالك أن أتجرد من شخصيتى ، ولعلك تذكر أفلاطون وأرسطو وسنت أغسطين وتوما الأكوينى وأمثالهم ، ولقد كان الفلاسفة على الدوام معنيين بالمسائل الفلسفية ، والنظريات السياسية هى صورة من صور التفكير الفلسفى ، وقد كان ذلك نتيجة لتلك العلاقة الأكيدة بين الأخلاق والسياسات ، ولقد كانت الأخلاق على الدوام جزءاً من الفلسفة، وفى العصور الحديثة استقل علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وهما علمان سياسيان وكل علم يعتمد فى ناحيــة من نواحيه على الفلسفة ، ويستند من ناحية أخرى إلى الحياة العملية .

وللفلسفة علاقة مباشرة بالأخلاق لأنها تحاول أن تكوّن صورة عامة للحياة والدنيا ، والحكومة فى العصر الحاضر تستغرق جميع فروع الإدارة الاجتماعية فهى من ناحية عملية تجاهد وراء ما تقصد إليه الفلسفة ، وعلى هذا الأساس يجب أن نفهم مارمى إليه أفلاطون الذى أراد أن يكون الحكام فلاسفة ، والسياسى الحديث يلزم أن يكون قوى الناقدة غزير العلم صادق الحكمة ، والسياسى الذى يتصدى للقيادة يلزم أن يكون خبيراً بالرجال طباً بأسرار الزعامة ، وما معنى الزعامة إذا أعجزه النفاذ إلى قلوب الناس والولوج إلى سرائرهم ؟ ولا تنس أن الفلاسفة أو العلماء قد يتورطون

فى الإخطاء ، وأكرر أن الـكتب أو الإجازات ليست كافية لأن الرجل السياسى فى حاجة إلى التجربة ، والبراعة وحدها ليست مجدية .

كاپك : — أراك تؤكد العلاقة بين التاريخ والسياسة .

مازاريك : — نعم وأنت تعرف اهتمامى بمادة التاريخ ، ولقد كنت على الدوام معنياً بالدروس التى تفيدها سياستنا من التاريخ ، ولست أدعى أنى مؤرخ ولكن عقيدتى الغائية كانت تستحثنى لتبين معنى الدنيا وفحوى أعمالنا ، وكم أجهدت فكرى فى ذلك ، وأنا ألتمس المعرفة من المؤرخين ، ولـكنى فى الوقت نفسه أراقب سير الحوادث فى بلادى وفى غيرها ، وفى مدى يجاوز نصف قرن يستطيع الإنسان أن يرى كثيراً وأن تتسع أمامه منادح التفكير وتتكاثر موضوعاته ، وقد طالما رددت أن سياستنا يجب أن تقوم على أساس عالمى ، وأن يكون اتجاهنا دولياً .

كاپك : — وهل ترى أن السياسة الخارجية أجل شأناً من السياسة الداخلية ؟

مازاريك : — فى بعض الأوقات ترجح كفة السياسة الداخلية ، ولـكن فى المدى المتطاول ستلتقى السياسات الداخلية فى الأمم والسياسات الخارجية ، وسياستنا تفرض علينا أن نكون يقظين لما يحدث حولنا ، وتحتم علينا مراقبة الاتجاهات والتيارات ، وأنا أتصور السياسات العالمية تصوراً عملياً فهى يلزم أن تقوم على دراسة الدنيا وتاريخها ، وهى تقتضى أن نكون واقفين على ما يحدث حولنا وما يتصل بشؤوننا ولا يهولنك ذلك فإنى لا أوصى

بالابتداء من عهد آدم ولا أقول بالانغماس فى تاريخ الدنيا بأسره إذ يكفينى تاريخ أوربا وذلك الجزء من آسيا و إفريقية الذى ارتبط تاريخه بتاريخها .

كابك : الحدود التى ذكرتها على وجـه التقريب حدود الجنس الأبيض .

مازاريك — نعم على وجه التقريب ولنترك آسيا الأسيوية ، وآسيا الأوربية أو أوربا الأسيوية ، إن جميع الأمم القائمة على شواطئ البحر المتوسط قد امتزجت ثقافتها وكثرت العلاقات بينها ، وفى هذا الجزء من الـكرة الأرضية بدأ التوفيق بين مختلف المذاهب واللغات والسكان .

ومن المظاهر الباهرة أنه فى ذلك الجزء نهضت الحضارات من أقدم الأزمنة وجاء تباعاً البابليون والأشوريون والإيرانيون والدول المصرية ، وقدانقسم الإغريق شيعاً وأحزاباً ، ولكن الأثينيين حاولوا أن يوحدوا الأمة الهيلينية بعد أن نجحوا فى رد غارة الفرس ، و بظهور الإسكندر جاءت إلى عالم الوجود إمبراطورية ضخمة تضم اليونان ومصر وجميع الأجزاء التى كانت معروفة فى آسيا لذلك العهد ، و بعد عهد الإسكندر انهارت دولته وتصدعت أركانها ، ولـكنها لم تتحطم ثقافياً ، وقد غزت الثقافة اليونانية روما وأوغلت فى الغرب، وقامت بعد الإسكندر دولة الرومان وقد شملت اليونان ومصروشمال إفريقية، واستولت فى الشرق على الولايات التى ضمها الإسكندر إلى إمبراطوريته ، وانتزعت فى الغرب إيبريا و بلاد الـكلت والألمان ، ثم انشطرت الدولة الرومانية شطرين وقد بقى القسم الشرقى فى بيزانطة بعد

انهيار القسم الغربى ، ثم قامت فى الغرب دول عظيمة منها دولة الفرانك والدولة الرومانية المقدسة ودولة إسپانيا والنمسا

كاپك ! — ودولة الإسلام ومحاولة السويديين إخضاع شمال أوربا .

مازاريك ! - نعم ، وفى العصور الحديثة نهض نابليون وظهرت قوة الإنجليز والولايات المتحدة والروسيا وتمت الوحدة الإيطالية ، وأصبحت إيطاليا تحاول بسط سيادتها على البحر المتوسط ، وهذا الدافع إلى طلب القوة السياسية ظاهر كذلك فى تاريخ الولايات الصغيرة ، فدولتنا البوهيمية القديمة كانت إلى حد ما قوة عالمية ، ومن الجائز أن يقال مثل ذلك عن پولندة و بلاد الصرب والبلغار ، ففى كل زمان و بكل مكان نلتقى بهذا الدافع الذى يسوق الأمم إلى التوسع خارج نطاقها و إلى أن تضم دولاً أخرى، ولقد كان للعوامل الجغرافية أثر كبير فى نشوء الدول العظيمة مثل الجبال والأنهار الكبيرة كالنيل والدانوب والراين وعلى الأخص البحر ، وفى تاريخ الغرب كان للبحر المتوسط شأن سياسى بارز ونفس اسمه يدل على ما كان له من أثر فى ربط الأمم القائمة على شواطئه و بخاصة الإغريق والرومان والفينيقيين ، ولم تتقدم الملاحة فى المحيط الأطلسى إلا فى العصور الحديثة وهو الصلة بين أمريكا وأوربا ، وقد علت منزلة المحيط الپاسيفيكى وهو اليوم الصلة بين أمريكا والشرق الأقصى، و بذلك أصبحت الصين واليابان والهند مرتبطة بأمريكا وأوربا .

ولقد نشأت تلك الدول العظيمة مدفوعة بدافع الرغبة فى التملك وحب

الغزو ، ولـكن التفاهم المتبادل بين الأمم الغالبة والأمم المغلوبة كان لازماً ، ومن ثمّ نشأت الروابط الثقافية ، وبذلك بلغت الروح مالم يبلغه حد السيف ، ولقد كان اليونان من أكبر دعاة الثقافة وحاملى لوائها ، وفى عهد الإسكندر و بعده صارت اللغة اليونانية لغة عالمية فى أوربا وآسيا و إفريقية ، و إذا تأملنا الحركة التاريخية وجدنا أن الأمم لا تستطيع أن تعيش فى عزلة ، والجنس البشرى منذ أقدم الأزمنة يتجه تدريجياً فى سبيل الوحدة ، وتاريخ الفتوحات والثقافات والدول الخوالى يرينا ذلك فى صورة واضحة ، ولقد كانت الحرب الـكبرى هى المرحلة الأخيرة فى سبيل هذا التقدير .

والمسألة الآن هى أيتم تنظيم قوى الحـكومات والأمم بالغزو والإخضاع أم بالسلام والتحالف والاتفاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية ؟

لقد وضعت عصبة الأمم بعد الحرب الكبرى برنامج التنظيم السلمى للدنيا وقامت حركات كبيرة وعقدت اجتماعات جمة لتقريب العلاقات بين الأمم ، ويجوز لنا أن نقف الآن على أبواب التنظيم العالمى الصادق ، ولقد أطلت عليك الحديث ولكن نظرة إلى الماضى تزودنا بالكثير مما ينفع فى الحاضر والمستقبل .

بين متزينى ومسز كارلايل

متزينى فى طليعة قادة الوَطنية ومن أوفى أصدقاء الإنسانية فى القرن التاسع عشر ، وقد نشأ فى إيطاليا ، ولما تنبه وعيه ووجد أوطانه مفككة الأوصال مصدوعة القوى ساءه أن يسوم النمساويون أبناء وطنه الهوان وهم سلالة الرومان الأمجاد ويحجبوا عنهم ضوء الحرية المقدس ونور العلم والعرفان فامتشق سيف الجهاد وظل طوال حياته مكافحاً من أجل إيطاليا وتحريرها وإتمام وحدتها ، وكان ثابتاً فى جهاده لا يستهويه النجاح ويبطره ولا يكسر من عزيمته الإخفاق ويقعد به .

وقد كان فى متزينى بشر سكان الجنوب وتفاؤلهم ، ولكن السنوات الطويلة الموقرة بالأحزان والهموم التى قضاها فى سويسرة وتحت سماء لندن الغائمة المربدة بعيداً عن سماء إيطاليا الطلقة الصافية قللت من بشره ، فكان لا يزايله اكتئاب صامت شجى كالغيمة الرقيقة الشفافة التى تعلو صفحة القمر الباهر ، وكان هذا الحزن يزيد نفسه الطاهرة الصافية ملائكية وسمواً ، ويبث فى تضاعيف كلامه وكتاباته رنة مؤثرة تجذب نحوه القلوب ، وكان يزيده هذا الحزن إنكاراً لذاته وتفانياً فى السعى لتحقيق مطلبه الأسمى ومثله الأعلى .

وقد تعرف متزيني أثنـاء إقامته بلندن بطائفة من كرام الأسر الإنجليزية واتصلت بينه وبينها الأسباب ، ومن تلك الأسر أسرة كارلايل ، وقد ظلت العلاقات الودية بينه وبين تلك الأسرة حتى فرق بينه وبين كارلايل اختلاف آرائهما فى فلسفة الحياة وطريقة النظر إلى المشكلات السياسية والاجتماعية ، وقد ظلت مسز كارلايل تختصه بعطفها وودها المصفق رغم الجفاء الذى وقع بينه وبين زوجها ، وقد أرسل إليها الخطابين الآتيين فى أزمة من تلك الأزمات التى كانت كثيرة الوقوع فى حياتها الزوجية ، وقد كانت مسز كارلايل شاعرة أديبة وامرأة موهوبة سامية اللب كبيرة الروح ، وكانت معاشرة زوجها كارلايل من الأمور الشاقة لوعورة أخلاقه وتسخطه الدائم وتململه المستمر !

صديقتى العزيزه

قضيت سحابة الأمس خارج المنزل فلم أتلق كتابك إلا فى المساء ، وكان الوقت جد متأخر ، فلم أجد نهزة للكتابة إليك ، وقد تبينت أثر الحزن العميق فى كلماتك القليلة ، ولا أقول الحزن الذى ليس لصدعه رأب ولا لدائه طباب ، وأسوأ ما فى الأمر أنه ليس فى طاقة أحد أن يسعدك ويأخذ بيدك ، أنت وحدك فى وسعك أن تبددى تلك الخيالات التى تزورك والأشباح التى تطرقك إذا أعدت النظر الهادئ الخالص من الأهواء فى حياتك الماضية ، وأنت وحدك تستطيعين أن تبصرى نفسك أن الحاضر مهما يكن فلا منصرف لك عن أن تلاقيه بنفس موفورة الكرامة ، عارفة

تمام المعرفة بواجباتك ، معتزة بروحك الخالدة ، مؤمنة إيماناً دينياً بتلك الأيام القادمة التي ستشرق في سمائها شموس لاتحجبها الغيوم والسحب ، وكل ما تحويه قدرتي هو أن أشير عليك بالقيام بالواجبات التي لا أقول بإنها تجعل الحياة سعيدة — فذلك أمر ما إليه سبيل — وإنما تجعلها مقدسة جديرة بالعناية وتهون علينا الاستسلام للمقادير ، ولكني واثق بأنك ستضيقين بذلك أو تحقرينه ، إنا كلينا يحمل في مخيلته صورة للحياة جد مختلفة عن الصورة المرتسمة في ذهن الآخر ، وقد كتب لنا في لوح المقدور أن نسير في طريقين متوازيين ، ولكن عرفاني بقيمة تلك الواجبات ما زال هو الدافع الصادق الذي يتجافى بنفسي عن مزالق الكفر والإلحاد ، وينأى بي عن مهاوي اليأس والقنوط ، ويحثني على المسير متلفعاً برد الهدوء في طريق حياة تزداد على تسلسل الأيام إقفاراً ، ويتكاثر حملها على توالي الأعوام ثقلاً ، وإن شعور كل منا بشيء خالد في نفسه لما يتطلب منا أن نسير هذه السيرة ، وإني لأعترف إليك الآن وأنا هادئ النفس وعلى بينة من أمري أنني بما استقر في علمك عني ولأشياء ستظل مجهولة إلى الأبد أضطلع من الأيام بأعباء يرق عنها احتمالك ، وقد لقيت من مؤلم الخدع ومرير الشكوك ما لم يعرض أمثاله لك ، ولكني جاعل قيد عياني أن لاسعادة تحت السماء ، وأن حياتنا تضحية مقصود بها غاية أسمى وأسعد ، وحسبي أن يكون لي أحباب أقلاء ، وإذا لم يكن ذلك فيكفيني أن تكون لي والدة ترصدني رعايتها وتكلؤني عنايتها من نواحي إيطاليا أو من

السماء ، وعلى أن أقنع بذلك ليحمينى الوقوع فى الشرك والارتطام فى الوهدة وما يفضى إليه من التفرق والانشعاب ، ويكفينى ذلك لأنصلت فى طريقى مجتمع القوة مثابراً على السعى ما وسعنى الجهد حتى أصل إلى حافة القبر — القبر الذى ستوجف إلى ساعته وإن لم أكن فى طلبه دائم الإلحاح عالى الصوت .

فانهضى أيتها العزيزة ، وانشطى من عقال الأحزان ، وانفضى عنك غبار الهموم ، واعلمى أن مسيرنا ضربة لازم ، سواء أرمضنا الألم أو لم يرمض ، ذلك المسير الذى تجلل وجوهنا فيه الابتسامة الحزينة ونتقارض فيه كلمات التشجيع . وإننا نحمل بين جنوبنا سراً مقدساً لا يجب أن نزيل مصونه لمخلوق مهما تعاظمت قدرته وتعالت كلمته ، وتزعمين أن حياتك فارغة خاوية فلا تجدى فى ! ألم تصنعى خيراً ؟ أكانت حياتك ناضبة من الحب ؟ تذكرى والدتك وافعلى الخير وارتضى عناية الله ، واعلمى أن وجودنا ليس سخرية من الله ، وأنه لم يرسل فى نفوسنا عبثاً ذلك النزوع إلى الكمال ، ولم يلهمنا ضلة ذلك الطموح إلى السعادة الذى نشتى منه الآن ، وثقى بالله الأيام الباقية ؟

صديقك الدائم

يوسف منزينى

وفى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٦ أرسل إليها الخطاب الآتى :

صديقتى العزيزة

لم أجد سبيلاً إلى الكتابة إليك أمس كما كان فى نيتى لوفاة زوجة سشيپونى پيتروكشى ، ولقد كانت حزينة عند الموت ولكنه حزن معافى من العيوب برئ من النقصان ، وهكذا ينبغى أن يكون حزنك وهذا ما أريده لك ، بل هذا ما يستبق إليك لو فكرت لحظة واحدة تفكيراً جدياً وقد انبعث فى صدرك الإيمان . إن الأفراح والآلام و إيماض الآمال ببروق النجح أو انقشاع غبرتها عن الخيبة هى — كما تعودت أن أقول — مثل الأمطار وضوء الشمس لا بد للمسافر أن يتعرض لهما فى طريقه ، فلنحمد الله ولنشكره إذا أطلع علينا أضواء الشمس ، ولنشتمل فى بردتنا ونوثق عراويها ونضم أزرارها إذا أرسلت السماء أمطارها ، ولكن لنبعد عن تفكيرنا أن لسقوط المطر أو شروق الشمس أدنى تأثير على نهاية الرحلة المنشودة ، ومثل هذا لا يعزب عن علمك ولكنك يعوزك يقين يعمر قلبك ويهبك القوة على النهوض بما يوحى به إليك فكرك ، وكذلك تمنحك الإيمان قوة العطف واليقين الدينى وذكرى الراحلين لو أحسنت الاستعانة بها ، وأنا أعرف عطفك على ، وتعرفين كذلك عطفى عليك ، فلا تصوحى منى أزاهير اليقين ، ولا تنضبى فىّ ينابيع الرجاء ، ولا تكونى على حرباً ، فكفانى مساورة تلك الأضاليل التى تحف بى من كل جانب وتطالعنى من كل مرقب ، وتميل بنفسى إلى ناحية الهاوية السحيقة ، ولا تزيدى نفسى حزناً ، ولوعتى إيقاداً بسوء أسوتك ، وظهورك بمظهر الشديدة

الأثرة ، المادية النزعة ، وعهدى بك تؤمنين بالله ، فلماذا لا تحضرك خاطرة أن الله أراد بهذه الحياة الفانية أن يبلونا ، وأنه عما قليل سيقيمنا فى ظلال رحمته و يبسط فوقنا جناح حنانه ؟ ولك والد ولك والدة ولو أنهما الآن غائبان عن عينى الجسد ، ألا تستطيعين الاتصال بهما والإفضاء إليهما بما فى نفسك ؟ إنى أعرف أن لحظة واحدة تستغرقينها فى مناجاتهما أجدى عليك من كلماتى برمتها وأجمل أثراً فى نفسك من نصائحى بجملتها ، ولو كان والداك الآن فيما تسمينها الحياة أما كنت تفزعين إليهما وتلوذين بجوارهما وتخبئين رأسك فى صدريهما فيزول همك و ينفرج كربك وتحسين بأنك مدينة لهما بالقوة والاحتمال حتى لا يستشعرا منك الخجل ؟ ولماذا يدور فى خلدك أنهما فى عداد الموتى وحيز الهلكى ، وأنهما سلكا طريقاً لا رجعة منها ، وأن روحيهما الخالدتين الفياضتين بالحب قد انتثر عقدهما وانحل نظامهما فليس لهما أبد الدهر ناظم ؟ أيقدح فى معاقد حبك لهما و يقلل من فرط إجلالك أن غيبتهما المقابر ونصبت عليهما الصفائح ؟

وطالما جال بفكرى أن ذلك النظام الذى بموجبه يغشى الموت المحبو بين والمحبين هو آخر تجربة يمتحن بها الله قوة الحب، و إنى كثيراً ما أشعر بأن مناجاتى لأرواح أصدقائى الذين مضى بهم الموت كانت لى مصدر قوة غير منتظرة تجيش فى نفسى غوار بها وأنا هنا فى الأرض ، ألم تتفق آراؤنا على تلك اللمحات الكاشفة التى توضح لنا العلاقة بيننا و بين الحياة الأسمى ؟ أتودين الآن أن تفرقى شملنا المجتمع وتصدعى منا متلائم الشعب؟

كونى منيعة الجانب على المكاره ، جلدة على الخطوب ، وكونى صادقة العهد لمن أوقفت لهم حبك ، وحبست عليهم إعجابك ، وكونى ملء عيون أصدقائك مهابة ، وقلوبهم جلالاً ، فإن أكثرهم يلقى من عاديات الزمن ونكبات الدهر ما يحلل من بأس الأقوياء ، ويوهن من عزائم الأشداء ، بل تكاد نفسه تسيل على نصال الألم فى صمت وسكون ، وتعوزه كلمة منك ترفه عن نفسه ، وتخفف من جواه ، وتبعث فيه القوة والعزيمة ، فانهضى إلى العمل ، ولا تنتبذى منا مكاناً قصياً ، واعلمى أن الشيطان لما أراد أن يغوى المسيح زين له العزلة وحبب إليه الخلاء .

صديقك الدائم

يوسف منزيني

استشراق لافكاديو هيرن

من أسباب تعقد الأحوال العالمية فى العصور المتأخرة وتكاثر المشكلات التى استأثرت بالنصيب الأوفر من مجهودات ساسة الأمم وأقطاب الحكومات الاحتكاك الدائم بين الشعوب المختلفة والأجناس المتباينة والقوميات المتناكرة ، وقد يسرت الحضارة الحديثة وسائل النقل ، ومهدت أسباب التقرب بين الأمم المنتثرة فى نواحى الكرة الأرضية ، ولكنها لم تستطع مع ذلك التغلب على العزلة الروحية ، وتلطيف أثر الفوارق الجنسية ، والخلافات القومية ، ويبدو ذلك فى صورة بارزة عند احتكاك الشرقيين بالغربيين، وقد كان أكبر عائق فى طريق التفاهم المتبادل وتهوين أسباب الخلاف وتقريب وجهات النظر قوم من الأوربيين وكدهم أن ينظروا إلى الشرقيين نظرة ازدراء وتنقص ، وهمهم استغلالهم ، والإنحاء عليهم ، وإذلالهم ، والتنديد بعيوبهم ، والتشهير بنقائصهم ، وتعرف مقاتلهم ، وكان يزين لهم جهلهم المطبق ، وغرورهم الصفيق ، أن الشرق عاطل من كل فضل ، مجرد من كل مزية ، وأن أمره لا يستقيم وفساده لا يصلح إلا إذا احتذى الغرب فى كل جليل ودقيق ، وأدار الطرف نحوه فى كل خطوة من خطواته ، وتنازل عن شخصيته ، ونبذ تقاليده .

ويمكن أن نعدد ثلاثة أنواع من أنواع التفوق كان يكثر من ترديدها الغربيون فى مجال المفاخرة والإدلال بمحاسنهم ، ويعلنونها فى ثقة عمياء ، وادعاء عريض ، كأنها حقائق مقررة لا يأتيها الباطل ، ولا يتسلل إليها الشك ، أولها ادعاء التفوق الشعبى ، وذلك الاعتقاد الوهمى بمزايا الجنس الأبيض — وبخاصة الجنس الأبيض النوردى — وتفوقه على سائر الأجناس ، وقد ظهر فى أوربا بعض المفكرين اشتطوا فى تلك النظرية وأسرفوا فيها إسرافاً ينم على التعصب الذميم ، وضيق العطن ، فضلاً عن المغالطة وسوء القصد ، ومنها الاعتداد بالسيادة القائمة على تفوق الغربيين فى العلوم الطبيعية ومظاهر التقدم الذى أوجدته والاعتقاد بأن تخلف الشرقيين فى أمثال هذه المسائل المادية المحضة أوضح دليل على تحلل أخلاقهم ، وانثلام عزيمتهم ، وهبوط مستواهم العقلى ، وثالثها الاعتقاد بالتفوق الدينى واعتبار الشرقيين الذين لا يدينون بالدين المسيحى قوماً وثنيين لا قيمة لعقائدهم ، ولا غناء فى دينهم ، وأن معتقداتهم إن دلت على شىء فإنما تدل على ضعف الحاسة الأخلاقية وضيق الخيال ، والتعلق بالأوهام والخيالات .

وقد أظهر الشرقيون من ناحيتهم أنهم ميالون إلى الاستفادة من حضارة الغرب الصناعية المادية ، وأبوا أن يسلموا بتفوق الغرب الأخلاقى ، وكان هذا من أسباب الكراهة المتبادلة ، والنفور المشترك .

وقد كانت اليابان من أسبق الأمم الشرقية إلى اقتباس أساليب

الغربيين والاعتراف من حضارتهم ، ولكنها ظلت مع ذلك محافظة على شرقيتها مستمسكة بتقاليدها ، وللشرقيين كما للغربيين اعتداد بأنفسهم ، واعتزاز بماضيهم ، فبعض الهندوس مثلاً يعتقدون أن حضارتهم هى أرقى حضارة .

وقد نشأت إلى جانب الحضارة الأوربية الحضارة الأمريكية ، وهى ولو أنها مستمدة من الحضارة الغربية وقائمة على أساسها ولكنها مع ذلك لها مميزاتها وخصائصها ، وهى تمثل فى مجموعها نظرة نفعية للحياة وتؤمن بالقوة الآلية والقدرة الصناعية ، وقد جعل ذلك بعض الأوربيين الذين تبرموا بمادية حضارتهم يتجهون صوب الشرق ، وقد رأى هؤلاء أن أوروبا قد بالغت فى العناية بحقائق الطبيعة وأهملت حقائق الحياة الداخلية حتى تمكن منها مرض القوة وداء المادية .

والعلاقات بين الغرب والشرق فى العصر الحديث أكثر تعقيداً وتشعباً مما كانت فى عهد الدولة الرومانية ، لأن الشرق الآن لا يشمل الشرق الأدنى وحده وإنما يشمل كذلك الشرق الأقصى ، وقد أخذ الشرقان يرفعان رأسيهما ويظهران الأنفة من الخضوع والاستسلام ، وكان ذلك نتيجة محتومة لما عانياه من عنت الاستعمار وأخطاء سياسة بعض الأمم الغربية ، وفى طليعة الأمم التى ثبتت للغربيين وتحدت إرادتهم اليابان ، وقد ظهر فى الغربيين حب التغلب والرغبة فى السيطرة وبسط النفوذ مزوداً بالأسلحة الحربية الحديثة والوسائل العلمية فلم يكن لليابان

بد من اتخاذ هذه الأسلحة نفسها لتدفع عن حوزتها غائلة الفقر المادى والمطامع الأوربية .

وقد عمل فريق من الغربيين ذوى العقول الراجحة والقلوب الكبيرة والإنسانية السامية المتعالية فوق الفوارق الجنسية والمذهبية على تقريب وجهات النظر بين الشرق والغرب ، وبذلوا جهوداً موفقة لفهم العقلية الشرقية عن طريق الدراسات اللغوية والتاريخية ، وقد أثارت بحوثهم أفكار الغربيين وصححت الكثير من مقاييسهم ، وقد شوه من جمال هذه الحركة بعض التشويه أن فريقا من الذين انتظموا فى سلكها كان يكمن وراء محاولاتهم العلمية غايات سياسية خفية وتعصبات مذهبية دينية ، شأن كل حركة كبيرة تختلط فيها النزاهة بالمصلحة ، ولهذه الحركة فضل كبير فى إحياء الحركات الفكرية فى الشرق وتعويد الشرقيين أساليب البحث الحديث وطرائقه العلمية .

على أن هناك لوناً آخر من ألوان الاستشراق ، وأقصد به مجهود هؤلاء الكتاب الأوربيين الذين أعجبوا بالشرق إعجاباً عظيماً ، وأشادوا بمآثره ، وتغنوا بمحاسنه ، واستطاعوا بلطف حسهم وصدق طبعهم أن يشخصوا الكثير من خصائص الشرق ، ويدركوا جانباً من حكمته ، ويلموا بنواح مختلفة من عقائده ، وأساليب تفكيره ، وقد فسر بعض هؤلاء الكتاب الروح الشرقية فى بادىء الأمر تفسيراً خيالياً ملوناً بألوان غريبة ، وكان هذا التفسير الخيالى يعنى بالمظاهر ، ولا يتجه إلى ما وراءها ، فالشرق كان

فى نظر بعض هؤلاء الكتاب مهبط السلام والسكينة ، ومسرح الجمال والبهجة ، ومستراد الحياة السهلة المترفة ، والأحلام الذهبية ، ولكن سرعان ما ظهر فى آثار هؤلاء الكتاب طبقة أخرى أصح تقديراً ، وقد عرف كثير من أفراد هذه الطبقة الشرق معرفة دراية وخبرة ودراسة عميقة منظمة ، وفى طليعة هؤلاء الكاتب الكبير لافكاديو هيرن .

ولد لافكاديو هيرن فى ليكاديا بالجزر اليونانية فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٥٠، وكان والده طبيباً إرلندياً فى الجيش الإنجليزى ، وكانت أمه يونانية ، ومات أبواه فى صغره ، فتبنته إحدى عماته وأنشأته نشأة دينية ، ولكنه سرعان ما أدرك أنه لا يصلح ليكون من رجال الدين لميله إلى التفكير والشك ولما كان يغلب على طباعه من المرح وحب الحياة والحركة ، وفى التاسعة عشرة من عمره رحل إلى أمريكا ليجرب حظه ويكون مستقبله ، وزاول الصحافة ، مرة مصححاً فى إحدى الجرائد وأخرى مخبراً لجرائد شتى ، ثم التحق بهيئة تحرير إحدى جرائد مدينة أورليان الجديدة ، وبدأت تظهر مواهبه ، وينضج فنه ، وظل بها حتى سنة ١٨٨٧ ، ثم رحل إلى جزائر الهند الغربية التابعة لفرنسا ، ولم تطل بها إقامته ، فقد ارتحل منها إلى اليابان فى سنة ١٨٩٠ ، وهناك شعر بتقارب فى المزاج والنظر إلى الحياة بينه وبين اليابانيين ، فتزوج من يابانية ، ودخل فى الديانة البوذية ، وتجنس بالجنسية اليابانية ، وتسمى باسم «ياكوموكويزومى» وعين أستاذاً للأدب الإنجليزى فى جامعة طوكيو ، وظل بها حتى أدركته الوفاة فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٠٤

وإقامته الطويلة فى بلاد اليابان ومرونة عقله وشفوف أسلوبه وخياله الشعرى مكنه من أن يكون من أقدر مفسرى الروح اليابانية للغرب ، وقد ألم بالحياة اليابانية من جميع نواحيها الاجتماعية والسياسية والدينية ، وقد ترجم إلى الإنجليزية الكثير من الأمثال اليابانية والأساطير والأشعار ، ووصف المناظر الطبيعية والحفلات الدينية والعادات المألوفة والتقاليد المتبعة وصفاً شائقاً ، وكتبه العديدة عن اليابان مراجع ثمينة ووثائق قيمة لمن يريد أن يعرف اليابانيين معرفة عميقة ويلم بعقائدهم إلماماً واسعاً ، ومن أمتع كتبه كتابه الذى سماه « كويدان Kwaidan أو الأقاصيص العجيبة » ، وهو مجموعة من الأساطير اليابانية أضفى عليها من فنه وبث فيها من روحه ما زادها تعبيراً ودلالة على النفسية اليابانية وطبيعة معتقدات اليابانيين ، وقد اخترت من كتابه الأساطير الآتية وتحريت فى اختيارها الإيجاز .

١ — أقصوصة أوشيدورى

كان فى ناحية تامورا نوجو من أعمال مقاطعة متسى صياد ومربى بزاة اسمه سنجو ، ففى ذات يوم خرج يصطاد فلم يصب شيئاً ، وفى أثناء عودته إلى منزله رأى عند مكان اسمه أكانوما زوجاً من البط ذكراً وأنثى — اسمه باليابانية أوشيدورى — سابحين معاً فى النهر الذى كان يهم بإجازته ، وكان قتل هذا النوع من البط مكروهاً ، ولكن سنجو كان قد بلغ منه السغب مبلغاً كبيراً ، فرمى زوجى البط فأصمى السهم ذكر البط ، وفرت الأنثى

إلى الحلفاء النابتة فى الشاطئ الآخر واختفت ، وحمل سنجو الطائر القتيل إلى منزله وجهزه لطعامه ، فرأى فى نفس الليلة حلماً مفزعاً ، فقد خيل إليه أن امرأة حسناء جاءت إلى غرفته ووقفت إلى جانب وسادته وأخذت تبكى بكاءً مراً حتى شعر بأن قلبه يكاد يتقطع حسرات لبكائها ، ثم صاحت به « لماذا قتلته ؟ أى ضرر أصابك به ؟ لقد كنا سعيدين معاً فى أكانوما فجئت وأرديته ! أى إساءة بدرت منه إليك ؟ أتدرى ما فعلت وأى جرم وحشى ذميم ارتكبت ؟ لقد قتلتنى معه لأننى لا أرغب فى الحياة بعده ، ولقد أتيتك لأخبرك بذلك » .

ثم عاودت البكاء والنحيب ، وكان نشيجها يخترق عظامه ، ثم قالت له بعد أن أنشدت شعراً فى رثاء زوجها «أنت لاتدرى ماذا صنعت ، ولكنك عندما تذهب فى الصباح إلى أكانوما سترى » و بعد أن قالت ذلك عادت أدراجها وهى باكية .

ولما استيقظ سنجو فى الصباح بقى هذا الحلم ظاهر المعالم فى ذاكرته ، وأخذ يفكر فى كلماتها وقولها « عندما تذهب فى الصباح إلى أكانوما سترى » وصمم على أن يقصد إلى هناك تواً ليدرك حقيقة مارآه فى الحلم ، و يعرف أكان ذلك حلماً أم أكثر من حلم ، ولما اقترب من شاطئ النهر أبصر أنثى البط سابحة فى الماء متجهة نحوه وهى تحدق إليه تحديقاً غريباً ، ثم شقت صدرها بمنقارها وماتت إزاء عينيه .

بعد ذلك حلق سنجو شعر رأسه وصار كاهناً .

(٢) أقصوصة جى روكى زا كورا

فى ناحية وا كيجورى من مقاطعة إيو شجرة كريز عتيقة مشهورة اسمها جى روكى زا كورا أو شجرة كريز اليوم السادس عشر ، لأنها كانت تزهر وتتفتح فى اليوم السادس عشر من الشهر الأول فى كل عام، وكانت لا تزدهر إلا فى ذلك اليوم على خلاف عادة سائر أشجار الكريز التى لا تزهر ولا تنضر إلا فى الربيع ، وكانت جى روكى زا كورا تستمد الازدهار والنضارة من حياة ليست فى الأصل حياتها إذ كانت تقيم فى تلك الشجرة روح إنسان .

كان هذا الرجل من طبقة المحاربين وكان اسمه إيو ، وقد نمت الشجرة فى حديقة منزله ، وكانت تورق وتزهر كل عام فى الوقت العادى أى فى أوائل الربيع ، وقد لعب تحت ظلالها وهو طفل ، وقد علق آباؤه وأجداده بفروعها الفينانة شرائط بيضاً من الورق الملون مكتوبة بها أشعار مدح فصلاً بعد فصل وجيلاً فى إثر جيل ، وهو نفسه قد أوغل فى الشيخوخة وعاش بعد أولاده ، ولم يبق له فى الدنيا شىء يعزه و يؤثره بحبه سوى تلك الشجرة ، وحل الصيف فى عام من الأعوام فذبلت الشجرة وماتت ، فاشتد عليها حزنه ، وطال جزعه وتفجعه ، فبحث جيرانه المشفقون عليه عن شجرة كريز أخرى صغيرة وجميلة وجاءوا بها وغرسوها فى حديقته ظانين أنه سيتسلى بذلك وينسى مصابه و يسلو الشجرة القديمة ، فشكرهم

وتظاهر بالسرور ، ولكنه كان يخفى فى قلبه ألماً دامياً . فقد كان حبه للشجرة الميتة حباً لا ينسى ولا تعفى عليه الأيام .

وأخيراً خطرت له خاطرة سعيدة ، وتذكر طريقة تعيد إلى الشجرة الذابلة حياتها (وكان ذلك فى اليوم السادس عشر من الشهر الأول) فذهب منفرداً إلى حديقته وجثا أمام الشجرة الذاوية ، وأخذ يناجيها قائلاً « أتوسل إليك أيتها الشجرة أن تتقبلى دعائى وتعودى إلى الحياة والنضارة لأنى سأفديك بروحى » (وكان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يهب حياته إلى أى شخص آخر أو أى مخلوق كائناً ما كان ولو كان شجرة وذلك بإرادة الآلهة) ثم نشر تحت الشجرة قطعة من القماش الأبيض عليها مطارف عدة وجلس فوقها وانتحر على طريقة المحاربين عند اليابانيين (هارا كيرى) فحلت روحه فى الشجرة وجعلتها تزهر فى التو واللحظة .

ولا تزال تزهر فى كل عام فى اليوم السادس عشر من الشهر الأول فى فصل الشتاء

٣ — أقصوصة أوتيي

من أزمان طويلة خلت كان يعيش فى مدينة نيجاتا بمقاطعة إشيزين رجل اسمه ناجاو شوزى ، وكان والده جراحاً ، وقد تعلم مهنة أبيه وخطبت له وهو فى نعومة أظفاره ابنة أحد أصدقاء أبيه واسمها أوتيى ، واتفقت

الأسرتان على أن يكون الزفاف بعد أن يتم ناجاو دراسته ، ولكن صحة أوتيي أخذت فى الضعف وفى الخامسة عشرة من عمرها أصابها سل مميت ، ولما شعرت بدنو الأجل أرسلت إلى ناجاو لتودعه الوداع الأخير .

ولما ركع أمام فراشها قالت له «يا خطيبي ناجاو ساما لقد كنت خطيبتك منذ طفولتك ، وكنت سأغدو زوجتك فى ختام هذا العام ، ولكنى سأقضى الآن نحبى والآلهة أدرى منا بما ينفعنا ، ولو أننى استطعت أن أعيش أعواماً لكنت مبعث آلام وأحزان لغيرى إذ لا أستطيع بهذا الجسم الواهن الضعيف أن أكون ربة منزل ، وحتى لو أردت أن أحيا من أجلك لكان ذلك منى محض أنانية ، فأنا مستسلمة للموت راضية بحكم القضاء ، وأريد أن تعدنى بأن لا تحزن من أجلى وأن أفضى إليك بأن أكبر ظنى هو أننا سنلتقى ثانية » .

فقال لها ناجاو باهتمام « حقيقة سنلتقى ثانية هنالك فى تلك الأرض الطاهرة النقية حيث لا يروعنا الفراق »

فأجابته فى رقة « لا ، أنا لا أعنى تلك الأرض الطاهرة النقية ، أنا أعتقد أننا مقدر لنا اللقاء ثانية فى هذه الدنيا ولو أننى سأدفن غداً » .

فنظر إليها ناجاو نظرة تعجب وذهول ، ورآها تبتسم لتعجبه ، واسترسلت تقول فى لهجتها الرقيقة الحالمة « نعم أنا أعنى هذه الدنيا — فى حياتك الحالية يا ناجاو ساما على شريطة أن تريد ذلك ، ومن أجل أن يتم ذلك يجب أن أولد طفلة من جديد ، وأتدرج فى النمو حتى أصبح امرأة ،

ولذا عليك أن تنتظر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً ، وإنه لوقت طويل أيها الزوج الموعود ، ولكن سنك لا تتجاوز تسعة عشر عاماً »

فقال لها فى لين ورفق وهو يحاول أن يهون عليها ساعتها الأخيرة «إن الانتظار من أجلك ياخطيبتى واجب أستعذب القيام به وأجد فيه سروراً أيما سرور وسنبقى مرتبطين بعضنا ببعض حتى وجودنا للمرة السابعة »

فأجابته وهى تراقب وجهه « ولكنك تشك فى الأمر » .

فأجابها « إنى أشك ياعزيزتى لأنى أخشى أن أعجز عن معرفتك وأنت فى جسم آخر وباسم غير اسمك ، خبرينى عن علامة أو إشارة أعرفك بها » .

فقالت له « لست أملك ذلك ولا يدرى إلا الآلهة والبوذات أين نلتقى ولكنى واثقة كل الثقة بأنى سأعود إليك إذا كنت لا تزال راغباً فى لقائى ، فتذكر هذه الكلمات جيداً »

ثم سكتت عن الكلام وأطبقت جفنيها .

وكان ناجاو يحب أوتيي حباً خالصاً فحزن عليها حزناً عميقاً ، وصنع لوحة صغيرة ونقش عليها اسمها وحفظها فى داره ، وكان يقدم لها القرابين كل يوم ، وأطال التفكير فى الحديث الغريب الذي حدثته به قبيل مماتها ولكى يسر روحها الراحلة كتب وعدا خطيراً بأنه سيتزوجها إذا عادت إليه فى جسد آخر ، وختم هذا الوعد المكتوب بختمه ووضعه إلى جانب اللوحة .

وكان ناجاو الابن الوحيد لأبيه ، ولذا كان من اللازم أن يتزوج ، وجد نفسه مكرهاً على طاعة أمر أسرته ، ومرغماً على قبول الزوجة التى اختارها له أبوه ، و بعد زواجه منها بقى على عادته فى تقديم القرابين إزاء اللوحة ، ولم ين عن ذكر أوتى ولم يفتر حبه لها ، ولكن على توالى الأيام أخذ حبه لها يضمحل فى ذاكرته حتى صار يشبه حلماً من الصعب استحضاره واستعادة معالمه ، ومرت على ذلك السنون .

وفى غضون تلك الأعوام أصابته أرزاء وخطوب ، ففقد والديه ، ثم فقد زوجته وفجع فى ابنه الوحيد ، وألفى نفسه فى الحياة وحيداً فهجر داره الخالية ليقوم بسياحة طويلة ينسى بها آلامه و يطفىء وقدة أحزانه .

ففى يوم من الأيام وقد أفضت به الأسفار إلى مدينة أكاو المشهورة بينابيعها الحارة وجمال مناظرها دخل فى خان للمبيت فجاءت إليه فتاة صغيرة لتقوم بخدمته فشعر عند ما وقعت عينه عليها بأن قلبه ينبض نبضاً و يثب وثباً لم يعهده من قبل ، فقد كانت الفتاة تشبه أوتيي شبهاً غريباً إلى حد أنه شك فى وجوده ، واتهم حواسه ، وخال نفسه فى حلم ، ولما تولت عنه لإعداد الطعام والوقود وتنظيم الغرفة كانت كل حركاتها تعيد فى نفسه ذكرى عذبة شهية ، ذكرى تلك الفتاة المحبوبة التى عقد له عليها فى صباه ، فطارحها الحديث فأجابته بصوت واضح رقيق أحزنته رقته وذكرته حزن الأيام السالفة .

فقال لها فى تعجب ودهشة « أيتها الأخت إنك تشبهين فتاة عرفتها فى

الأيام السالفة ، وقد دهشت عند دخولك الغرفة فى أول مرة فسامحى فضولى إذا سألتك عن موطنك وعن اسمك »

فأجابته فى الحال بصوت خطيبته الميتة غير المنسى « اسمى أوتيي وأنت ناجاو ساما زوجى الموعود ، وقدمت منذ سبعة عشر عاماً ، وكتبت أنت وعداً بأنك تتزوجنى إذا أنا عدت إلى الحياة فى هذه الدنيا بجسم آخر ، وختمته بختمك ووضعته فى بيتك إلى جانب اللوحة المنقوش عليها اسمى ، ومن أجل ذلك عدت إليك ثانية »

ولما فاهت بهذه الكلمات سقطت مغشياً عليها .

تزوجها ناجاو وكان زواجهما سعيداً ولكنها لم تتذكر بعد ذلك ماذا قالته له رداً على سؤاله الذى وجهه إليها فى أكاو ، ولم تتذكر شيئاً عن حياتها السالفة ، ونسيت مولدها السابق الذى أشعلت ذكراه الخابية ساعة اللقاء الغريبة ، وأخذت هذه الذكرى فى الغموض والخفاء و بقيت كذلك غامضة مبهمة .

ولز ومصير العالم

المستر ولز كاتب ضليع وروائى ممتاز و إمام كبير من أئمة الاستنارة فى العصر الحاضر ، وما دمت فى صحبته فإنك فى جوار رجل خالص النية ، راجح العقل منسرح الخيال ، يحاول جهده أن يبصرك تيارات العصر الحديث المختلفة و يضع يدك على صميم مشكلاته ، وهو أخو فكرة وصاحب عقيدة ، وهو يؤمن بالعلم إيماناً شديداً ، و يعتقد بمذهب النشوء والارتقاء اعتقاداً لا كفاء له ، وعنده أن الإنسان مثل سائر المخلوقات ، تسرى عليه قوانين علم الحياة ، وتتناوله سنة بقاء الأفضل والأصلح للحياة ، و إنسان العصر الحاضر — كما يرى المستر ولز فى كتابه[1] عن مصير الجنس البشرى — إنسان مدخول العقل ، سقيم الفهم ، قد رين على قلبه وطمست بصيرته ، يكاد ييئس المستر ولز على عميق تفاؤله ، وضخامة أمله ، وقوة إيمانه ، وليس سبب ذلك أن تدهوراً فجائياً قد اعتور العقل الإنساني ، و إنما سببه أن المشكلات قد تكاثرت عليه ، وأحاطت به المعضلات من كل ناحية ، حتى كل عن علاجها ، وناء تحت وقرها ، وضل فى تيهها .

(١) ظهر هذا الكتاب فى شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ واسمه بالإنجليزية The Fate of Homo Sapiens وقد كتب هذا الفصل عن ولز بعد ظهور هذا الكتاب

ومما يستوجب الأسف أن عقل الإنسان إزاء هذه الصعاب الملمة، والطوارىء الحازبة، ينقصه المران والصقل والتربية والتعليم، وفى اعتقاد المستر ولز أن هذا العجز الواضح والقصور المعيب يمكن علاجه بالتربية اللائمة والتعليم الصالح، ولكنه يشك فى تحقيق ذلك، وهو يؤكد لنا أن هذا العلاج يستلزم حشد القوى الإنسانية جميعها، وتعبئة الكفايات كلها، وأنه جدير بأن تصرف فى سبيله همة كالهمة المبذولة فى تقوية روح الحرب وإيقاظ عوامل الشر، وهو يرى أن الإنسانية إذا أخفقت فى هذا العلاج الوحيد الناجع فإنها هالكة لا محالة.

ولو بذل المجهود اللازم، واقترن بالتوجيه الحازم، والقيادة البصيرة، فستسفر حالة الفوضى السائدة والاضطراب المستحكم عن الوحدة العالمية، وهى أمل المستر ولز المنشود، وهو لا يقنع ولا يرضى بأقل من نظام عالمى جامع شامل.

ويرى المستر ولز أن مصير الإنسانية لم يكن فيما تقدم مما يعنى به الناس، فقد تعود الإنسان أن يعيش فى حاضره، وبخاصة فى عصرنا الحديث، ويحاول ولز أن يوجه النظر إلى التفكير فى المستقبل، وإلى أن يعمل الإنسان على تغيير أسلوب حياته وطريقة تفكيره، تحقيقاً لمصلحة النوع الإنسانى الحيوية، وهو يحاول جهده أن يهيب بالإنسانية من الخمول الذى غطَّى على بصرها، وينبهها من غفوتها، ويريها طريق الخلاص وقوارب النجاة قبل أن تقع الواقعة ويأتى الطوفان.

والمستر ولز لا يخفى علينا طريقة تفكيره ، ولا يحاول أن يدعى لنفسه براعة ليست فى طوقه ، ولا أن ينحلها رقة ليست فى مزاجه ، فهو يقول عن نفسه فى صراحة مستحبة « إن عقله عقل مستقيم شديد الاستقامة لا يحسن اللف ولا الدوران ، ولا يجيد الانسلال بين الظلال الخفية والأضواء الواهية ، وإنه يطرق أفكاره طرقاً ربما أساء إلى ذوى الأمزجة الرقيقة ، وإنه يدعو الأشياء بأسمائها ويسمى الباب غير المفتوح باباً مغلقاً »

والفكرة التى يصر عليها ، ولا يفتأ يرددها فى هذا الكتاب عن مصير الإنسانية هى فكرة الحاجة الماسة السريعة إلى إعادة تنظيم التربية على أسس تؤدى إلى أن ننظر إلى الحياة والكون نظرة علمية خالصة ، ويتضمن ذلك إيجاد عقلية عالمية ، وعمل موسوعة جديدة تكون بمثابة عقل مفكر للعالم ، والإنسان تواجهه الآن مشكلتان وهما « إعادة إصلاح التربية » أو « الهلاك » ومن دواعى الأسف أن الاحتمال الثانى أقرب إلى الواقع ، ولو تحقق إصلاح التربية لخرج من الفوضى الحالية مجتمع واضح التفكير بيّن الأغراض ، قادر على الخلق ، مقدّر لما فى الحياة من جمال ومتع ومسرات ، ولقد أصبحت الإنسانية جسداً واحداً ، ولكنها لم توفق بعد فى تكوين عقل متحد يهيمن عليها ويهديها سواء السبيل ، وولز يحاول استدراك هذا النقص ، والعمل على إيجاد عقل عالمى ، وهو مشروع كبير ، ولكنه ليس بالعزيز على مقدرة الإنسان إذا أتيحت له الظروف الموفقة لتلقى التعليم الصحيح والتربية الحقة .

ويتابع ولز فكرته فى هذا الكتاب متابعة رجل يرى نفسه فى عالم مشرف على النهاية إذا لم يعتصم بالروح العلمية ، عالم متدهور وضيع كما يؤكد لنا مستر ولز ، وإن كان من حقنا أن نشك فى صحة هذا التأكيد ، فما دام فى العالم بقية من أمثاله فإن فيه صبابة من الخير وإثارة من النبل .

وفى الكتاب عرض بارع للنظم والثقافات والعقائد الراهنة فى الشرق والغرب ، وكلها فى رأى ولز مستهين بقوانين علم الحياة ، منحدر بالإنسانية إلى الهاوية السحيقة .

ويرى ولز أن الكون قد بدأ يتنكر للإنسان ويسخطه ويجتوى أساليبه ، وأن عقل الإنسان قد أخذ يعروه الوهن وتتراكم عليه أسداف الظلام ، وأن الأمل الواهن الباقى هو محاولة تنظيم الحياة العقلية ، وكتابه عن مصير الإنسانية محاولة لاستدراك الأمر قبل فوات الفرصة ووقوع الكارثة .

والعقل الجديد الذى يرمى ولز إلى إيجاده هو النظرة العلمية للحياة والوجود ، وهو ينبذ كل نظرة للحياة والكون قائمة على الدين أو نظريات ما وراء الطبيعة ، ويود أن تسود الروح العلمية التى لا تصدر حكماً إلا بعد الأناة والتثبت والتخلص من الأهواء ، ولا تحاول أن تثير أسئلة يعجزها الجواب عنها ، أو تؤكد لنا أشياء لا يمكن القطع بصحتها ، وتصر على أن كل ضروب المعرفة والمعتقدات مهما سمت وعزت علينا يجب أن تطرح على بساط البحث ، وتعرض على محك النقد ، وهذه الروح العلمية تمكن

الإنسانية من أن يكون مصيرها بيدها ، وهى تقدم لنا صورة جديدة لطبيعتنا وأصلنا ومكاننا فى الكون والحدود المضروبة على المعرفة الإنسانية ، والإنسان فى رأيها ثمرة الانتخاب الطبيعى مثل سائر الخليقة .

والتربية هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه النظرة العلمية ، ولكن الصعوبة التى تعترض آراء ولز هى نفسها الصعوبة التى طالما حار فى التغلب عليها أنبياء الأفكار الجديدة ، وطالبو تغيير العقل أو القلب أو الروح ، وذلك أن الإنسان يعتمد على عقليته القديمة فى تحصيل وسائل العقلية الجديدة ، وهذه العقلية القديمة بدلاً من أن تساعد على إيجاد العقلية الجديدة تقيم فى طريقها الحوائل ، وقد يكون من الميسور إقناع النوع الإنسانى بأن الإحجام عن تغيير عمليته القديمة قد ينجم عنه الهلاك المحقق ، ولكن القيام بعمل التغيير نفسه هو ما يقاومه العقل القديم وما لا يريده وما لا يستطيعه ، وطالما أثبت الإنسان نقص عقله وسوء إدراكه وتعاميه عن الحقائق الواضحة عند ما طلبت إليه الظروف أن يستبدل بعقله القديم عقلاً جديداً .

والمستر ولز فى كتبه السابقة أكثر إيماناً بالطبيعة الإنسانية ، فهو يقول فى روايته « تونو بانجى » « ليس القلب الإنسانى شريراً إلى حد يبعث على اليأس ، بل هو على نقيض ذلك قابل للإصلاح والتهذيب ، ويمكن إصلاحه بخلق البيئة المناسبة والمران اللائق وبالتربية قبل كل شىء ، ويمكن صوغه إلى حد إيجاد دنيا حافلة بالمحتملات والجمال الذى لا يمكن تصوره

والذى يستطيع حتى الرجل الذى لم يصقل إحساسه أن يلمح سناه ويحس روعته »

فالحياة يمكن أن تكون أسعد وأرقى وأجمل وأروع فلماذا هى مريرة نكداء ؟ سبب ذلك كما لا يفتأ يكرر لنا ولز هو « سوء التربية » ولأننا لم نزوَّد للحياة السليمة .

ولكن لماذا كل هذا الإيمان الفائق الحد بالتربية ؟ وهل للتربية قدرة سحرية على خلق الناس خلقاً آخر ؟ الواقع أن ولز يحس إحساساً قوياً بغرابة الدنيا وروعة الحياة ، ويرى أنه ليس فى ميسور إنسان أن يتملى جمالها ويستغرق فى روائعها إلا إذا تثقف عقله واستنارت بصيرته ، ولذة المخاطرات فى عالم الفكر هى أعظم ما فى الوجود ، وأمتع وأطيب ما تقدمه لنا الحياة ، فالبحث وكشف الأسرار الكونية وتسجيل النتائج هى فى نفسها غايات ، والتربية الحقة هى التى تنير لنا الكون ، وتعالج سخافة النظم السياسية والاقتصادية والمصالح القائمة عليها والمرتبطة بها .

ويرى ولز أن سبب بقاء الإنسانية هو أن الإنسان إلى عهد معين فى تاريخه قد استطاع إنماء عقله وتكييف نفسه وفق مقتضيات الظروف تكييفاً يكفل له البقاء ، ولكن فى العصر الحاضر بفضل العلم والاختراع ترامت حدود عالم الإنسانية وتشعبت وجوه الحياة دون أن يحدث مثيل لذلك فى نمو العقل واتساع الإدراك لتيسير السيطرة على هذه الأحوال الجديدة الشديدة التعقيد ، وقد سارت قوة التكيف ببطء شديد وعجزت

عن مسايرة خطوات التغير فى العالم الحديث ، ولذا أصبح موقف الإنسان غريباً متناقضاً ، وليس عند الطبيعة لمن يخالف أحكامها و يشذ عن سننها سوى عقاب واحد هو الموت .

و يسترعى ولز نظر المؤرخين وعلماء الاجتماع إلى عامل من العوامل المهمة فى الشئون الاجتماعية لم يأخذ قسطه من عناية الباحثين والمفكرين ، وهذا العامل هو عنصر الشباب ، وهو يرى أن فى شباب كل أمة مقداراً زائداً عن الحاجة من الطاقة والنشاط الوثاب والحيوية المتدفقة ، وأن الحياة العصرية لم تنظم بعد تنظيماً صالحاً بحيث تستطيع أن توجد منسرباً لهذه الحيوية المحبوسة والنشاط المكبوت ، فهو يظل يغلى و يفور حتى يجد متنفساً فى الحرب ، ومثل هذا النشاط الفائض المهمل الذى يعمل للخراب والهدم والتدمير كان يمكن أن يتحول إلى قوة نافعة تحول دون وقوع كارثة حيوية ، ولو كان العالم قد نظم تنظيما عقلياً ملائماً للموقف الحاضر لما وجد هذا العدد العديد من الشباب العاطل ليكون مشكلة اجتماعية عسيرة الحل فى الدول الدمقراطية ، أو ليكون المورد الرئيسى للجيوش الجرارة التى تهدد كيان الحضارة فى الدول الديكتاتورية ، وهذه الجموع الكبيرة من شبان قد استحوذ عليهم الملل وأحالت نفوسهم البطالة وهيأتهم لتلقى المبادئ المنحرفة ، ومهدت لهم سبيل الإجرام ، دليل واضح على وجود ذلك النشاط الزائد عن الحد الموضوع تحت تصرف الإنسانية ، والذى لم تستطع أساليبها المعوجّة ونظمها العقيمة أن تستثمره وتحسن توجيهه .

ولا يعفى ولز العلماء أنفسهم من اللوم والتقريع ، فهو يعترف لهم بالبراعة والمعرفة ، ولكنهم بدلاً من أن يعملوا على استنقاذ العالم من الورطة التى ارتطم فيها ينفضون أيديهم وينسحبون إلى مكتبتهم أو معملهم أو إلى الرواق بينما روما تحترق ، وينتقل من جراء ذلك تدبير الأحوال الإنسانية إلى أيدى هؤلاء الذين لا يحسنون الفهم ولا يجيدون السيطرة ، فنرى من ناحية طائفة العلماء المتخصصين ولا حول لهم ولا قوة ، ومن ناحية أخرى نرى السياسيين وفى يدهم مقاليد القوة ، ولكنهم تنقصهم المعرفة التى تمكنهم من الانتفاع بالقوة الميسرة لهم .

وعقل المستر ولز من العقول الموكلة بالمستقبل المشغوفة باستطلاعه ، وعهدى به كبير الأمل فى مستقبل الإنسانية ، ولكنه فى هذا الكتاب — كما قدمت — يبدو كثير القلق والتوجس سيئ الظنون ، فهل لعلو السن وامتداد العمر أثر فى ذلك ؟ أو إن الأحوال العالمية قد ساءت إلى الحد الذى جعل المستر ولز المتفائل الكبير يذهل عن تفاؤله وينسى أحلامه الحسان وأمانيه العذاب ؟

الواضح من هذا الكتاب أن المستر ولز لا يزال عنده بقية من الإيمان بالتربية ، وكل مرب بطبيعة الحال متفائل ، لأن اليأس من الحياة يستتبع اليأس من أساليب إصلاحها ، والأمل فيها يستلزم الإيمان بطرائق تحسينها والسمو بها ، ولعل المستر ولز قد أخذ بالحكمة القائلة إنك إذا أردت أن تكذب نبوءتك فأعلنها بين الناس ، وإذا أردت أن تصدق فأسرها فى نفسك ، وقد أذاع المستر ولز نبوءته بصوته الممتلئ وبيانه العالى .

بين كارلايل الشاب وجيتي الشيخ

الشباب هو ربيع الحياة وعصرها الذهبي ، تتراءى لنا الدنيا خلاله مسفرة زاهية كالحلم اللامع الوضيء ، يزدهينا رونقه ، ويملأ نفوسنا بهجة وأملاً ، وفى الشباب ظل من الأبدية ، ونفحة من الخلود ، تقوى فينا الثقة بالنفس ، وتهون علينا احتمال ما يعترض طريقنا من العقاب ، وتدفعنا إلى ركوب الأخطار واقتحام المجاهل ، وفى الشباب لا يحد الطموح ولا تنتهى الرغبات ، ويمتد أمامنا المستقبل منبسط الأفياء ، حافلاً بالاحتمالات ، ويخيل إلينا أننا نستطيع مسابقة الأيام ومسايرة حركة التقدم ، وهذه الغرارة البريئة تقربنا من الطبيعة وتذهلنا عن آلام الحياة وغير الدهر ، فلا نفكر فى الفناء وسطوته ، ولا فى الموت ورحاه الدائرة ، ولكن إن كان الشباب هو عصر الآمال الزاهرة ، والأحلام الحسان ، والطموح الوثاب ، فهو كذلك عصر يقظة المدارك ، وتفتح الملكات ، وفيه يبدأ الإنسان يفكر تفكيراً جدياً فى علاقته بالكون ، ويحاول أن يتعرف أسرار الحياة الملغزة ، وغوامضها المستبهمة ، ومصيره وغايته ، وقد يفدحه العجز عن إدراك خفايا الكون وحل مشكلاته ، ويضل فى تيه التفكير ، وتشتبه عليه الطرق ، وتتنكر له المعالم ، ويخيم على نفسه الشك ،

فتتسلب الدنيا فى نظره من جمالها ، وتأفل طوالعها ، وتخور عزيمته ، ويحتازه اليأس المضيض ، وفى هذه الأزمة العسراء قد يفيد الشباب من حكمة الشيوخ وتجاربهم ، ويرى فيها ما يرد عليه عازب ثقته بنفسه ، ويعيده إلى الحياة والجهاد .

وقد تجلى هذا الموقف فى صورة جديرة بالتأمل ، خليقة بالدرس ، واستخلاص العبرة ، فى علاقة الكاتب الكبير توماس كارلايل فى مقتبل شبابه بجيتى كبير شعراء الألمان فى شيخوخته ، فقد كان كارلايل كسائر الشبان يبعثه توفز الشعور ، ويقظة النفس ، إلى محاولة رفع النقاب عن الحقيقة الخالدة ، وحل لغزها الأبدى ، ليضع لحياته أساساً مستقراً ، ويحدد لنفسه غاية يتجه إليها ، ويقصد لها ، وكان يجهل استعداداته ، ولا يدرى غايته ، لأنه لم يكن قد اختبر بعد قدرته ، ووهنت عقيدته ، وفقد اليقين ، وأخذ يسائل نفسه : من هو ؟ ومن أين أتى ؟ وهل يدمن التفكير فى ذلك ثم يقبل على العمل أو يعمل فى بادئ الأمر ويستمد من العمل فلسفة حياته ؟ هذه المسائل كانت تشغل باله ، وتنفى عنه الراحة والطمأنينة ، كما تشغل بال كل مفكر شاب دائم التفكير فى نفسه ، والتأمل فيما حوله ، وهى من الأهمية عند أمثال هؤلاء الشبان بحيث يرون ضرورة علاجها على وجه من الوجوه قبل التوفر على أى عمل .

وقد شك كارلايل فى نفسه وقدرته ، وأخذ شكه يقوى وتتوشج أغراسه ، وتمتد فروعه حتى شمل كل شىء ، وتراءت له الدنيا ميتة شوهاء ،

وراغ إلى فكرة الخلاص من الحياة ، وأخذ يفكر فيها تفكيراً جدياً ، وقد أدركته وهو يتخبط فى هذه الحيرة العمياء حكمة جيتى ، فنقلته من أغوارها المظلمة ، ودياجيرها المتراكبة ، إلى آفاق مشمسة ضاحية ، وكان جيتى قد عالج هذه الحالة ووصفها وصفاً دقيقاً فى أحزان ورتر وعرف منشأها وأعراضها ودواءها ، وسببها النزوع إلى غير المحدود الكامن فى نفس الإنسان ، وصراعه مع المحدود الذى يحدق بنا ، ويعترض سبيلنا ، وليس غريباً أن يغلبنا الملل ، ويهزمنا اليأس ، عند ما نرى أن آمالنا المحلقة لا سبيل إلى تحقيقها فى نطاق الواقع الضيق ومجاله المحدود ، ولكن لا خلاص من الشك إلا بالعمل ، وهذا هو الدرس الخالد الذى تعلمه حكيم شلسى من حكيم ويمار .

وإعجاب كارلايل بجيتى من طرائف الأدب ، وناصع صفحاته ، وشائق قصصه ، فقد كانت ظروف حياتيهما مختلفة كل الاختلاف ، وكان بينهما الكثير من تباين الشخصية ، وتغاير المزاج ، فقد كان كارلايل قبل كل شيء رجل بلاط ، وسيداً بارزاً فى المجتمع ، وكان كارلايل شاباً ريفياً فقير الأبوين ، شاذاً عزوفاً عن الناس ، يأنس بالوحدة ، ويستريح إلى الخلوات ، وكان جيتى فى أوج الشهرة ، وقمة المجد ، وهدأة الشيخوخة ، وكان كارلايل فى ريعان الشباب ، وفورة ثورته ، خامل الذكر ، مجهول القدر ، وكان جيتى شاعراً خالقاً ، وكارلايل ناثراً لا يجيد التغنى بالشعر ، ولا يحسن خلق الشخصيات الروائية ،

وتغلب عليه النزعة الانتقادية ، والنظرة التاريخية ، وكان جيتى وثنى النزعة ، مدرسى الثقافة ، على حين كانت الوراثة الدينية البيوريتانية شديدة التغلغل فى نفس كارلايل قوية الأثر ، وكان جيتى بطبيعته أولمپياً يقيم فى الأعالى ، ويسكن الفراديس ، أما كارلايل فكان بمزاجه الحزين ونفسه القلقة من أهل الجحيم المتسعرة ، والهوايا الغائرة ، ولست أحسب تفسيرنا لتلك العلاقة بميل النقيض إلى نقيضه كافياً ، فإنما سر هذا الإعجاب العميق ، والتقدير الرفيع ، هو عناية كليهما بأعظم الفنون المعروفة وأجلها خطراً وهو فن الحياة ، والدرس الذى تلقاه كارلايل عن جيتى هو خلاصة الآراء الأخلاقية التى انتهى إليها جيتى فى شيخوخته ، وتعلق بها كارلايل فى بوادر حياته الأدبية ، وظل مخلصاً لها طوال حياته ، مقدراً من أجلها حسن صنيع جيتى ، مثنياً عليه فى كتبه وفصوله ورسائله وأحاديثه ، ولقد وصف جيتى تلميذه الشاب بأنه « قوة أخلاقية ذات شأن » وقد صدق حدسه فقد أثر كارلايل فى الأدب الإنجليزى تأثيراً بعيداً ، وأطلع الإنجليز من كتابات جيتى وشلر ورختر ونوڤاليس على آفاق واسعة ، وعوالم جديدة ، وكان قوة عظيمة فى إيقاظ الشعور الدينى ، والإحساس الأخلاقى ، لا من ناحية التقاليد ، وحرفية العقيدة ، وإنما من ناحية تأمل النفس ، والنظر إلى الحياة ، والتمرس بتجاربها .

وقد تعلم كارلايل فى شبابه اللغة اللاتينية والفرنسية ، وتوسع فى الاطلاع عليهما ، وفى سنة ١٨١٩ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره أخذ يدرس

الإيطالية والألمانية ، وكانت رغبته فى دراسة الألمانية لها بواعث كثيرة ، فقد سمع باسم جيتى فى طفولته ، وظل هذا الاسم يدوى فى نفسه دوياً غامضاً ، وزاد فى توجيه التفاته إليه وعنايته به اطلاعه على كتاب مدام دى ستايل عن ألمانيا ، وقد حضه صديق من أصدقائه الواقفين على حالته النفسية على دراسة الفكر الألمانى لأنه سيجد فيه طلبته ، وتقدم فى دراسة الألمانية تقدماً وحياً حتى استطاع فى سنة ١٨٢٠ أن يعلن أنه قد كشفت له سماء لم يرها من قبل ، واهتدى إلى أرض ليس له بها سابق عهد ، وفى سنة ١٨٢٣ عرف بعد مدى عبقرية جيتى ، وفرط اعتلائها ، وشرع يترجم روايته العظيمة « ولهلم مايستر »

وقد استمر إعجابه بجيتى ملازماً له طوال حياته وإن كان قد انتابه فى خلال تطوره نوبات من الضعف ، وظلال خفيفة من الشك ، ففى أثناء ترجمته لرواية ولهلم مايستر كان يقول إنه كان يود لو أن جيتى كتبها بطريقة أخرى ، وقال إنه فى بعض الأحايين يجثو على قدميه ويعبد جيتى ، وفى أوقات أخرى يود أن يطرده من حجرته ، ووصف مرة نفس رواية ولهلم مايستر بأنها « أكوام مركومة من التراب والقش والريش ولكن هنا وهناك درة يتيمة » وكان يقول عن جيتى « إنه عقل كبير راجح ولكنه كثير العيوب والمتناقضات » وفى سنة ١٨٢٨ أثناء تبادل الرسائل بينهما طلب إلى أخيه « چون » أن يمر فى طريقه بويمار ويرى أى نوع من الرجال جيتى لأنه من أمره فى لبس ، وفى سنة ١٨٣٦ لما قرأ محادثاته مع إكرمان خاب

ظنه وقال عنه « إن كثيراً من معاييره للأشياء والأشخاص خاطئة » وفى السنة التالية كتب يقول « لقد فرق الدهر بيننا ولكن ذكراه ستظل فى نفسى ناضرة فينانة لأنه أنقذنى من الهلاك المحتوم » أذكر ذلك لأبين أن إعجاب كارلايل بجيتى لم يكن إعجاباً مطلقاً ، ولا حباً أعمى ، و إنما كان إعجاباً مشوباً بعرفان الجميل ، والحرص على رعاية العهد ، لأنه أدى إليه خدمة كبيرة ، وخيراً عميما ، يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال اعترافه بعبقرية جيتى ، و إكباره لملكاته الأدبية ، وقدرته الفنية ، وقد عبر كارلايل عن تقديره لهذا الجميل فى مناسبات شتى ، ففى سنة ١٨٢٧ كتب إليه ضمن رسالة « إن إنقاذى من الهاوية ، وهدايتى فى الظلمة الحالكة ، ومعرفتى لنفسى ، وتبصيرى بواجباتى ، ووقوفى على غايتى ، كل ذلك إنما استمددته من كتبك ، ولك — أكثر مما لأى إنسان آخر — أتوجه على الدوام بشكرى و إجلالى ، وشعور التلميذ نحو أستاذه بل شعور الابن نحو أبيه الروحى » وفى سنة ١٨٣٢ كتب إلى أخيه چون يقول « إنى لا أفتأ أشكر الله الذى قيض لى رجالاً من طراز رختر وشلر وجيتى و بخاصة الأخير لأنه كان إنجيلى الهادى » وفى سنة ١٨٦٦ كتب فى ذكرياته « أما ما غمر نفسى من السرور وعرفان الجميل فلأترك لكل روح تقية صالحة تقـديره ، فقد أصبحت وأنا الفقير المجهول الذى لا يبسم له أمل ، ولا ترفه عنه تعلة مستقلاً عن الدنيا غنياً عنها ، وقد شعرت حينذاك — وما أزال أشعر — بأنى مدين لجيتى فى هذا الصدد ، فقد تسلق قبلى

الطريق الوعر » وقد صرح لغير واحد من خاصة أصدقائه أنه لولا أن أدركه جيتى فى أزمته لكان وضع حداً لحياته ، ومقالاته عن الأدب الألمانى وعن جيتى خاصة كلها تؤيد ذلك ، ومراسلاته لأصدقائه كلها حض على دراسة جيتى والاغتراف من ينبوعه ، والاسترشاد بحكمته ، وقد ظل إلى آخر حياته وأحب الكتب إلى نفسه الكتاب المقدس ومؤلفات شكسبير وجيتى .

وقد رأى بعض من كتبوا عنه أنه تأثر بالفيلسوف فخت أكثر مما تأثر بجيتى ، ولكنى أشك فى صحة هذا الرأى لأن المعروف عن كارلايل أنه كان يضيق ذرعاً بالدراسة الفلسفية المستفيضة ، ولا صبر له على التفكير المجرد وبحوث ما وراء الطبيعة ، لأنه كان كثير العناية بالأشخاص والحوادث ، وكان اشتغاله بهما أكثر من اشتغاله بالأفكار والنظريات ، والجانب الفنى فى نفسه أرجح بكثير من الجانب النظرى ، والنظرة الأخلاقية عنده أقوى من النظرة الفلسفية ، وقد اقتصر من فلسفة فخت على كتبه السهلة التناول التى توجه بها فخت إلى عامة الشعب ، وهذه الكتب قرأها كارلايل فى شغف وعناية وقدرها وأعجب بها ، واقتبس بعض أفكارها فى كتبه ، ولكنها لم تؤثر فى تفكيره بوجه عام تأثيراً عظيماً كتأثير جيتى .

وكان الشك قد غمر نفس كارلايل ، وتمشى فى عقيدته ، فأسقمه ذلك وأتلف صحته ، وظل إلى آخر حياته يعانى عقابيل تلك الأزمة ، وقد علل

بعض مترجمى حياته فساد صحته بنقص التغذية فى طفولته ، وعزاها البعض إلى شدة إكبابه على الدرس وإجهاده عينيه فى الاطلاع ، ولكنه هو نفسه كان يعزو عسر الهضم الذى لازمه طول حياته ونغص عليه عيشته إلى الحيرة التى تغشت نفسه فى ذلك الوقت ، والمعارك الروحية الحامية التى خاض غمارها ، والثورات النفسية العنيفة التى اصطلى بنارها ، وقد كتب عن ذلك فى ذكرياته يقول « إن صحة الجسم كانت كل ما فقدته فى هذه المعركة الرهيبة التى خرجت منها ظافراً » وقد أوجدت كتابات جيبون عنده الشك فى المعجزات ، وقوى ذلك الشك اطلاعه على فلسفة هيوم ، ومن غريب الحوادث أن هذا المتحمس الدينى والواعظ الأخلاقى قد وجد الخلاص فى رواية عن جماعة من الممثلين والممثلات المتنقلات .

وقد كان چيتى روحاً شاملة واسعة الإحاطة الشعر فى صميمها ، وكانت حكمته ثمرة حياة حافلة ، وحصاد تجربة منوعة كثيرة الجوانب . وقد اكتسب كارلايل فى غضون ترجمته لبعض كتبه ودراسته لمؤلفاته الكثير من كلماته وتعابيره ، كحديثه عن السر المكشوف ، ورأيه فى أن التجربة خير معلم وإن كان ثمن الدرس غالياً ، وأن الجمال أسمى من الخير ، ولكن هذه أشياء كان يتخذها كارلايل حلية لأسلوبه ، ونريد أن نلم ببعض الوصايا والحكم التى اتخذها قاعدة لحياته وأساساً لتعاليمه وظل يبشر بها ويرفع صوته عالياً بالدعوة إليها حتى طواه الموت وأسكت نامته .

وقد كانت رواية « ولهلم مايستر » هى المنجم الذى استغله كارلايل

واستخرج منه حكمته ، وعند ما يقرأ الإنسان هذه الرواية تخالجه أول وهلة الدهشة لإعجاب كارلايل بها ، والواقع أنه استخلص من هذه الرواية العناصر التى تلائم شخصيته ، وتحل مشكلاته ، وتفتح عينيه على الحياة الصالحة ، وقد أصاب فيها حكمة جيتى الأساسية ، وهى أن الإنسان سيد نفسه ، وفى وسعه أن يصوغها على مشيئته ، وأن الحياة الأخلاقية إن هى إلا جهاد مستمر ، وتطور دائم ، وأن طريق الخلاص هو العمل ، فهو الذى يطلق الإنسان من الأسر ، ويحل عقال استعداداته ومواهبه ،ورأى كارلا يل أن أكبر درس يتعلمه الإنسان من ولهلم بطل الرواية هو أن على الإنسان أن يحدد وظيفته ، ويطرد الأوهام ، ويثابر على العمل ، ولم تغب عن عينه البصيرة وذوقه النقاد عيوب الرواية ، ونواحى ضعفها ، وخلوها من المشاهد الحية ، وإقفارها من روح الفكاهة المستعذبة ، وكانت تستهويه منها شذرات منتثرة ، وفصول قائمة بذاتها ، فيها إشارات موحية فى جلاء غرائب الحياة ، وعلاج مشكلاتها ، ودراسة عالية لفن الحياة .

وقد ورد فى هذه الرواية « إن الخطة المثلى هى أن أعمل الواجب القريب منى » وجاء فيها « ما أثمن وما أوفر أهمية الواجب القريب منى » وبها « لا يزول الشك مهما يكن نوعه إلا بالعمل » وعاد جيتى فأكد ذلك فيها بقوله « دع هذا الذى يتحسس طريقه فى الظلام والضوء المرتجف ويدعو ويبتهل لإقبال الفجر يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص ، وهى أن يعمل الواجب القريب منه ، فإذا قام بذلك أصبح

الواجب الذى يتلوه أوضح طريقاً وأبين مظهراً» وقد كانت فكرة الواجب عند جيتى حكمة عملية تسيطر على أكثر أعماله ونواحى نشاطه ، وقد وجد الخلاص فى العمل المستمر سواء فى العلوم والفنون والآداب أو فى واجباته الرسمية فى ويمار ، وكان فى أوقات صفائه يشكر الله لتنوع تفكيره الذى مكنه أن يقسم يومه إلى أقسام عدة ويجعل منه أبدية مختصرة،وعند ما كان يطغى عليه الحزن ، كالحزن الذى تولاه فى عقب موت صديقه شلر ، كان يعترف فى مرارة بضرورة عمل ما بين يديه دون أن يفكر فيما هو أبعد من ذلك ، ولما فجع فى ابنه الوحيد لم يتوقف عن العمل يوماً واحداً ، وهكذا فى كل الظروف كانت نصيحته أن نرقب الطريق ونعمل ، والعمل يحمل فى طيه مثوبته، أليس هو إنماء لقوى الإنسان إلى أقصى حدود استعداداته وخير ضمان لخلود ذكره ؟

وكان موقف كارلايل مخالفاً تمام المخالفة لموقف جيتى ، فقد درج كارلايل فى ظلال عقيدة بليت وأخلقت جدتها ، ولكنه كان ولوعاً بها ، شديد الحنين إليها ، وكان مستغرقاً فى تفكير مؤلم يبحث عن الخلاص ، ويلتمس شاطئ النجاة ، ونور الهداية ، حتى وقف على عمق حكمة جيتى فى قوله « إعمل الواجب القريب منك » وهى عند جيتى سياسة عملية حكيمة أكثر مما هى حكمة نظرية ، وفكرة دينية،وقد صارت هذه الكلمة البسيطة فى ظاهرها إنجيل العمل عند كارلايل ، ذلك الإنجيل الذى يبشر به ويعمل بما فيه حتى قال عنه تندال « لم يتكلم أحد عن الواجب ومقتضياته

والعمل وجلاله بمثل ما تكلم به هذا الرجل »

وهناك فارق كبير بين فهم كل من جيتى وكارلايل لفكرة الواجب ، فقد كان جيتى يرى الواجب حكمة عملية تعينه على استجاشة قواه وإنماء مواهبه ، وتسنمه أعلى مراتب الثقافة ، أما عند كارلايل فقد أخذت الفكرة لوناً دينياً ، وكان فى قيامه بالواجب كأنه يستمع إلى صوت مقبل من العالم غير المنظور ، أنظر إلى قوله فى مقالة « الخصائص » وهى من أروع كتاباته « هنا فى هذه الدنيا إنما نحن جنود نحارب فى أرض غريبة ولا نفهم خطة القتال ، وليس بنا من حاجة إلى فهمها ما دمنا نرى جيداً واجبنا القريب منا ، فلنقم به كالجند فى خضوع وشجاعة وسرور ينم على البطولة »

ولم يكن غرضه من وراء أداء الواجب تحصيل العلوم ، وتوسيع آفاق الثقافة ، و إنما كان يرمى إلى تعميق اعتقاد راسخ فى نفسه ، وهذا الاعتقاد هو أن كل شىء فى هذه الدنيا تسيطر عليه القوة والحكمة والحب .

والنظرية الثانية الهامة التى تعلمها كارلايل من جيتى هى نظرية الاحترام فى مظاهره الثلاثة ، احترام من هو « أسمى منا » ، واحترام من هم حولنا ، واحترام من هم دوننا ، وقد تفرع من نظرية الاحترام هذه رأى كارلايل فى الأبطال وعبادة البطولة ، لأن هذه العبادة قائمة على احترام من هو أسمى منا ، وفكرة احترام من هو دوننا قوّت فى نفسه العنصر المسيحى ، وجعلته يقول بعبادة الحزن و إكبار الألم والشقاء .

وتعلم منه كذلك نظرية الاستسلام وإنكار الذات ، ومعناها عندهما قصر الجهود على ناحية معينة ، وحصرها فى أضيق نطاق ممكن ، لأن توجيه الجهود فى متجه واحد معناه التغلب على الأهواء والنوازع ، والخلاص من أسر الرغبات ، والارتفاع من الأنانية والأثرة إلى حب التضحية ، وهو من قوة التأثير على الحياة بحيث إن جيتى عده بعد العمل أهم مبدأ من مبادئ الحياة ، وكان إنكار الذات عند جيتى يبدو فى مظهر تجرد الرجل الذى ينشد الثقافة من الأهواء ، وتخلصه من القيود ، أما كارلايل فقد فسره تفسيراً يلائم حياته الروحية ، ونشأته القاسية ، ونزعته الرواقية وما كابد فى حياته من البأساء والفاقة .

وتعلم كارلايل من جيتى أشياء أخرى كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها ، وأقف منها عند هذا الحد وأرجو أن يجد القارئ فى تأمل العلاقة بين هذين الرجلين عبرة صالحة ودرساً نافعاً .

رثاء كارلايل لجيتى

(لما مات جيتى فى سنة ١٨٣٢ كتب كارلايل هذه الكلمة ينعيه إلى قرائه ويرثيه)

بين أخبار الوفيات التى أذاعتها الصحف فى هذه الأيام نعى له منزلة خاصة ، فإن زمانه ومكانه وسائر أخباره وتفاصيله ستعاد كتابتها ، وتكرر تلاوتها ، وسيبقى ذكرها متنقلاً على هام العصور القادمة ، وأعنى بذلك وفاة جيتى بويمار فى الثانى والعشرين من مارس سنة ١٨٣٢ ، ولقد أصعد آخر أنفاسه فى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، ولم تلح عليه لوائح مقاساة ألم وشدة ، فقد استدنى قبيل وفاته بدقائق قرطاساً للكتابة ، وأعرب عن ارتياحه لإقبال الربيع ، وإنها لميتة جميلة كميتة الجندى الذى يتأوبه المنون وهو ثبت فى موقفه ولا تزال يده التى سرت فيها برودة الموت قابضة على السلاح ، وإن آخر كلمات ذلك الشاعر لنعم التحية للأرض وقد استعادت جمالها الملحود ، واستردت شبابها المفقود ، وكان فى آخر ما صدر عنه من الحركات يحاول معاودة العمل الذى اصطفته له الطبيعة ، فهى ميتة عليها من الحسن رونق ، ويمكننا أن نصفها بأنها ميتة كلاسيكية مقدسة ، إن لم تكن نقلة كنقلة[1] إيليا لا فى مركبة من النار وعاصفة مجلجلة وإنما

---

(١) يشير كارلايل هنا إلى مسألة صعود إيليا فى العاصفة إلى السماء الواردة في الجزء الثانى من سفر الملوك (الإصحاح الثانى)

فى مركبة من الأمل وأشعة شمس الربيع اللينة المطمئنة ، ولقد جاء هذا الرجل إلى الدنيا فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة فرانكفورت الواقعة على المين ، والآن وهو يستقبل فى رفق مقدم ربيعه الثانى بعد الثمانين يغمض عينيه ويودعنا الوداع الأخير .

وهكذا قد رحل عنا أعظمنا وأجلنا شأناً ، وسكنت نأمة تلك الحياة ، ولاذت بالصمت أنغامها الساحرة التى كانت قيد القلوب ، وعقلة الآذان ، وارتفعت عنا تلك القوة السماوية التى عاشت هنا متوجة بأكاليل انتصاراتها فى معارك كثيرة ، ولن يعبر بعد الآن هذا الرجل الحكيم عن نفسه بالقول أو بالعمل .

النهاية ! أى معنى جليل ينطوى فى ثنايا تلك الكلمة وهى ترن رنيناً محزناً فى جنبات الروح حينما يمضى الموت بصديق لنا من الأحياء ! لقد طويت الصفحة وأسدل الستار ، وصورة الحياة الدائمة التغير والتبديل والتى يتألف كل يوم شتاتها وينتظم شكلها تحت أصباغ طريفة ونقوش مستحدثة قد تكاملت فجأة ، ولن يطرأ عليها بعد ذلك تبديل ، وستظل كما هى الآن مغمورة فى أثير السماء ، ينبعث منها الضوء ، وستلوح هكذا إلى الأبد ، فواعجباً من الزمن ودولة الزمن ! ذلك العبوس الصارم الغرثان الرحيب الجوف ، ولكنه مع ذلك له جلاله وروعته ! وهذا الرجل الذى كان بيننا بالأمس قد تردى ثياب الأبدية وأصبح مشرقاً يطل علينا من سماء انتصاره ، ولقد صار الحاضر ماضياً ، وانقطع الأمل بغتة ، ولم تبق فى

الذاكرة سوى مشاهـد الذكريات تنيرهـا أنوار ليست من تلك الشمس الأرضية .

ووفاة جيتى حتى لأصدق خلصانه ليست خطباً تراق فيه سواكب الدموع ، ويكثر فيه العويل والنحيب ، وإنما هو حادث حافل بالعظمة والقداسة ، لأن الموت حتم فى رقاب العباد ، وقد منح جيتى حياة كاملة ، وأتيح له عمل لم يتح مثله إلا لأفراد قلائل فى تاريخ العالم بأسره ، فالموت هو ما كنا نتوقعه له وقد أتم عمله وأكمل واجبه .

وإذا كان يصدق قولنا عنه من بين الآخرين إن مسيره فى حياته كان مثل سير الشمس فكذلك كان مغيبه عنا ، وكما أن الشمس تجلو للعيون الأشباح والصور فكذلك الشعر فى مدلول اللفظ الروحانى ، وإذا تدبرنا حياة جيتى وجدناها شبيهة بيوم مشمس مؤتلق ، ففى جمال رفاف ارتفعت شمس صيفنا رائعة باهرة فى المشرق ذى اللون الأرجوانى المشتعل صادعة لشمل الخيـالات ، منفرة لسرب الأوهام والخزعبلات ، (وكان هناك الكثير منها) وافرة القوة جمة المبرة فى وقت الظهيرة ، متنقلة وهى ترفل فى حلل الفخار بالآفاق العالية ، فانظر الآن كيف تغرب ! وهكذا يودى المنون بالبطل ، ولعمرى إنه لمنظر جدير بالعبادة !

وحينما تغرب الشمس وتغيب — وهى تلك المادة غير الحية — قد يحدث أن نقف ونرسل الأنظار إلى نواحى الغرب التى لا تزال متوهجة ، وهناك ترتفع سحب ورساء مسلوبة الحركة كأنها أستار ترخى على مسرح

ذلك اللهب ، وفى هذا الموقف والنهار مودع محتضر يلم بنا شعور يعقد الألسنة ، ويملك علينا البيان ، وكأن أصوات الزمن التعسة ، — أصوات مطارق العمل على سنادينه وقد مسه اللغوب ، أصوات هؤلاء القوم البسطاء — قد أصبحت رهيبة تسمو على المألوف ، وكأننا فى الإصغاء إليها نستطيع أن نسمع اختلاطها بصوت الأبد القديم الدائم الدوى ، وفى مثل تلك الأوقات نكون أقرب إلى استجلاء أسرار الحياة ، وتزخر نفوسنا بالغوامض والأسرار ، وتبدو الحياة أقدس وأغرب ، وأروع وأرهب ، وكم سيكون التأثير فى نفوسنا أقوى وأبلغ عند ما يكون المنظر منظر غروب شمس حية ، وليس موعد طلوع غرتها المشرقة وضيائها الباهر صباح الغداة ولكن لا مطلع لها أبد الدهر ، ولن يعادلها شروق مهما تطاول الزمن ، وامتدت الأيام ! وإزاء مثل هذا المنظر الصمت أليق بمن كانت عنده إثارة من شعور كالصمت الذى يستولى علينا حيال السر الجليل الخافى ، ولكن الصمت برغم ذلك لا يقرب منا البعيد ، ولشعور كل منا صدى فى قلب أخيه ، وموجود الآن ما لم يكن له وجود منذ أعوام قلائل ، وأقصد بذلك أن هناك الآن فريقاً من الرجال تعى قلوبهم معنى هاتين اللفظتين « موت جيتى » ، ولهؤلاء أسوق كلمتى إلى جانب خواطرهم العديدة عن الحادثة ، تلك الخواطر التى لم يعبر عنها اللفظ ، وأرجو أن تصادف منهم قبولاً .

يقول الفيلسوف « الموت هو امتزاج الأبدية بالزمن ، وفى موت الرجل الصالح نرى الأبدية مطلة من خلال الزمن » ، وليس من المستنكر حيال

جلال كهذا ممنوح للقلب والعين أن ننظر برغبة حافزة واهتمام مجدد إلى الأمام و إلى الوراء وأن يعن لنا أن نسأل عن مدى التأثير الذى تحدثه جهود مثل هذا الرجل فى تلك السنوات والقرون العديدة ، وعن علاقة هذا الذى أصبح فى عداد الخالدين بعالم التغير والفناء الذى نسميه الحياة ، وماذا سيكون من أمرها فى المستقبل .

ومن الألفاظ الدائرة على الأفواه أن جيتى بدأ عهداً جديداً فى الأدب ، وأن عصراً من عصور الشعر جاء معه ، ونهاية ذلك العصر أو ما أسفر عنه ليست الآن ظاهرة جلية ، وهذا القول السائر حق صراح ، بل إن فيه من صميم الحق أكثر مما يتبادر إلى نفوس الكثيرين ، ولو كان الشاعر نغمة عذبة رقراقة ومغنياً يمتع آذان الخلى بالأغانى التى ترفه عن النفس وكان الشاعر الجديد هو الذى يسمعنا تلك النغمة فى لحن جديد لكنا نعد الأمر هيناً ، ونعتبر ما جاء به شيئاً صغيراً ضئيلاً ، ولكن هذا الرجل كما يعرف الكثيرون كان شاعراً لم يشهد المتأخرون له ضريباً ، و إنه لنوع من الامتياز والتفوق فى هذا الجيل أن نعتقد بوجوده بل بإمكان وجوده ، وما زال الشاعر الحق من مؤتنف الأجيال هو الرائى الذى رزق من نفاذ النظر ما يمكنه من استشفاف لغز الكون الإلهى ، وحل رموز كتاباته السماوية ، ولا نزال نستطيع أن نسميه « بالرائى » لأن بصره يجتلى أعظم الأسرار ، ألا وهو « السر الجلى » وتتضح له الخفايا ، وترفع الحجب والأستار ، ويرى كيف أن المستقبل ليس سوى وجه من أوجه الحاضر (كلاهما قائم

على الأبدية) ولذا تجىء كلماته نبوءات صادقة كاشفة ، وما ينطق به لا بد من عمله .

وقد بدأ يعرف فى هذه الأونة بكل مكان أن القوة الحقيقية التى يجب أن تعنو لها جميع الأشياء وتطيعها هى قوة البصيرة والمشاهدة الروحية ، وقوة العزم والتصميم ، وأن الفكرة هى أم العمل أو هى روحه الحية ، وهى المحركة له ، وهى الدائمة والباقية منه ، وهى الأساس والبداية والجوهر واللباب لوجود الإنسان فى هذه الأرض ، وقد قيل فى هذا المعنى إن كلمة الرجل (أى فكرته التى نطق بها) لا تزال صيغة سحرية يسيطر بها على الدنيا ، أو ليست تطيعه الرياح والأمواه والقوى الصاخبة الثائرة من الأحياء والجمادات ؟ و إن كلمات قليلة تنبعث من فم ساحر صغير الشأن من الصناع فتمخر عباب المحيط وتعبره سفن لها أجنحة من نار نزولاً على أمره ، أو تأمل فوق كل شىء الاضطراب الذى شمل الأمم والفوضى التى أرخت سدولها وضربت بجرانها وكيف أن صوتاً رفيقاً ليناً ينبعث من أحد شهداء العبرانيين وأنبيائهم يحيلها نظاماً ، فتصبح الأرض المتأبدة بارة جميلة ، وتغدو منازل القسوة المنكرة معبد سلام ، وملك الدنيا الحقيقى الذى تراها فى يده كالشمعة طواعية وليانا يصوغها كيف شاء هو من ينظر إلى الدنيا نظرة منطوية على الحب ، وهو المفكر الملهم الذى نسميه فى عصرنا بالشاعر ، والملك الصادق هو الرجل الحكيم .

وكما أن القمر الذى يستطيع أن يدفع بمياه الإطلانطيقى لا يرسل الأمواج

الخاضعة لسلطانه دفعة واحدة وإنما فى تدرج وتعاقب ، والمد الذى يغشى شواطئنا اليوم وتغمر مياهه جميع الخلجان قد بدأ فى صميم المحيط العظيم منذ ثمان وأربعين ساعة (كما يؤكد لنا الفلكيون) ، والحقيقة أن جميع الحركات العالمية وهى عميقة بطبيعتها ولذا نراها صامتة هادئة وهى تنساب وتتدفق إلى الأمام فى تؤدة جليلة وأناة فخمة ، فكذلك الدافع الذى يجىء به الرجل العظيم وتأثيره على غيره من الناس ، وقد يطوى جيل أو جيلان قبل أن يظهر تأثيره السماوى فى الدنيا ويصبح (مثل عمل القمر) واضحاً يلمسه الناس وإن لم يفهموا طبيعته ، وقد يمر جيل أو جيلان لينمو ويبسق ، ويعم وينتشر ، ويشمل كل شىء قبل أن يبلغ القمة ، ويوفى على الغاية ، ثم يختلط بعد ذلك بحركات أخرى ودوافع مستحدثة ، وفى النهاية يصبح فى غير حاجة إلى الملاحظة الخاصة ، والدلالة المعينة ، وسيطول أو يقصر هذا الأوان تبعاً لطبيعة الدافع نفسه والعناصر التى يعمل بها وهل هو — قبل كل شىء — واطد الأساس بعيد الأعراق ، أو سطحى ذائع شائع ولكنه موقوت زائل ؟ فإذا كان داود هيوم هو الآن الحبر الأعظم المسيطر على القلوب والمرشد لمعظم الألسنة (حتى تلك القلوب والألسنة التى تحاول جهدها التمرد عليه) فإنه يوجد برغم ذلك من العلامات ما يدل على أن عمله قد قارب التمام وشارف الختام ، والآن يلوح من بعيد الذى سيخلفه ، وقد رأينا من ناحية أخرى نابليون تنفجر قوته فجأة كما ينفجر البارود (وكان فى الواقع يعمل على نمطه) ويملأ الآفاق دوياً مدى خمس وعشرين سنة

ثم يلوذ بالصمت ، وذلك على حين أن الرجل ذا العظمة الوثيقة الأركان الذى يعمل بالوسائل الروحية ليس من غير المألوف أن يستمر تأثيره مدى قرنين ، ولقد شاهدت أرضنا هذه رجالاً لم يكمل نمو تأثيرهم إلا بعد انقضاء ألف وخمسمائة سنة ، وربما قد يستمر موجوداً بعد ألفى سنة .

ولكن الأمر كما قد كتب مرة « بالرغم من أن هناك ساعة كبيرة دقاقة تدق حين الانتقال من ساعة إلى أخرى فليس ثمت مطرقة فى ساعة الزمن تدوى فى أرجاء العالم معلنة أن هناك انتقالاً من عصر إلى عصر » ، والابتداء الحقيقى فى الأغلب غير ملحوظ وغير قابل للملاحظة ، وهذا علة ما يركب الناس من الخطأ فى الحساب حتى تراهم يتحسسون هنا وهناك غير عالمين أين هم ، وفى أى اتجاه يسير تاريخهم ، فمثلاً فى خلال ذلك القرن الأخير الذى كان مليئاً بالشدائد وأفاعيل الهدم أى أمل قام على الحسبان الخاطىء قد انتهى بالخيبة ! وكم من الانتصارات الذائعة الشهرة ظفر بها وفقدت ، وكم من الأسر ارتفع شأنها ثم سقطت ، وكم من ثورات قامت ، وكم من نظم حلف لها يمين الولاء والإخلاص ، وكان يتردد القول بأن العصر الجديد قد أقبل وإنه فى طريق المجىء ، ولكنه مع ذلك لم يأت وظل الزمن معتلاً مريضاً ! ولم يكن ذلك كله للأسف سوى انتفاضات للزمن وهو على فراش الموت ، ولم يكن هناك ما يشير إلى اقتراب الموقف الحاسم فى علاج الزمن وتجديد قواه ، ولقد جاء العصر الجديد حينما أقبل على العالم الرجل الحكيم ببصيرته النافذة وروحه العظيمة ليضطلع بين هذه العقبات الجديدة بتلك

المهمة القديمة السامية ، وهى أن يحيا حياة حكيمة ، ومثل هذا الرجل قد صار بموجب الاختيار السماوى منقذ العصر ومنجيه ، ألم يحتمل لعنة العصر ؟ ولقد كظت شعاب نفسه شكوك العصر ومراراته ، وآلمته أكاذيبه ومتناقضاته حتى كاد قلبه ينفطر ، ولكنه تغلب على ذلك كله ونهض منتصراً وأظهر لمن يجىء بعده بالقول و بالعمل كيف يصنع صنيعه ويحذو حذوه ، فلله در هذا الرجل الذى مهد لنا الطريق حيث كنا لا نستطيع السير ! وهذا عمل كل رجل عظيم ، بل عمل كل رجل صالح فى أى ناحية من النواحى لأن الصلاح هو العظمة ، والرجل الصالح سواء كان من ذؤابة الأشراف أو من أبناء العامة هو دائماً الشهيد « والبطل الروحى الذى يتقدم إلى الهاوية لإنقاذنا » ولقد كانت الهاوية التى اجترأ على اقتحامها ذلكم الرجل ، وأسلس لكم قيادها ، وأزال وحشتها ، وجعلها صالحة للسكنى أعظم الهاويات وأحفلها بالأخطار ، بل كانت الهاوية التى تكمن فيها المكاره جميعها ، فإن أسباب التخبط والاضطراب لا تتجاذب وجود الإنسان من كل ناحية إلا فى العصر الذى فقد فيه يقينه وعقيدته ، والذى يعيش فى مثل ذلك الجو الأهوج الثائر ويبذل قصارى جهده ليحيا حياة حكيمة يعرف ويقدر ما يتطلبه مثل هذا العمل ، ولرجل عصرنا المختار الذى قام بأعبائه أسمى الاحترام والتوقير ، وهو جدير بأن نضفى عليه من حلل الثناء ما يضن به على غيره .

وسيقدر ويوزن فى الوقت المناسب مدى توفيقه وما احتمل من عناء

وأنجز من أعمال ، وتلك الكتب المسماة مؤلفات جيتى لن يتناولها منذ الآن أى تغيير ولن يضاف إليها جديد ، وقد سجل فيها محاولته الروحية مفصلة كاملة — لو أن الرجل أو الرجال الذين أوتوا القدرة على قراءتها قراءة صحيحة متأهبون مستعدون ! و إنها لسجل باهر ، وكل من حاول فهم نفسه و بيئته وجاهد فى الخروج من الظلمة إلى النور سيطيل قراءتها وهو يلهج بالحمد والشكر ، ففيها تتراءى صورة ذلك العصر المضطرب المائج تامة بما عانى من الخطوب والشدائد وما بلغه وأدركه ، وما عمل لتحقيقه وهدف إليه ، وقد شرح ذلك كله وفسر ، وهذبه وسما به الإشراق الشعرى فمن لواعج نفس ورتر وشجونه وعبراته التى كانت كأنها منبعثة من قلب أوروبا إلى الأمام خلال ألحان فاوست المتأبدة غير الأرضية التى تشبه أغنية روح العوالم الهاوية إلى تلك الحكمة الهادئة الباسمة فى وليم ميستر والديوان الشرقى أى فترة وانتقال ! وكلها منظومة فى موسيقى أثيرية كأنها مقبلة من عوالم خفية توحدها وتلائم بين أجزائها ، و إنها لفترة طويلة المدى ولكنها واسعة رحبة كما هى طويلة لأن هذا الرجل كان رجلاً عالمياً ، فالتاريخ والعلم والفن والنشاط الإنسانى فى كل مظهر من مظاهره وقوانين الضوء فى رسالته عن الألوان وقوانين الحياة الإيطالية المتأبدة فى ترجمته لمذكرات بنفنوتو شيلينى كل ذلك ميدانه ومجاله ولم يند عنه شىء ، ولم يترك شيئاً دون أن ينظر فيه و يتعمقه ، ثم تدبر سلامة كل ما يعمله من التكلف وطريقته الصحيحة الصادقة وجمعه بين البساطة والسمو ، والخفة والرشاقة !

فمن طرف فنية خالصة لها جودة صقل الطرف اليونانية القديمة مثل رواية تور كواتو تاسو و إفيچينى ، إلى أمثال وحكم وأقوال مأثورة لا نجد لها نظيراً منذ تمت أسفار العبرانيين ، وفى أعماقها الواضحة مواد تكفى لوضع كتب ضخمة .

وكما أسلفنا القول لم يأن بعد أوان وزن ذلك كله وتقديره ، وسيكون ذلك أوفق وأنسب بعد مضى قرن منذ هذه الآونه ، والذى يبحثها أحسن بحث سيرى معناها أعظم ، وسيكون أسبق الذين يعترفون بأنها قد سمت بهم ، فلينفذ القارىء ببصره قبل أن يطل عليها و يشرف ، و إنه لقارئ لا يحسن القراءة هذا القارىء الذى لا يتبين فيها مبادئ العصر الجديد الصادقة ، ذلك العصر الذى طالما سمعنا عنه الإرهاصات والتحذير الكاذب ، ومما يثير العجب والدهشة أن نرى بها بقايا الأشياء القديمة المحطمة البائرة البالية من نظم وأديان وأمجاد منسية وقد نفخت فيها العبقرية روح الحياة فانتسقت فى نسق جديد ووحدة ناشئة تسرى فى نواحيها روح الفن الخالق وتلك الفوضى التى جرها على القرن الثامن حرب المنافقين والمتشككين المنكرة تبدأ تعود هنا عالماً وكوناً ، وإن أسمى ما يقال عن الكتب المكتوبة ليقال عن تلك الكتب ، وهو أنها تحوى عصراً جديداً ، و بها التكهن بالعصر الجديد و بشائره ، وقد ألقى فيها الحجر الأساسى لبناء اجتماعى جديد للإنسانية ، وهذا الأساس الركين – كما كان من قبل – على صخرة طبيعية ، و إننا لنشاهد هناك كذلك آثاراً بعيدة الامتداد عن

خطة البناء تستطيع القرون المقبلة أن توسع نطاقها ، وتصلح منها وتحققها ، وستكون هذه الألفاظ غريبة الوقع فى بعض الآذان ، ولكنها برغم ذلك ليست مبالغات جوفاء ولكنها كلمات صادرة عن يقين ليس بالجديد ، وربما عند ما يدرس جيتى الجيل القادم ويطيل فيه التفكير تنحسر عنها الغرابة .

وإنه لقيم هذا الضوء الجديد من المعرفة الذى استنزله لنا أستاذنا ، ولكن مع ذلك فإنه يصغر إلى جانب أشعة الحب الجديد التى استمددناها منه ، وأهم عنصر فى أعمال أى أنسان هو الحياة التى حياها ، وتحت الاتفاق العقلى بين الرجل والرجل الذى يقوم على الأفكار اتفاق أسمى من العطف والحب يقوم على القدوة والمثل ، وتأثيرات ذلك الاتفاق والتجاوب خفية غامضة ، ولا يمكن عدها وحصرها ، لأن الحب هو بدء المعرفة كما أن النار هى بدء الضوء ، وهو يعمل كما تعمل النيران ، ولقد كان جيتى أستاذاً عظيماً ، ومعنى ذلك أنه كان رجلاً فاضلاً ، ولقد وعى هو نفسه الدروس ، وقد جاهد فى مدرسة التجارب حتى انتصر ، وكم من السامعين الذين نال منهم الضنى وكاد يدركهم الموت فى غيابات سجن الإلحاد الذى لا يدخله الهواء (وهو خواء تام ولا شىء) سيقع من نفوسهم موقع الأخبار السارة نبأ وجود مثل هذا الرجل أو أن وجوده ما زال ممكناً ! والذى يريد أن يجمع بين الإجلال والاحترام ووضوح التفكير واستقامة النظر ، وأن ينكر الباطل ويتحداه ومع ذلك يؤمن بالحق ويعبده ، والذى يريد أن يقف الموقف السليم ويسلك السبيل السوى بين الشيع الثائرة المتدابرة التى

تنتفض انتفاضات عاصفة وتمزق من هنا ومن هناك نظاماً اجتماعياً آيلا للزوال ، والذى يعمل فى الدنيا وللدنيا و يريد أن لا تعلق به أوضارها — مثل هذا فلينظر هنا وليتأمل ، و يمكننا أن نقول إن هذا الرجل صار عظيماً من الناحية الأخلاقية لأنه كان فى عصره ما كان يمكن أن يكونه الكثيرون فى بعض العصور الأخرى ، وذلك أنه كان رجلاً خالص الرجولة لا عوج فيه ولا أمت ، وتفوقه العظيم كان فى تلك الرجولة الخالصة النقية ، وكما كانت أولى مواهبه ـ والتى هى أساس سائر المواهب ـ موهبة العقل و بعد الغور ونفوذ النظر فكذلك كان العدل أو القدرة على أن يكون عادلاً أولى فضائله ، ولقد كنا نعجب منه بقوته الجبارة ، ولكنها كانت قوة يشرفها أرق اعتدال حتى لتشبه قوة الدنيا الصامتة المحفوفة بالصخور والتى تنمو الأزهار فوق صدرها المرتكز على الصوان ، ولقد كان أعظم الناس قلباً كذلك أشجعهم ، كان لا يعرف الخوف ، ولا يمسه اللغوب ، ولا يغلبه فى هدوئه ووداعته غالب ، رجل مكتمل النواحى قد اجتمعت فيه الحساسية المرتجفة الهفهافة وحماسة منيون العارمة المضطرمة بسخرية الشيطان (مفستوفوليز) المتهاتفة ، وكل جانب من جوانب هذه الحياة المتعددة الجوانب كان يلقى نصيبه المناسب .

ولقد كان جيتى يعد شلر سعيداً لأنه مات ملفوفاً فى أوراق الشباب فى أوج قوته ، وريعان فتوته ، وأننا سنتمثله فى شباب مخلد دائم ، ولكنه قد ادخر له مصير مختلف عن ذلك وأسمى منه ، وقدر له أن

يجتاز مراحل الحياة جميعها إلى نهايتها ، وأن يطوى تلك المراحل جميعها في نبل ، ففي إبان الشباب لم تفسده إغراءات الحظ المواتى ، ولا العيشة الراغدة المتصلة ، والعاقل البصير الذى يتأمل ذلك يقول « لا يستطيع إنسان سوى جيتى أن يصون أجنحته من الاحتراق في شمس السعادة الدنيوية » ففي رجولته بين العلاقات المعقدة المشتبكة كشاعر ورجل بلاط وسياسى ورجل عمل ورجل تفكير وفى بهرة الثورات الخارجية والروحية والحركات المقاومة لها ، و بينما الدنيا مقبلة عليه في ضجة أو بينما هى معرضة عنه فى صمت ، وفى كل الظروف والمواقف كان يسير على نهج ثابت ، و يلتزم خطة واحدة ، والشيخوخة نفسها التي توصف بالضعف والظلمة قد أحالها جميلة محببة ، فمن نظر إليه هناك فى جلاله ووقاره وقد ازداد احترام الدنيا له وضوحاً وصفاءً واستطاع أن يمسك على نفسه تلك الأمنية وهى أن يكون شيخاً موقراً مثله ، وما زالت السماء الرحيمة رحيمة بارة فهى لا تضن على سيرة حياة جليلة كهذه الحياة بأشرف نهاية وأجل خاتمة .

وهكذا كانت حياة جيتى ، وهكذا كان رحيله عنا ، وهو الآن يرقد إلى جانب صديقه شلر وصديقه كارل أوجست دوق ويمار ، وهكذا كانت مشيئة الأمير أن يكون مقره الأخير بين هذين الاثنين ، ولقد كانوا في الحياة مجتمعى الشمل وفى الموت لم يتفرق شملهم ، ويستريح الآن العامل الدؤوب الذى لم يعرف الكلال ، وقد ترك ثمرة أعماله نامية ، وستنمو وتبسق ، ولقد كانت سنواته الأرضية معدودة ، وقد

انتهت ، ولـكن جهوده لانهاية لها ، لأن جذورها ضاربة فى الأبدية ، وكل ما نعنيه بقولنا الأدب الألمانى الأرقى والذى هو أسمى الآداب الأوربية يدور حول اسم هذا الرجل ، لأنه مبتدعه وخالقه ، وإنه ليشرق على الدنيا التى لم تكن منه على ميعاد فى إبهام وغموض ، فمن يستطيع أن يقيس تأثيره البعيد ومغزاه وقيمته ؟ وأدب أوروبا سيزول ويمضى لسبيله ، وأوروبا نفسهـا بل الأرض بحذافيرها ستزول ويخنى عليها الدهر ، وهذه الأرض زورق الحياة الصغير بملاحيهـا المرتفعى الأصوات من بنى الإنسان وتاريخهم المتعب ستختفى يوماً ما كما تختفى ذرة السحاب من سماء « الكل » الصافية ! فما الإنسان إذاً ؟ ما الإنسان إذاً ؟ إنه لايلبث سوى ساعة ثم يسحقه الموت ، ولـكن رغم ذلك فإن فى وجود الرجل المؤمن وعمله (كما يؤكد لنا الإيمان من بدئه) شيئاً لايخضع لريب الدهر وعوادى الزمن ، بل ينتصر على الزمن ويكون ويدوم وسيبقى حين يقضى الزمن نحبه وينتهى أجله .

ولنعد الآن إلى الدنيـا تاركين ذلك القبر الجديد الحفر حيث يرقد الرجل الذى نحبه ، ولـكنه يرقد فى عظمة وفخار ، ولا تزال روحه حية فى نفوسنا حياة صادقة ، فهل يستطيع كل منا أن يعقد العزم على أن يقوم بعمله الصغير كما نهض ذلك الراحل بعمله الـكبير ، وكما يعمل الرجل الحق ، لا لليوم ولـكن للأبد ! وهل يستطيع كل منا أن يعيش كما نصح لنا وأمر لا فى رحاب الشهرة وحب الثناء وحدود الناقص ولـكن بعزيمة مصممة فى الكل والصالح والصادق .

تفاؤل ميترلنك

موريس ميترلنك فى طليعة الكتاب العالميين ، ومن المفكرين الأعلام ، ومن أقدر مفسرى الروح الحديثة ، وممثلى الأدب العصرى ، وقد خفت صوته وقل إنتاجه فى السنوات الأخيرة ، وربما كان لعلو السن وضعف الشيخوخة أثر فى ذلك ، فهو يهدف الآن إلى منتصف العقد التاسع من عمره الحافل وحياته الخصبة .

وكتب ميترلنك ملأى بالتأملات الجميلة ، والخواطر الحسان ، ولكنه لايرمى بها إلى التحليق فى الجواء العالية ، والانتقال إلى العوالم الأخرى السامية ، بل يريد أن يكشف لنا عن طرق السعادة فى هذه الأرض ، فهو يحاول أن يستخلص لنا الحكمة العملية التى تعيننا على تلقى صدمات القدر ، وعثرات الحظ ، وتجعلنا ننتصر فى المعركة ، أو على الأقل تهون علينا مرارة الهزيمة ، وغمرة الألم .

وميترلنك لايزور علينا ، ولا يخدعنا ، فلا ينكر شقاء الحياة وهموم العيش ، ولكنه يرى أننا إذا ارتفعنا وسمونا بأنفسنا إلى مستويات أعلى أبصرنا حقائق هامة لاتبدو لنا جلية واضحة ونحن فى الوهاد وسهل الأباطح ، وأمثال هذه الحقائق هى التى يحاول ميترلنك فى كتابه القيم

عن « الحكمة والقدر » أن يذكرنا بها ، ويعرضها على بصائرنا ، حتى لا تذهلنا النوائب التى تنو بنا ، ولا تذهب بنفوسنا شعاعاً .

وقد ظهر هـذا الـكتاب فى سنة ١٨٩٨ وحسن تقديره ، وصادف رواجاً ، واعتبره البعض خـير ما كتبه ميترلنك ، والـكتاب حافل بالآراء السديدة ، والنظرات النافذة ، وإن لم يحو مذهباً واضح الحدود ، ولا تأكيداً جازماً ، وبه صفحات مشرقة نيرة تترك أثراً قوياً فى النفس ، وتغذى القلب ، وهو يحبب إلينا الحياة ، ويبصرنا بمـا فيها من جمال وإشراق ، وبطولة وفضيلة ، ويجعلنا نحرص عليها ، ونعنى بها ، ويحدثنا عن حكمة القدر والمصير ، والشقاء والسعادة ، والاستسلام والأمل حديث المجرب الحـكيم ، والشاعر الصادق الحس والرؤية .

وليس لميترلنك غرض تعليمى أو غاية تربوية ، وهو يكتفى بأن يخلق حولنا جواً صافياً شفافاً كالجو الذى يخلقه للنفس الإيمان الصادق والتقوى الخالصة ، وذلك دون أن يضطرنا إلى إلغاء عقولنا ، والإيغال فى عالم الوهم والخرافة .

وربمـا كانت هذه السمة هى أجل سمات الـكتاب ، وخير مزاياه .

فهو روحية صافية نقية لا تشوبهـا صرامة العقيدة ، ولا جفوة التعصب ، تلمح فيهـا تأثره بفلسفة الرواقيين ، وحكمة الأناجيل ، ونظرات كبار الأخلاقيين من طراز إسبنوزا وغيره من أعيان الفكر ، ودعائم الفلسفة .

وحكمة ميترلنك حكمة باسمة تقبل الحياة ، وتؤمن بالسعادة ، وتعتقد بالخير ، وهناك ألوان من السعادة يمكن أن تذلل لنا الحكمة قطوفها ، وتيسر لنا نيلها ، وليس من الحكمة أن نخدع أنفسنا ، ونوهمها أننا نستطيع دفع غوائل الدهر وأحداثه المادية ، فنحن لا نستطيع أن نسيطر على الحوادث، ونمنع فقد الأعزاء، ولكن علينا أن نفرق بين مصيرنا الخارجي ومصيرنا الأدبي الداخلي، فنحن إن كنا نعجز عن مغالبة الحوادث ودفع شرها فى وسعنا أن نؤثر فيما تصنعه بنا وما تخلفه فى نفوسنا ، وقد تصيب الحوادث جسومنا وتؤلمها ولكن إذا كانت الروح لا تهن ولا تستسلم ولا تستكين ، أو إذا خرجت من المحنة والصهر أصفى وأنقى وأقوى وأصلب فمعنى ذلك أننا قد عرفنا كيف نلقى الحادثات ، ونتغلب عليها ونعلو فوقها ، والكوارث فى مثل هذه الحالة كأنها غير موجودة بالقياس إلى الروح ، وهكذا نستطيع أن نستمد من ظلمة الشقاء ضوءاً ينير جوانب النفس ، ونستخرج من عدوان القدر علينا قوة وصفاء وهدوءاً ، ومن هذا القبيل تلك السعادة التى استمتع بها الحكماء ، وظفر بها القديسون الأصفياء .

وقد يسوؤنا عسف الأقدار ، وتؤلمنا الكوارث التى تصيب الغير ، وتتركنا منكسرى العزم ، ولكن أليس ظلم القضاء هو الذى يجعل لعدالة الرجل الحكيم قيمة ؟ وإذا كان يكفى أن يكون الإنسان صالحاً تقياً نقياً ليجنب الكوارث والخطوب وإذا كان الرجل الشرير وحده هو الذى تلم بساحته الخطوب فما قيمة عمل الخير ؟

ولا يشك ميترلنك فى وجود الخير و إمكان بلوغه، وما دام الخير موجوداً فمن حقنا أن نستخلص أن العدالة كذلك موجودة ، لأن الخير لا معنى له فى الحياة المنعزلة التى لا علاقة لها بالحيوانات الأخرى ، والخير لا يتجلى فى الفراغ والجمود والأثرة و إنما يظهر فى مخالطة الناس وتأكيد الصلات بيننا و بينهم .

وليس مترلنك فى هذا الكتاب شاعراً ينشد الجمال ، و إنما هو مفكر يطلب الحكمة ، و يبحث عن الحق ، فهو لا يكتفى بالأحلام الوضيئة ، والخيالات اللامعة ، و إنما يفتش فى أعماق النفس ، و يكشف عن أحزانها وأفراحها ، ولا يكتفى بالوقوف إلى جانب الجداول المترقرقة التى تنعكس فى صفحتها الأزاهير والشجيرات ، و إنما يجترىء على الخوض فى بحر الحياة الزاخر المتدفق .

وهو لا يزعم أنه يبلغنا رسالة ، أو يحاول إثبات شىء ليرغمنا على قبوله ، بل هو من نزاهة القصد وصدق الإخلاص بحيث لا يحجم عن مهاجمة فروضه وتعديلها ، وعرض ما يوجه إليها من نقد وتفنيد ، وكتابه يشبه كتب الاعترافات فقد سجل فيه ما جال بنفسه ، وخطر بفكره ، وضمنه حكمته وفلسفته وشاعريته وتصوفه ، و إلى القارئ بعض المختارات من هذا الكتاب القيم قد لا تكون من خير ما فيه ولكنها تبين اتجاه تفكيره ولون أدبه :

لا أزعم أن القدر عادل ، وأنه يثيب الخير و يعاقب الشرير ، وهل تستطيع النفس التى كانت واثقة من المثوبة أن تدعى الصلاح ؟ ولكننا

أقل عدلا من القدر حتى حينما يكون القدر هو الذى نحكم عليه ، فعيوننا لا تبصر سوى الكوارث التى تصيب الحكيم ، وذلك لأننا جميعاً نعرف تلك الكوارث، ولكننا لا نرى سعادته، لأن تقدير سعادة الحكيم والعادل تقتضى أن يكون نصيبنا من الحكمة والعدل معادلاً لنصيبهما ، وحينما يحاول الرجل الصغير النفس أن يقدر سعادة الحكيم العظيم تلفى تلك السعادة تنساب من بين أنامله انسياب الماء ، ولكنها مع ذلك فى زنة الذهب ولمعانه فى يد ضريبه فى الحكمة ، لأن كليهما قد أوتى السعادة التى يستطيع أن يفهمها على خير وجه ، والنائبة التى تنوب الحكيم قد تشبه النوائب التى تقرع مروة غيره من الناس ولكن سعادته لا علاقة لها البتة بما يدعوه غير الحكماء سعادة ، وفى السعادة نواح مجهولة أكثر مما فى الشقاء وصوت الشقاء لا يتغير أبداً أما السعادة فكلما تغلغلت إلى الأعماق كانت أخفت صوتاً وأكثر صمتاً .

وحينما نضع مصائبنا وأحزاننا فى كفة يضع كل منا فى الكفة الأخرى كل ما يعتبره سعادة ، فالمستوحش يضع فى كفة الميزان ريشاً ومسحوقاً وخمراً ، والرجل المتحضر يضع بعض الذهب وعدة من أيام النشوات والصبوات ، أما الحكيم فإنه يضع أشياء لا يأخذها العد تغيب عن أبصارنا وربما يضع روحه برمتها وحتى الشقاء الذى كابده فهذبه وصفاه .

***

إذا ذكرت لفظة القدر ارتسم فى عقول الناس صورة الحزن والخوف وطالعهم شبح الموت ، والذى يدور فى أخلادهم بدافع من الغريزة هو أنه

الطريق المفضى مباشرة إلى القبر ، وهو عند معظم الناس الاسم الذى يطلقونه على الموت حينما تكون يده بعيدة عن الأبصار ، إنه الموت الذى يلمح فى ثنايا المستقبل وظل الموت الملقى على الحياة، ونحن حينما نسمع بالموت الذى يترصد المسافر فى منعطف الطريق نقول «لا يستطيع إنسان أن يأبق مما قدر له » ، ولكن لو لقى المسافر السعادة لما عزونا ذلك إلى القدر ، ولو فعلنا ذلك لأصبح فى خاطرنا إلها مختلفاً كل الاختلاف ، ولكن ألا نلقى برغم ذلك فى طرق الحياة من الأفراح ما هو أجل وأعظم من أية كارثة وأكبر شأناً من الموت نفسه ؟ أما يمكن أن نلقى سعادة لا تستطيع العين أن تبصرها ! أليس من طبيعة السعادة أن تكون أقل ظهوراً من الشقاء وأن تدق رؤيتها على الأبصار كلما توقلت فى المرتفعات الأسمى؟ ولكننا نتجانف عن ذلك ونأبى أن نعيره التفاتنا ، وقد يهرع أهل القرية برمتهم وسكان المدينة بأسرهم إلى المكان الذى وقعت فيه حادثة محزنة ولكن لم أر إنساناً يتريث لحظة ليتأمل قبلة أو يشاهد رؤية جمال ملأ النفس حبوراً أو أشعة حب يضىء القلب ، وقد تدخل القبلة على نفوسنا من السرور ما لا يقل عظمة عن الألم الذى يحدثه الجرح ، إننا قاسطون لأننا نفرق على الدوام بين القدر والسعادة ، وإذا كنا لا نعتبر القدر غير متصل بالموت فما ذاك إلا لأننا نوثق الروابط بينه و بين كوارث أجل وأفدح من الموت نفسه .

***

من الخطأ أن لا نفكر فى القدر إلا متصلاً بالموت والكارثة ، فتى يحين

الوقت الذى يبطل فيه اعتقادنا أن الموت — لا الحياة — هو المهم ، وأن المصيبة أعظم من السعادة ؟ ولماذا حينما نحاول أن نلخص مصير إنسان نظل عاقدى الطرف بالدموع التى أراقها ولا نفكر أبداً فى ابتسامات ابتهاجه ؟ ومن أين تعلمنا أن الموت هو الذى يحدد قيمة الحياة لا أن الحياة هى التى تحدد قيمة الموت ؟ ونحن نرثى لمصير سقراط ودنكان وأنتيجون وغيرهم ممن كانت حياتهم نبيلة ، ويؤسفنا أن خاتمتهم كانت فجاءة وقاسية ، ويميل بنا ذلك إلى التسليم بأن الكوارث تغشى الحكمة والفضيلة على السواء، ولكنك أنت نفسك — قبل كل شىء — لست عادلاً ولا حكيماً إذا كنت تلتمس فى الحكمة والعدل شيئاً آخر غير الحكمة والعدل ، وفضلاً عن ذلك فبأى حق نختصر وجوداً كاملاً فى ساعة موت واحدة ؟ ولماذا نستخلص من حقيقة أن سقراط وأنتيجون لم يكن ختام حياتيهما سعيداً أن حكمتهما وفضيلتهما هما اللتان ساقتا إليهما الكارثة ؟ وهل للموت مكان فى الحياة أوسع مدى مما للميلاد ؟ إننا حين نفكر فى مصير الحكيم لا ندخل فى حسابنا ميلاده ، والسعادة أو الشقاء إنما تنشأ من الأعمال التى تصدر عنا من يوم ميلادنا إلى يوم وفاتنا، فنحن لا نهتدى إلى سعادة الإنسان الحقيقية أو حزنه الصادق فى الموت وإنما فى الأيام والسنوات التى تسبقه ، ويبدو أننا يخيل إلينا أن الحكيم الذى قد سطر التاريخ خاتمته المحزنة الفاجعة قضى حياته متوقعاً الخاتمة الأليمة التى أعدتها له حكمته ، على حين أن الواقع هو أن فكرة الموت لا تشغل بال الحكيم كما تشغل بال الشرير ، ولم يكن

عند سقراط من الأسباب الكثيرة التى تدعو إلى الخوف من النهاية الرهيبة مثلما كان عند ما كبث ، وموت سقراط و إن لم يكن سعيداً إلا أنه على الأقل لم يغمر حياته بالظلام ، فهو لم يقض أيامه جميعها فى ميتات تمهيدية كما فعل ثين الكودرى ، ولكن من أشق الأمور علينا أن لا نعتقد أن الجرح الذى ينضح دماً ساعات قلائل لا بد أن يقوض سعادة الحياة و يمحوها محواً

✡ ✡ ✡

لنذكر على الدوام أنه لا شىء يصيبنا إلا وهو من طبيعة نفسنا ومعدنها، فكل محنة نستهدف لها تلبس لنفوسنا لبوس أفكارنا العادية المألوفة ، وأعمال البطولة لا تتاح إلا لهؤلاء الذين كانوا لسنوات طويلة أبطالاً مغمورين صامتين ، وسواء هبطت الوادى أو رقيت الجبل وسواء قمت بسياحة إلى نهاية الدنيا أو اكتفيت بالطواف حول دارك فإنك لا تقابل غير نفسك فى طريق القدر ، و إذا انطلق يهوذا هذه الليلة سعت به قدمه نحو يهوذا ، ولن تفلت منه فرصة الخيانة ، ولكن ليتمكن سقراط من فتح الباب فإنه لا محالة واجد سقرط راقداً بالمدخل إزاءه ، وستتاح الفرصة للحكمة ، وما نستهدف له من شتى المخاطرات يتطاير حولنا تطاير النحل حول خليته حينما يكون على نية الاحتشاد ، فهى تنتظر انبعاث الفكرة الرئيسية من نفوسنا ، فإذا لاحت هذه الفكرة تدفعت نحوها والتفت حولها ، فكن كاذباً مبطلاً تسرع اليك الأكاذيب والأباطيل ، ولينبض بالحب قلبك فسرعان ما تستبق إليك المخاطرات خفاقة القلب بالحب ، وهى جميعها على

ما يبدو فى موقف الانتظار تترقب إشارة من طرف القلب ، فإذا صارت الروح عند إقبال المساء أوفر حكمة أمسى الحزن الذى صاغته الروح فى الصباح كذلك أكثر حكمة .

***

لنتجنب المبالغة حينما نتحدث عن الحكمة ، فنحن نعلم أن القوى الخارجية لا تعنو للرجل الصالح ، ولكنه لا يزال السيد المطلق فى عالم قواه الداخلية ، وهذه القوى الداخلية هى التى تسدى وتلحم نسيج سعادتنا وشقائنا ، ومجرد حضور الحكيم يكفى لاعتقال الكوارث التى تنشأ من الخطأ والشر ، فهى لا تستطيع الدنو منه أو ممن حوله ، وحول الرجل الصالح المستقيم دائرة من السلام واسعة المدى سرعان ما تمتنع عن السقوط فيها سهام الشر ، وليس فى مستطاع رفقائه أن يذيقوه الآلام المعنوية ، لأننا فى الواقع إذا كان كيد أعدائنا يسيل دموعنا فما ذاك إلا لأننا كنا نود أن نبكيهم ، وإذا كانت سهام الحسد تجرحنا وتجرى دماءنا فما ذاك إلا لأننا عندنا سهام نريد أن نطلقها ، وإذا كانت الخيانة تستثير الزفرات من حنايا ضلوعنا فما ذاك إلا لأننا نحن أنفسنا خونة غير مخلصين ، فهذه الأسلحة لا تستطيع أن تجرح إلا الروح التى لم تقدمها قرباناً على هيكل الحب .

***

كلما تعمقنا فى الحياة وضح لنا الكثير مما خفى علينا من أسرار الحزن

واليأس ، ورأينا أن الكثيرين حولنا يعيشون عيشة خاملة تافهة لاعتقادهم أنهم لا يصلحون لشيء ، ولا يعنى بأمرهم أحد ، ولا يحبهم إنسان لأنهم مجردون مما يستوجب الحب ، ولكن الحكيم لا بد أن تتأوبه الساعة التى يرى فيها أن كل روح كائنة تستحق التفاته ورضاه وحبه ، ولو لم يكن ذلك إلا لإنها تملك هبة الوجود الغامضة الخفية ، ولا بد أن تحين الساعة التى يرى فيها أن الزيف والضعف والرذيلة جميعها لا تتجاوز السطح ، ويستشف بصره القوة والحق والفضيلة الكامنة وراء ذلك ، وإنها الساعة مباركة سعيدة حينما يتكشف لنا الشر عن خير لم يجد هادياً ، وتتجلى لنا الخيانة ولاء يضل أبداً طريق السعادة ، وتستحيل الكراهة حباً قد حداه اليأس المرير على الحفر فى القبور .

***

لنذهب حيث شئنا فإن نهر الحياة الزاخر يتدفق تحت قبة السماء ، وهو ينساب بين حيطان السجون حيث لا تشرق أشعة على مياهه كما يجرى إلى جانب درج القصر حيث الابتهاج والمجد ، وليس يعنينا عمق ذلك النهر أو اتساعه أو قوة تياره فى تدفعه الدائم ، وإنما الذى نعنى به أعظم عناية هو حجم الكأس التى نغمرها فى مياهه وصفائها ، لأن كل ما نترشفه من الحياه يأخذ شكل تلك الكأس ، وهذه الكاس نفسها تأخذ شكل أفكارنا ومشاعرنا ، ولكل إنسان كأس قد صاغها لتلائم ذوقه ومشربه ، وهى فى أغلب الأوقات التى تعلمنا أن نطلبها ، فإذا تذمرنا من

القدر فلنقصر شكوانا على أن القدر لم يغرس فى قلوبنا الرغبة فى كأس أوفى وأكمل ، لأن الحقيقة أن عدم المساواة لا توجد إلا فى الرغبة ، وعدم المساواة هذا يزول حينما ندركه ، ففكرة أن رغبتنا كان يمكن أن تكون أنبل تسوق إلينا النبل فى التو واللحظة ، والذى يعلم أن مشاعره ينقصها الحماسة الكريمة ليس من حقه أن يشكو ، وإذا كنت أحسد حسداً شريفاً هؤلاء الذين استطاعوا أن يغمروا كأساً أوفى وألمع من كأسى حيث النهر على أتم ما يكون من إشراق الصفحة فإن لى — وإن كنت أجهل ذلك — نصيباً وافراً من كل ما استمدوه من النهر ، وشفتى تجاور شفاههم على حافة الكأس المؤتلقة .

✡ ✡ ✡

لنترك المماحكة فى عدم اكتراث الطبيعة بالحكيم ، فعدم اكتراثها هذا يبدو لنا غريباً لأننا لم نصبح بعد حكماء ، وأول واجبات الحكمة هو أن نظهر ضؤولة المكانة التى يشغلها الإنسان فى الكون .

والإنسان يبدو ذا شأن فى حيزه كالنحلة فى الخلية ، ومن العبث التفكير فى أن زهرة واحدة فى الحقول ستتفتح لأن ملكة النحل قد أثبتت بطولتها فى الخلية ، ولا يذهبن بنا الظن بأننا ننتقص من قيمتنا إذا أكبرنا شأن الكون ، وسواء عددنا الكون برمته عظيماً أو عددنا أنفسنا عظماء فإن حاسة اللانهائى ستنتبه فى نفوسنا ، وهى دم الحياة الذى يجرى فى عروق الفضيلة ، وما هو العمل الفاضل حتى ننتظر مثل هذا الجزاء الضخم ؟

فثواب الفضيلة ينبغى أن يكون فى نفوسنا لأن قانون الجاذبية لا ينحرف ولا يحيد ، والذين لا يفقهون معنى الخير هم أعلى الناس صوتاً فى طاب المثوبة لعمل الخير ، وقبل كل شيء لنذكر على الدوام أن عمل الخير نفسه لون من السعادة ، فهو ثمرة حياة داخلية طويلة فرحة قانعة ، وهو يروى لنا عن ساعات وأيام هادئة وديعة فى أشرق أعالى روحنا ، وليست هناك مكافأة تعادل هذه المتعة ، وقد يكون هناك سرور فى عمل الخير ابتغاء غاية معلومة ، ولكن الذين يعملون الخير ولا ينتظرون جزاءً يستشعرون سروراً مقدساً ، ونحن حينما نقارف الشر نعلم الأسباب الداعية إليه ، ولكن أعمالنا الخيرة تصير أصفى وأنقى كلما جهلنا الدافع إليها ، وإذا شئنا أن نقدر الرجل الصالح فما علينا إلا أن نسأله عن الأسباب التى تدعوه إلى الصلاح ، فأصدق الناس صلاحاً أعجزهم عن الجواب ، وقد يظن بعض الناس أنه كلما اتسع العقل فقدت الروح الكثير من دوافع البطولة ، ولكن ليكن نصب عيوننا أن العقل الأرحب يستصحب مثلا أعلى للبطولة أسمى وأنزه ، وفى الحق أن الذى يعتقد أن الفضيلة فى حاجة إلى تأييد القدر لا يملك حاسة الفضيلة الحقة ، ولكى نحسن الصنيع يجب أن نعمل الخير لتلهفنا على عمله ولا ننتظر جزاءً سوى أن نكون أعرف بالخير وأدرى .

ولا يخفى على الله الفرق الواضح بين روح الرجل الذى يعتقد أن أشعة العمل الخير سيترامى ضوؤها إلى أقصى مكان وروح الرجل الذى يعرف أن تلك الأشعة لا تنير سوى قلبه وحده، ولقد يكون للحق المسرف فى الطموح

قوة موقوتة أعظم ولكن القوة التى يجلبها الحق الإنسانى المتواضع أكثر حماسة وأوفر جلداً ، وهل الأجمل بنا أن نكون مثل الجندى الذى يخيل إليه أن كل ضربة من ضرباته تقرب النصر أو أن نكون مثل الجندى الذى يعرف قلة غنائه فى المعركة ولكنه مع ذلك يستبسل فى الجهاد ؟ والرجل المستقيم يترفع عن خديعة جاره ، ولكنه يعلم أن القليل من خداع النفس لازم لمثله الأعلى .

وإذا كان فى الفضيلة مغنم فإن أنبل الناس سيضطرون إلى التماس السعادة فى مظان أخرى ، ولو أكثر الله من مكافأتهم لقضى على غايتهم المثلى فى الحياة ، ولا شىء ضرورى أو لا يمكن الاستغناء عنه ، وإذا حرمت النفس من السرور فى عمل الخير للخير وحده فقد تجد مسرات أخرى أصفى ، ولكن فى غضون ذلك سيظل السرور فى عمل الخير أجمل ما نعرف من ألوان السرور ، فلنكبره من أجل ذلك ، ولنخفف من وطأة استنكارنا للكوارث التى تصيب الفضيلة فى بعض الأوقات خشية أن نكدر صفاء جوهر سعادتها الشفاف ، والروح التى تنعم بتلك السعادة لا تحلم بعدها بالمثوبة أكثر مما يتوقع غيرها العقاب لما فيها من شر وسوء ، وأرفع الناس صوتاً فى طلب العدالة هم الذين لا يعرفونها فى حياتهم .

***

لم لا نسلم بأنه ليس من أسمى واجباتنا أن نبكى مع كل الذين يبكون ، وأن نشاطر الحزن كل حزين ، وأن نعرض قلبنا لكل عابر ليلمسه

برفق أو ليطعنه ؟ إنا لا نجد من الدموع والجروح والآلام أعواناً إلا إذا كانت لا تثبط حياتنا ، ولا يعزبن عن بالنا أبداً أنه مهما كانت رسالتنا فى هذه الدنيا ومهما كان هدف جهودنا وآمالنا ونتيجة مسراتنا وأحزاننا فإننا فوق كل شىء حراس الحياة المسخرون ، وهذا هو أصدق الحقائق وأثبتها ، بل هذا هو الأساس الفذ الذى تقوم عليه الآداب الإنسانية ، لقد أعطينا الحياة لسبب نجهله ، ولكن من المؤكد أنها لم توهب لنا لنحط من شأنها أو لنطرحها بغير مبالاة ، وذلك لأننا نمثل فى هذا الكوكب السيار صورة خاصة من صور الحياة ، وهى حياة الشعور والفكر ، ومن ثم فإن كل ما يضعف من شعورنا وتفكيرنا مخالف للآداب ، وليكن فرضاً علينا أن نقوى تلك الحماسة ونتعهدها ونزيدها روعة وجمالاً ، ولنحاول دائماً تعميق إيماننا بعظمة الإنسان وقوته ومصيره ، أو بضعفه وحزنه وشقائه ، لأن الشقاء الرفيع ليس أقل ابتعاثاً للروح من السعادة السامية ، ولسنا نبالى أكان الإنسان أو الكون هو الخليق بإعجابنا ما دام هناك ما يثير إعجابنا ويقوى فينا حاسة اللانهائى ، وكل نجم جديد يزهر فى السماء يرسل أشعته إلى عواطفنا وأفكارنا وشجاعتنا ، وكل جمال نراه فيما حولنا سرعان ما ينعكس فى نفوسنا ، وما نراه فى أنفسنا عظيماً وجديراً بالعبادة نراه كذلك فى نفوس الغير ولا أستطيع أن أجعلك نبيلاً ما لم أكن قد أصبحت نبيلاً ، وليس فى وسعى أن أمنحك الإعجاب إذا لم يكن فى نفسى شىء يستوجب الإعجاب .

✡ ✡ ✡

إن السمو لا يأتى إلى الروح عن طريق التضحيـة بالنفس ، وكلما تسامت الروح توارت التضحية عن البصر كما تغيب رؤية أزهار الوادى عن نظر المصعد فى الجبل ، والتضحية رمز جميل للقلق ، ولكن يجب أن لا نغذى القلق فى نفوسنا من أجل نفسه ، والروح المستيقظة فى تؤدة يبدو لها كل شيء تضحية ، ولكن أشياء قليلة تبدو كذلك للروح التى صارت تحيا الحياة التى لم يصبح فيها إنكار النفس والرحمة والإخلاص والولاء جذوراً لا يستغنى عنها وإنما أصبحت أزهاراً خفية ، والحقيقة أن الكثيرين يشعرون — بغير موجب — بالحاجة إلى هدم سعادتهم وحبهم وأملهم لكى يستوضحوا صورة النفس فى ضوء اللهب المضنى ، وكأنهم يحملون فى يدهم مصباحاً يجهلون طريقة استعماله ، فإذا زحف الظلام واحتاجوا إلى الضوء بددوا مادته فى نار غيرهم ، ولنحذر من أن نعمل عمل الرجل فى الخرافة الذى كان يحرس المنارة ثم تصدق على الفقراء فى أكواخهم بزيت المصابيح الضخمة التى كانت تضيء البحر ، وكل روح فى حيزها منار قد وكل إليها أمره تتفاوت حاجتها إليه ، وأكثر الأمهات تواضعاً — وهى التى تسمح بأن تحزنها الواجبات المنزلية القليلة الأهمية وتثقل عليها وتستغرق جهدها — تتصدق بزيتها على الفقراء ، وسيلقى أبناؤها الشقاء طوال حياتهم لأن الأشعة التى كان يمكن أن تقتبسها لم تضيء نفسها ، والقوة غير المادية التى تضيء قلبنا يلزم أن تضيء قبل كل شيء

لنفسها ، وهى لا تضىء للآخرين إلا على هذا الشرط ، فاعمل على أن لا تتصدق بزيت مصباحك .

✡ ✡ ✡

أضأل فكرة تفرغ على القلب العزاء والسلوان فى طيها قوة ليست موجودة فى أبلغ شكوى وأبرع تعبير عن الحزن ، والفكرة الواسعة العميقة التى لا تجلب سوى الحزن إنما هى قوة تحرق أجنحتها فى الظلام لتلقى الضوء على حائط سجنها ، وفكرة الأمل الحائر المتردد أو قبول القانون الذى لا مندوحة عنه ببشاشة وارتياح هى فى نفسها قوة متحفزة للعمل .

ايها الشاكي وما بك داء :: كيف تغدو اذا غدو
والذي نفسه بغير جمال :: لا يرى في الحياة شيئا جمي

فهرس

صفحة

١٩٤٧/٢٠٦٩